روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

فتاة الشام



دار الأندلس


فتاة الشام

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر



فتاة الشام

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس ، بيروت ، لبنان

هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

معاوية بن ابي سفيان

تعودنا أن نضع لكل رواية نكتبها تمهيداً ، هو بيـان واضح لكل ما يجيء بعده من الموضوع الروائي .

وليس من الرأي أن ننتقل في البحث التاريخي الروائي ، الى العصر الأموي دون أن نصف لك بوضوح وجلاء معاوية بن أبي سفيان ، هــذا الرجل العظيم الداهية الذي وضع الحجر الأول في بناية الدولة الكبرى ، دولة دمشق .

أجل ، لقد ذكرنا في الرواية السابقة شيئاً عن معـاوية ، ومرّ في الروايات التي تقدمتهـا ، وصف قريش ، قريش التي أنجبت رجالاً سادوا الشرق ، ونقلوا اليه مدنيات الشعوب وأطلقوا أعنة خيلهم الى الغرب ، يريدون أن يخفق العلم العربي ، في فضائه .

ولكن . . . قد يخونك الذهن وتضيع ، في كل ما قرأت ، فخير لنا ولك، أيها القارىء العزيز ، أن نرسل اليك هـذا البيان ، ليسهل الرجوع اليـه في قراءة فتاة الشام .

قريش

أشهر بطون قريش ، بنو هاشم وبنو عبـد شمس ، ويتلاقى نسبهما معاً ، في عبد مناف بن قصي ، الذي وصفنا حياته الخاصة والعامـة ، في روايته حسناء الحجاز .

والنبي العظيم من بني هاشم ، هو ابن عبد الله بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، وبنو أمية من عبد شمس ، منهم أبو سفيان بن حرب ، عـدو النبي

قبل إسلامه ، وابنه معاوية مؤسس دولة الشام وعثمان بن عفان ، ومروان بن الحكم ، وغير هؤلاء .

فمعاوية إذن ، ابن أبي سفيان ، بن حرب ، بن أمية الأكبر ، بن عبد شمس ، ابن عبد مناف .

وكان أبو سفيان كبيراً في قريش ، عظيماً في مكة ، له المنزلة العاليا في العشيرة والرأي المحترم ، وعنده المال الكثير يخرج به الى الشام والبلقاء وحوران على رأس طائفة كبيرة من قومه ، فيها أصهاره وبنوه ثم يرجع وقد اتسعت تجارته ووفر ماله .

على انه كان يحمل في صدره عداوة لبني عمه بني هاشم ، كما كان بنو هاشم يحملون في الصدور عداوة لبني عمهم بني امية .

ولكن أبا سفيان لم يخلق هذه العداوة ، بل خلقها جده أمية ، بعد موت عبد مناف ومر الزمان وهي تشتد ، وحب النفوذ والسلطان ، يزيد النار ضرماً وسعيراً .

نعم إن الحسد الذي تغلل في صدر أمية بن عبد شمس هو الذي خلق العداوة القاتلة ، بين البيتين الكبيرين في قريش ، وقام بنوه وأحفاده بعده ، يخوضون بحرها الزاخر ، ويقذفون بأنفسهم الى الأعماق .

كان أمر السقاية والرفادة في الكعبة قد انتهى الى عبد مناف ، بن قصي .

فلما مات عبد مناف ، انتهى أمرهما الى ولده هاشم وأمية ، ابن اخيه عبد شمس ، ينظر الى هذه الولاية بعينين تتقد فيهما النار .

كان هاشم يطعم الناس ، كما كان يطعمهم أبوه ، وقد ذهب له في رياسته ذكر ، ملأ الحجاز ، وتحدثت به جزيرة العرب .

فخطر لأمية أن يسابقه ، وأوحى اليه حسده أن يطعم العرب ، عند الكعبة ، ما لا يطعمهم هاشم مثله .

ولكنه عجز عن ذلك ، فكان عجزه سبباً للاستخفاف به ثم انتهى الامر

بينهما الى المنافرة ، أي التفاخر « وانما سميت منافرة لأنهم كانوا يقولون اذا تنافروا : أينا أعز نفراً » .

غير أن هاشماً كره أن ينافر ابن أخيه ، فأكرهته قريش على ذلك ، ففعل ، ونافره على خمسين ناقة ، وعلى أن يترك المغلوب مكة عشرين سنة ..!

وجعلا الكاهن الخزاعي حكماً بينهما ، فما لبث هذا الكاهن حتى قضى لهاشم، وغلب أمية .

فأخذ هاشم الإبل فنحرها وجعلها طعاماً للناس ، وكان الحكم يقضي على ابن أخيه بالجلاء عن مكة ، عشرين عاماً كما مرّ ، فجلا وأقام بالشام أعوامه العشرين وهو يحمل ذلك البغض الغريب في قلبه .

●

تلك هي العداوة التي علقت آثارها في نفوس الأمويين ، منذ ذلك الزمن ، وهي العداوة الأولى التي نشأت بين الحيّين .

فلما أظهر النبي دعوته ، وتلألأت أنوار تعاليمه في فضاء الحجاز ، خطر لأبي سفيان وهو صاحب الجاه العريض والتجارة الواسعة ، أن يجاهره بالعداوة ، وينفخ في صدور جماعته من قريش ، روح الدفاع عن أصنام الكعبة ، التي هي آلهة العرب .

ولعله كان يخاف أن تسقط هذه الأصنام ، وتتراجع وفود القوم عن مكة ، ويبطل الحجّ ، وفي ذلك ما فيه من بوار تجارته التي جعلته من صف الأغنياء .

أضف الى ذلك خوفه من أن يحجب نفوذ بني هاشم ، نفوذ بني أمية ، ويستأثر الهاشميون بالسلطان .

وأبو سفيان قويٌ في مكة كما رأيت ، وخلفه طائفة من وجوه قريش ، هم أصحاب مال وأصحاب سيف .

فتصدوا للنبي ، ثم حاربوه حرباً آثروا معها الموت على الحياة في ظل بني هاشم ، ولم تزل هذه الحرب قائمة بين الفريقين ، حتى فتحت مكة ، وقد قرأت أخبار هذا الفتح في رواية ، هند والمنذر .

نشأة معاوية

ولد معاوية ، في السنة الثامنةعشرة قبل الهجرة ، وأمه هند بنت عتبة ، بن ربيعة بن عبد شمس .

ونشأ كما ينشأ أبناء النبلاء ، عباد الأصنام ، في ظل قوم هم سادة الحجـــاز وحراس البيت الحرام ، وقد شهر السيف في وجه النبي العظيم ، كما شهره أبوه حتى أسلم أبو سفيان وبنوه ، عام الفتح ، وفيهم معاوية ، وهو في السادسة والعشرين.

وكانت أمه هند امرأة ذات صلابة وشد ، وقد أسلم زوجها وبنوه ، قبل أن تعرف الإسلام وقبل أن تدخل فيه .

فلما أقبل أبو سفيان ، يدعو الناس في مكة الى الاسلام ، كان يقول : يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

وسمعت زوجته هند ما يقول ، فأمسكت لحيته ورفعت صوتها قائلة : اقتلوا الخبيث الدنس الذي لاخير فيه ، اقتلوا الشيخ الأحمق .. هلاً قاتلتم ودافعتم عن أنفسكم وبلادكم . وهذا معناه أن معاوية ورث من أمه شيئاً من عزتها ، وعزيمتها الثابتة .

وقرب النبي معاوية اليه ، بعد إسلامه ، حتى تولى الكتابة بين يديه ، وجاء في « السيرة الحلبية » أن معاوية مع زيد بن ثابت ، كانا يكتبان للنبي في الوحي وغيره ، ليس لهما عمل غير هذا .

وبدأ معاوية منذ ذلك الحين يعالج السياسة ويبلو الزمان .

وكان داهية هادئاً ، واسع الحلم رحب الصدر ، يطمح الى المعالي حتى انه لم يكن لطموحه حد .

ومات النبي وتولى أبو بكر ، فبعث بقواد الجيش لفتح الشام ، ويزيد بن أبي سفيان ، شقيق معاوية ، بين أولئك القواد .

وسار معاوية مع أخيه ، يشهد الوقائع ويبرز الى ساحات الحرب ، ولكنه لم يكن رجل حرب ، بل رجل سياسة ودهاء .

ثم فتحت الشام ، فخرج منها ابو عبيـــدة بن الجراح يريـد فتح الساحل ، واستخلف عليها يزيد بن أبي سفيان .

ويزيد بعيد الهمة صادق العقيدة ، وقد رأى أن بعض مدن الساحل لم تخضع للاسلام فترك الشام غازياً ومعاوية معه ، ولم يلبثا حتى فتحا صيدا وعرقة وجبيل وبيروت ، ثم استرجع الروم بعض هذه المدن في آخر خلافة عمر بن الخطاب وفجر خلافة عثمان ، فغزاهم معاوية وأخضع مدنهم بالسيف .

وظل يزيد أميراً على الشام حتى توفي في السنة العشرين ، فلما بلغ عمر بن الخطاب خبر موته قال لأبي سفيان : أحسن الله عزاءك في يزيد .

فقال : ومن ولّيت مكانه ؟ — قال : أخاه معاوية .

قال : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين .

على ان إمارة معاوية التي عهد اليه عمر فيها لم تكن واسعة الأرجاء ، بل لم تكن تضم غير مدينة دمشق وبعض الضواحي .

وقد مرّت أعوام أربعة في خلافة عمر ، ومعاوية قانع بولايته راض بما قسم له الله ، حتى انتقلت الخلافة الى عثمان ، ذلك الخليفة الذي رفع رجال بني أمية الى مقاعد الحكم ، وأطلق أيدي أنسبائه في كل قطر .

وقد كان نصيب معاوية منه الشيء الكثير ، فقد جعله والياً على بلاد الشام كلها ، ساحلها وجبلها ، يخرج منه غازياً عندما يشاء ، ويرجع عندما يشاء ويفعل ما يشاء .

وقد رأيت في الرواية السابقة ، ما فعله أهل الكوفة والبصرة ومصر مع عثمان ، ولمست بيدك ذلك الغضب الذي تأججت ناره في الصدور .

وكان معاوية في الشام ، يعرف كل شيء ، ورجاله في المدينة يحملون اليه أخبار القائمين بالثورة ، الراغبين في إصلاح الحال .

فلما رأى ان الأمر قد اشتد ، أتى المدينة ووضع يده بيد عثمان قائلاً له : إن القوم طلاب فتنة ، وهم طائفة قليلة لا يستطيعون أن يحدثوا حدثاً في خلافة المسلمين .

ودعاه الى الثبات والشدة في الأمر .

وبينما هو في مجلسه ، دخل علي وطلحة والزبير ، فخطب فيهم معاوية وجعل

يقول : أنتم أصحاب رسول الله وخيرته من خلقه ، وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم هذا عن غير غلبة ولا طمع ، وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً..وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ، ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً إلا ادباراً .

فعظم الأمر على علي فقال : ما لك ولهذا لا أمْ لك .

قال : دع أمي فانها ليست بشرّ أمهاتكم قد أسلمت وبايعت النبي وأجبني عما أقول لك . .

فقال عثمان : صدق ابن أخي أنا أخبركم عني وعما وليت ، وجعل يعتذر .

ثم أرضاهم فخرجوا ، وبقي معاوية ، فقال عثمان :

اخرج معي الى الشام فأهلها على الطاعة .

ولعله كان يريد ان يجعل دمشق داراً للخلافة في ذلك الحين ، فيكون عثمان آلة في يده ، ويوصي له بالخلافة قبل أن يموت ، ولكن عثمان لم يرضَ .

ثم قتل عثمان ، وبايع القوم علياً في المدينة ، أما هو فلم يبايعه كما رأيت ، بل علق قميص عثمان الملطخ بدمه في منبر دمشق ، وعلق معه أصابع زوجته نائلة وجعل يوغر الصدور ، ويدعو الناس الى الطلب بدم الخليفة القتيل قائلاً :

قاتل خليفتكم هو علي ! . .

وجاء عمر بن العاص الداهية الآخر ، يعرض على معاوية سيفه ويطلب اليه أن يوليه أمر مصر إذا سلب علياً خلافته واستقام له الأمر .

ثم كانت واقعة صفين وأمر التحكيم ، وفتح عمرو بن العاص بعد ذلك مصر وقتل أميرها محمد بن أبي بكر ، ثم قتل علي ، وبويع الحسن ، وانتهى الأمر بأن تخلى الخليفة الهاشمي ، عن العرش ، للأمير الأموي ...

وأمسى معاوية بعد ذلك ، خليفة المسلمين وحده ، لا ينازعه الخلافة أحد ولا تجسر أيدي الأمراء على ان تمتد الى عرشه ، وكان يعلم ان بين بني هاشم رجالاً تطمع الأمة في ان توليهم الأمر أعظمهم مقاماً وأرفعهم شأناً الحسين بن علي .

يزيد بن معاوية

كان لمعاوية بنون ثلاثة : عبد الرحمن ، ويزيد ، وعبد الله ، وقد مات عبد الرحمن وهو صغير .

وأم يزيد ميسون بنت بهدل ، بن حنيف الكلبية وبهدل ابوها ، زعيم عشيرته وسيدها ، وصاحب الرأي الاول بين عشائر العرب النازلة في القطر الشامي .

وكانت كلب ، عشيرة ميسون ، عشيرة نصرانية ، وقد دخلت في الاسلام بعد فتح الشام ، ومشى سيدها في سبيل النفوذ والجاه ، مشي الرجل الجبار لا يبالي بالأخطار حتى أمسى ، وامسى قومه ، من المقربين الى امراء الشام ، ثم الى بلاط معاوية ، يتناولون عطاءهم من المال ، في كل عام .

ومعاوية اذا تزوج ميسون ، فزواجه سياسي ، وانه ليعلم ، أية قبيلة من قبائل العرب ، تستحق ان تصاهر سيد بني امية الاكبر ، الذي يمشي بخطى واسعة الى العرش .

وكل ابتسامة ، من ابتسامات معاوية ، تعود الى السياسة فهو يستوحي سياسته اذا خطب .. ويستوحي دهاءه اذا بذل المال .. ويستعين بالحلم على قضاء الأغراض ..

والمؤرخون ، من المستشرقين والعرب ، يقولون : إن الخليفة الأموي الاول اعظم سياسي في العرب ، ولم يقم في زمانه رجل أبعد نظراً وأكثر دهاء منه .

نظر الى ولده عبد الله فاذا هو أحمق لا رأي له ، فحول نظره الى يزيد كالملك ينظر الى ولي عهده ، وأعطاه من عاطفته وحبه وإحساسه مالم يعطه سواه من بنيه .

وهو في ذلك يعده للملك ... لخلافة الاسلام ، للجلوس على عرش الامبراطورية العربية بعده ، نعم ، لم تكن الخلافة قبل معاوية إرثاً لأبناء الخليفة واحفاده ، بل كانت انتخاباً كما رأيت . .

يموت الخليفة فينظر رجال الشورى في امر الرجل الذي يولون ثم يعمدون الى المبايعة دون ان يكون لابناء الخلفاء فضل في ذلك على الآخرين .

ولكن معاوية لم يشأ – بعد ان تخلى الحسن بن علي عن الخلافة واستقام له

الأمر – إلا ان يخلع الثوب القديم ويجعل الملك إرثاً لبنيه .

وكانت هذه الفكرة تملأ ذهنه واحساسه ؛ وعلى اساسها الذي تكتنفه الأخطار أراد ان ينشأ ولي العهد ، وكان يمهد لها وهو على سرير الملك ، ويعالج امرها بالحكمة والحيلة والدهاء ، ويهيء لها الزمان الصالح لينشرها في الاسلام .

وانها لفكرة جريئة في ذلك الجو المكفهر .. في ذلك العهد المضطرب الفياض بالفتنة والثورة والنزاع ، وليس غريباً ان يعد معاوية عدته للحادثات بل لم يكن من الغريب ان يفكر اليوم في امر لا يتم له او لذريته إلا بعد جيل !

فكّر في الخلافة ، والنبي حي ، وكان يحلم بالعرش وهو في ربيع العمر ثم برز الى الساحة يجاهد جهاد الجبابرة حتى بلغ الغاية .

وهو القائل لقومه : ما زلت اطمع بالخلافة مذ قال لي رسول الله : إن وليت فأحسن .

فلا تستغرب ايها القارىء ، اذا رأيت معاوية ، وهو على العرش ، يحاول ان يخضع الزمان لإرادته ، وسياسته الناعمة .. التي ليس لها حدّ .

ولا تستغرب اذا رأيت هذا الزمان خاضعاً لمشيئته وعوناً له !

●

كان يزيد في الخامسة عشرة من العمر ، عندما انتهى امر الخلافة الى ابيه .

وكان معاوية ، قد بعث به الى اخواله بني كلب ، وهم في تدمر لينشأ في البادية ، كما ينشأ معظم فتيان العرب أبناء الشرف والمجد .

ويخلوا الجو في البادية ، لاولئك الفتيان عشاق المرح واللهو ، الذين لا يطيب لهم عيش ، إلا اذا تمرغوا في اللذة ، بين زقاق الخمر ، ويزيد من هؤلاء .

تعشق البداوة وهو صغير ، البداوة الحرة الضاحكة الطليقة من كل قيد ، لا البداوة القاسية ، التي تغمرها الصلابة والجفاف .

وأحب الصيد والشراب .. والعبث من جميع نواحيه ، واختار له في شبابه ، وهو في دمشق ، إخوان مودة وصفاء ، يجالسونه على شرابه ، ويسمعون معه شعر جرير والأخطل ، وغناء المغنين .

على ان معاوية ، استطاع ان يقرأ نفس ولده ، الراجع من البادية ، ويلمس عاطفته ورغبته في حياة اللهو ، فبذل في سبيل تعليمه جهده كله ، واختار ، من اجل هذه الغاية ، نخبة من العلماء والفقهاء يعلمون الامير الصغير الشعر والقرآن والحديث وعلوم ذلك الزمان .

ثم جعل يدعوه الى مجلسه ، ويحدث وجوه دولته ، وقواد جيشه ، بأمور الادارة والسياسة ، والحروب ، وهو حاضر ، ثم يحدثه إذا خرجوا ، بأسرار الحكم وقيادة الشعب ، ويصف له رجال بني هاشم ، وبني أمية ، وأخلاق الوزراء والولاة والمقربين لا ينسى احداً كأن بين يديه كتاباً يقرأ صفحاته ..

فاذا انتهى من هذا ، سمى له أعداءه ومحبيه واحداً بعد واحد وحذره من دعاة السوء الذين يعكرون الماء ، ومن اولئك المرائين الكذبة الذين يجثون على الركب عند قدمي الخليفة طمعاً بغاية من الغايات .

وبعد هذا الدرس السياسي الذي يقوم به كل يوم ، يعمد الى بذل النصح ، ويدل ولده على العيوب التي تنال من كرامة ولي العهد وتذهب بهيبة الملك .

ويزيد يصغي الى أبيه ويسمع له ، ولكنه إذا خرج ، ذكر إخوانه .. وتمشى حب اللهو في دمه ، فيترك دمشق ، مستخفياً عن عيني أبيه ، في دير موران ، ولعله في الغوطة او في طبرية ، من فلسطين ، او في حوارين بالقرب من حمص ليقضي هو وإخوانه وشعراؤه شهراً او بعض الشهر ثم يعود .

ويعود معاوية الى النصح باللين والرفق وهو يرى ان ولي عهده لا يستطيع ان يظهر بالمظهر الذي يريده له .

وحسب معاوية ان يخرج ولده من دمشق عندما يطيب له المرح وينصرف الى عبثه وهو بعيد عنها لا تراه العيون .

وكان الوالد البار ، الذي لم يساعده القدر في تربية ولي عهده كما يشاء وكما تقضي سياسة الملك ، يقول لمن يسأله عن يزيد إذا غاب :

انه يشهد سباق الخيل عند حمص .

ويزيد المولع بالسباق ، هو الذي أنشأ للخيل عند حمص ميداناً تتسابق فيه .

تلك هي ناحية خاصة من حياة يزيـــد ، أضف اليها شيئاً من الشدة يضعها في الموضع الذي يضع أبوه حلمه فيه ، ولو كان هو صاحب السلطان في أيام معاوية لكان بعيداً عن الرفق بقدر ما كان معاوية قريباً منه .

ولكن إذا نظرت الى يزيد من الناحية العامـة ، رأيته كريماً جواداً ، يبذل المال في سبيل ملكه بدون حساب ، والبذل لون ساحر من ألوان السياسة . . . ورأيته أديباً يحب العلماء ويؤثر الشعراء ، وشديداً تغلب شدته لينـه ، في جميع مواقفه العامة والخاصة وقد تكون هذه الشدة قطعة من خشونة البادية ..ولعلها هي التي أملت عليه ان يكون بطاشاً بدون دهاء .

يقول صاحب الأغاني : كان يزيد أول من سنّ الملاهي من الخلفـاء ، وآوى المغنـين ، وأظهر الفتك وشرب الخمر ، وكان ينـــادم عليهـا سرجون مولاه ، والأخطل الشاعر .

●

١

نحن الآن في السنة الثانية والاربعين ، وقد خلا الجو لمعاويةِ كما رأيت .

ولكنه رأى وهو السياسي البعيد النظر أن هناك في الأقطار الاسلامية البعيدة عنه ، رجالاً لهم مقامهم وشأنهم لم يبايعوه وهم رجال إدارة ورجال سيف .

أعظم هؤلاء الرجال خطراً زياد بن أبيه ، الذي اطلعت في رواية سابقة خبر امتناعه في فارس وحكاية بنيه الثلاثة الذين قتلهم في البصرة يسر بن ابي أرطاة .

وزياد من شيعة علي ، وعلي ، رضي الله عنه هو الذي بعث به اليها قبل موته .

والخليفة مثل معاوية لا يطيب له عيش إذا كان في أقاليم دولته ، رجال مثل زياد يترددون في الاستسلام اليه .

وهل يستطيع زياد وهو الرجل المقيم بفارس أن يعكر على معـــاوية صفو عيشه ، وهو سيد العرب وداهيتها وصاحب السلطان الذي تنحني له رقاب الامراء.

وأي رجل هو زياد بن أبيه ؟

هو رجل من الفولاذ ، صلب الرأي قوي الشكيمة عـالم بالسياسة له الارادة الحديدية التي لا تلين والعزيمة الثابتة التي لا تتراجع ولو صارعت الموت .

وقد يغوص زياد هو وبنوه وأهل بيته في بحر من الدمـاء ولا يبالي وقد يرى الخطر فاتحاً فاه فيقذف بنفسه الى لجته لا يتردد ولا يخاف ولا يطرف له جفن .

ومعاوية في حفظ هيبتـه ، ومدّ رواق سلطانه يحتاج الى مثل زياد ويبذل دهاءه كله في سبيل استمالته اليه .

وليس له عادة ، في هذه الناحية من نواحي السياسة ، فقد يقسو في أول مرة ثم يلين وقد يلين ثم يقسو ، وهو في قسوته ولينه ، يعالج الامر دون ان يتعجل فيه .

هدّد زياداً كما قرأت ، فأسمعـه زياد وهو في فارس ما لا يحب . . وهمّ يسر ابن أبي أرطاة بقتل الاطفال الثلاثة ، فنهاه معاوية عن ذلك بكتاب حمله اليه ابو بكرة ، شقيق زياد لأمـه ثم مر بعض الزمن ، وزياد في فارس لا يرحل عنها ولا يبايع ، وعيون أمير المؤمنين تحصي عليه أنفاسه ، وأمير المؤمنين نفسه ينظر في أمر هذا الجفاء ويعد العـدة له ، ولم يبق إلا ان يرسل آخر سهم من سهام قسوته ثم يجيء دور اللين .

فكتب الى المغيرة بن شعبـة ، وهو والي الكوفة ، يأمره بأن يأتي البصرة وينظر في أموال زياد ، وكان مال زياد مع عبـد الرحمن بن أبي بكرة والمغيرة يحب زياداً ولا يريد ان يسلبه ماله .

فقال لعبـد الرحمن : إن كان أبوك قد أساء اليّ فقد أحسن عمك وهو يعني زياداً ، وكتب الى معاوية يقول له : لم أجد في يد عبد الرحمن مالا يحل لي أخذه ، فأجابه معاوية : عذب عبد الرحمن .

فأظهر الرجل أنه يعذبه ثم كتب : عذبته فلم اصب شيئاً عنده .

ورحل المغيرة الى الشام ومثل بين يدي معاوية :

فقال له : وأين هو إذن مال زياد ؟ — قال لا أعلم يا أمير المؤمنين .

قال : لي سر أريد ان أبوح لك به . — وما ذلك ؟

قال : ذكرت زياداً واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتي .

– وهل تخشاه يا أمير المؤمنين ؟

قال : إنه داهية العرب ومعه أموال فارس ، وأنا أخاف ان يبايع رجلاً من أهل هذا البيت .

قال أتأذن لي في الذهاب الى فارس ؟

– وما تصنع ؟ – أدعوه الى الطاعة فقد يسمع لي .

فقال معاوية في نفسه : إن اللين قد أتت ساعته الآن ... ثم قال له :

اذهب ، وكن ذلك الرجل الذي يؤمن أمير المؤمنين بوفائه واخلاصه .

ولكن احذر أن تغضبه يا ابن شعبة .

– سترى يا مولاي أني أشد الناس اخلاصاً لك ، وأنا واثق بأن زياداً سيكون لك ، وسيحمل السيف دفاعاً عن دولتك ، عندما تحتاج اليه .

وقام فركب من ساعته الى فارس ، وقلبه يحدثه بأن الصلح سيبسط ظله فوق الرجلين .

•

٢

أم زياد اسمها سميّة ، أما أبوه ، فقد ذكر بعضهم انه أبو سفيان ، والد معاوية.

ولهذا حكاية يرويها ابن الأثير ، بقوله : كانت سمية ام زياد ، لأمير فارسي في زندورد ، فمرض هذا الأمير ، ورأى أن يدعو الحرث بن كلدة طبيب العرب ليعالجه ، فعالجه فبرىء ، فوهب له سمية ، فولدت عند الحرث أبا بكرة الذي ورد ذكره واسمه نفيع ، ثم ولدت ولداً آخر يدعى نافعاً .

وتزوج سمية بعد ذلك غلام للحرث اسمه عبيد وهو رومي .

وسار ابو سفيان بن حرب ، في الجاهلية ، الى الطائف ، فنزل على خمار يقال له ابو مريم السلولي وعرف سمية وهو عنده ، فعلقت منه بزياد ، ثم وضعته في السنة الاولى من الهجرة .

فلما كبر ونشأ ، استكتبه ابو موسى الأشعري ، لما ولي البصرة .

ثم ان عمر بن الخطاب ، كلف زياداً قضاء أمر ، فقام به .

ثم مثل بين يديه ، وعنده المهاجرون والأنصار ، فخطب خطبة لم يسمعوا بمثلها ، فقال عمرو بن العاص :

لله هذا الغلام ، لو كان ابوه من قريش لساق العرب بعصاه ، فقال ابو سفيان وهو حاضر : والله إني لاعرف اباه .. فقال عليّ : اسكت يا أبا سفيان فانك لتعلم ان عمر لو سمع هذا القول منك لكان اليك سريعاً ...

فلما ولي علي الخلافة ، استعمل زياداً على فارس ، فضبطها ، وحمى قلاعها وساء ذلك معاوية كما مرّ . وكان معاوية يعلم من أمر زياد ما يعلمه الناس .

فلما طلب اليه المغيرة بن شعبة ان يأذن له في الذهاب الى فارس ، رأى من الحكمة أن يسترضي زياداً فأوصى المغيرة ان يكون في حديثه معه خفيف الظل .

وغايته من ذلك ان يضمّ زياداً الى رجاله ، ويستعين بسيفه اذا أكرهته الحادثات . ومشى المغيرة على هذا الأمل ، وهو يعلم أن رضى زياد أحب شيء الى أمير المؤمنين .

•

٣

أقبل المغيرة على زياد ، فرحّب به وهش له ثم قال : أي شيء أتى بك ؟

قال : بعث بي إليك اعظم رجل في المسلمين اليوم . قال : معاوية ؟

– نعم معاوية .

– وهل انت رسول صلح ام رسول حرب ؟

– إني لا أطيق كما تعلم ، ان يشهر الرجل عليك حرباً . – وكيف قدمت ؟

– سألته ان يأذن لي في القدوم ففعل ، وانا ارجو ان ينتهي الامر بينك وبينه الى ما أحب . قال : هات . .

– ولكن قل لي قبل ان ابدأ ، أتثق بي ؟

– كما أثق بنفسي فقد بلغني مافعلت في سبيلي ، مع عبدالرحمن بن ابي بكرة .

– إذن فاعلم ان معاوية استخفه الخوف فبعثني اليك .

– وماذا يخاف وليس في فارس جيش يحمل ورائي السيف .
– يخاف ان تلجأ الى الدهاء ، فتبذل المال وتدعو الناس الى العصيان ..
قال : فكرْت في هذا وكنت أهم بأن اكره معاوية على الاعتراف ، بأن في الإسلام رجالاً لا يخافونه ..
– ومن تبايع إذا فعلت ذلك ؟ – ابايع واحداً من ولد علي رحمه الله .
– لم يكن احد من ولده ، يمدّ يده الى هذا الأمر غير الحسن ، والحسن قد تخلى عن الخلافة وبايع معاوية .
قال اختار رجلاً من بني هاشم . قال : ليس فيهم من يجسر على الظهور .
– وماذا ترى ؟ – ارى ان تكون ابعد نظراً واكثر دهاء من معاوية.
– وكيف ذلك ؟ – تضع يدك بيده قبل ان يستغني عنك .
– واذهب الى دمشق ؟ – اجل .
فضحك قائلاً : إذن تريد ان القي بنفسي بين شدقي الأسد !!
– بل اريد ان تكون الرجل القوي البعيد الصوت في ايام معاوية ، كما كنت في ايام علي .
– ولكن معاوية لايحب احداً من رجال الشيعة ولا يطيق ان يقرب انصار علي اليه . .
– بل يحب جميع الرجال الذين يبايعونه ويخضعون له وقد رأيت في مجلسه، اكثر من مرة ، بعض اولئك الأبطال ، الذين قادوا جيش علي ، يوم الجمل ويوم صفين . – أي انهم بايعوه ليأذن لهم في الجلوس بين يديه ...
قال : قل لي يازياد اي شيء احب اليك ، حياة الشقاء والاستخفاء في فارس أم العيش الهادىء الذي يكتنفه العزّ ؟ – العيش الذي ذكرت .
– ولكني أراك تبتعد عنه .
– ذلك لأني واثق ، بأن هذا العيش لا يصفو لي ، وانا قريب من صاحبك..
قال : عد الى نفسك فأنت تدفع امير المؤمنين ، بيديك الاثنتين ، الى الدفاع عن ملكه .. وتراه يبعث بالجيش الى فارس ليقبض على زياد ؟

– بل يرسل بعض رجاله ليقتلوا زياداً ..

قال : لم أخف معاوية من قبل ولا أخافه اليوم ...

قال : تقضي عليك الحكمة بأن تفعل ما اقول لك .. فأطرق قليلاً ثم قال : والله لا اترك مكاني إلا بعد ان يرد عليّ كتاب امانة .

قال سيبعث اليك بهذا الكتاب ، بعد رجوعي اليه . – ليفعل اولاً ثم نرى.

قال : عدني بأنك تسير الى دمشق بعد ورود كتابه .

– وتضمن لي ان معاوية لا ينكث العهد ؟

قال اذا وعد أمير المؤمنين وفى بوعده .

– اجل كما وفى لأمير المؤمنين عليّ ، يوم التحكيم ..

– ذلك غدر من عمرو بن العاص ، وضعف من ذلك المغفّل ابي موسى الأشعري.

– ولم يكن لمعاوية رأي في ذلك ؟ – لا ولكنه سكت على مافعله عمرو.

– وهذا معناه انه كان راضياً ... قل أتضمن وفاءه ؟ – نعم .

– وانا أعد بالذهاب الى الشام . – وتكون مخلصاً لأمير المؤمنين ؟

– سأكون أسبق الناس الى الاخلاص .. اذا وفى ..

فمد يده اليه قائلاً : ارجو ان يعود عزك الماضي ، بفضل هذا الصلح .

واقام المغيرة بفارس ثلاثة ايام ، ثم رجع الى دمشق يحمل البشرى بخضوع زياد ويسأل معاوية ان يكتب اليه كتاب الامان .

فطابت نفس أمير المؤمنين ، وارسل كتابه . وكان زياد يتهيأ للرحيل .

فلما انتهى اليه الكتاب ، دعا المنجاب بن راشد الضبي ، وحارثة بن بدر ، وهما من رجاله الأمناء ، وخرج معهما من فارس يريد دمشق .

وعرف عبد الله بن عامر ، والي البصرة ، بخروجه ، فبعث بعبد الله بن خازم ومعه جماعة من الجيش ، ليقبضوا عليه .

وهو يجهل ما جرى بينه وبين المغيرة ، ولا يعلم ان امير المؤمنين أمّن زياداً .

فلقي ابن خازم زياداً ، في مكان يقال له أرجان فأخذ بعنان فرسه وقال : انزل يا زياد ..

فقال له المنجاب بن راشد : تنحَ يا ابن السوداء وإلا علقت يدك بالعنان ..

— بل ينزل فوالله لا تتحرك هذه الفرس وسيفي بيدي .

فقال زياد وهو هادىء :

لو عرفت اني سأحتاج الى سيفي لما خرجت ومعي رجلان اثنان ... إن السيوف ستبقى في اغمادها يا عبد الله .

قال : أتهدد امير المؤمنين وتسبه ، وتطوف في الارض على فرسك عندما تشاء ... انزل فأنت اسير . — بل اذهب الى الشام وترجع انت الى البصرة ..

— الى الشام ؟! — والى قصر معاوية ... — وتجسر على ذلك ؟

— اجسر على ما لا تجسر عليه انت والذي ارسلك ...

وأخرج كتاب الامان قائلا : هذا كتاب معاوية ..

فاكفهر وجه عبد الله وقال لرجاله :

ارجعوا فقد تم الصلح بينه وبين امير المؤمنين ، ثم قال له : متى بايعت يازياد؟

قال : لا يسألني مثل هذا السؤال غير معاوية نفسه وهمز فرسه فوثبت وتبعه الرجلان .

وكان يفكر وهو في الطريق ، في دهاء معاوية ، ويعد في ذهنه ، عدة الحديث الذي سيحدثه به .

فلما بلغ دمشق ، مشى دون ان يتردد ، الى « الخضراء » — قصر معاوية — ورآه القوم بباب القصر فجعلوا يتهامسون : هذا زياد ... هذا زياد بن ابيه ..

وتسابق الحجاب ينقلون الخبر الى معاوية ويستأذنون له .

وكان ذلك عند الصبح ، فقال لهم : عليّ بيزيد .

فأقبل الأمير ، وكان ضخماً كثير الشعر ، يتمشى الغرور والكبرياء في بردتيه ، وتظهر آثار الشدة في عينيه .

فقال له ابوه : دعوتك لأن زياداً بالباب .. — ومن هو زياد يا امير المؤمنين؟

— يقول هو ، ويقول بعضهم ، انه اخي ، من امرأة تزوجها ابو سفيان في الجاهلية وتدعى سمية . قال : ما رأيته قبل اليوم في الخضراء ..

قال : هذه المرة الاولى ، وهو لم يبايع . — إذن كان بعيداً عن دمشق .

— بل كان بعيداً عن ابيك وهو لا يريد ان يبايعه لأنه من شيعة علي ، ومن انصاره .

— وما الذي دعاه اليوم الى المجيء ؟

— ارسلت اليه المغيرة بن شعبة والي الكوفة يدعوه الى المبايعة ، وقد كان معتصماً بفارس يأخذ اموالها ويدبر الحيل . — وهل رضيت عنه ؟

— لو لم تكن الخلافة بحاجة الى مثله لما خطر لي أن احمله على الطاعة والخضوع.

فابتسم قائلاً : تنظر نظرة الرضى الى أعدائك فيطمعون ويستخفون بالملك.

قال أخطأت يا بني ... إن نظرة رضى واحدة ارسلها الى عدو الدولة تجعل هذا العدو من المخلصين .. — ولكن السيف يجعله أشد إخلاصاً ..

قال : تعوّد أبوك أن لا يستعين بسيفه إلا إذا فشلت مساعي حلمه..ثم قال: هذه كلمة يمليها عليك شبابك ، ولكنك ستعلم عندما تبلو الزمان وأهل الزمان ، أن سيفك أعجز عن ان يفعل ما يفعله حلمك ... هذا زياد بن أبيه .. إنه بطاش داهية ورجل سيف ، وبطل يعترف قواد أبيك انه من سادة الميادين، أتراه يلجأ الى الطاعة إذا أرسلنا اليه ، وهو في فارس ، جيشاً يمزق شمل رجاله، ويسبي نساءهم ، ويأخذ أموالهم ، أم تراه يتصدى للقوة ، بقوة مثلها ، ثم يستخفي إذا فشل في الجبال والأودية ، مستعيناً بالدهاء والحيلة والمال على خدمة آل علي ، وتقويض أركان الخلافة ؟.. قل ماذا يصنع إذا فعلنا ذلك ؟...

فتردد يزيد ..

— قل ولا تتردد .. إنك الآن أمام رجل من أعدائك فماذا تقول له إذا دخل؟ أتظهر له الشدة والعنف فتخسر سيفه الى الأبد ، أم تقابله باللين والرفق فيصبح عبداً للعرش ؟؟ — ومن قال لك أنه يصبح كما تقول ؟

قال : لا يضيع الحلم ، إلا مع لئيم فسد خلقه وصغرت نفسه ، وإني لأرفع نفسي من ان يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل اكبر من حلمي ، وعورة لا أواريها بستري ، وإساءة اكثر من احساني .. أفهمت يا بني .

فسكت الفتى ولم يجب ، ولعل سكوته كان استحياء من أبيه ثم قال معاوية: سأدعو الرجل الى المثول بين يديّ الآن فيشهد مجلسي ولا أحـــدثه بالأمر الذي قدم من أجله إلا إذا جنّ الليل أما أنت فلا تخرج اليوم من الخضراء وكن معي عندما أحدث زياداً ... يا غلام ، ليدخل زياد .

فدخل وهو لا ينظر الى الغلمان الذين وقفوا عن جانبيه .

ثم جاوز الرواق الطويل الى قاعة الجلوس التي لم يكن فيها ، في ذلك الصباح غير معاوية ويزيد ، فلما أقبل قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فابتسم معاوية قائلاً : لقد قدمت أخيراً يا زياد .. اجلس .

وقبل أن يختار مكاناً يجلس فيـه ، أومأ الخليفة الى مقعد قريب منه وأمره بالجلوس ثم قال :

لقد مرّ علينا ونحن في دمشق اثنان وعشرون عاماً ما رأيناك في خلالهـــا مرة واحدة .

قال : كنت صغيراً عندما عهـد اليّ الخلفاء في قضاء الحاجات ، ولم يكن لي في الشام حاجة .. — واليوم ؟

— أما اليوم فلم يبق لي حاجة في غير الشام ...

فنظر الى يزيد والابتسامة على شفتيه ، فقال زياد : ابن أمير المؤمنين ؟

— أجل ، هذا يزيد وعبد الله أخوه الأصغر . متى قدمت ؟

— منذ ساعة .

— إذن آثرت المجيء الى الخضراء ، على الراحة في مكان تنزل فيه .

— فكرت في هذه الراحة ياأمير المؤمنين فرأيت أني لاأجدها إلا في هذا القصر .

الحمد لله ثم الحمد لله .. قالها ولم يزد ، فقـد أراد ان يرى زياد عمله اليومي في مجلسه ، وفي المسجد ثم يحدثه بعد ذلك بما يشاء .

وذلك دهاء منه فإن زياداً عندما يرى عظمته وسياسته في إدارة أمور الدولة والنظر في قضاء الحاجـات ، تصغر نفسه وتضعف كبرياؤه فيستسلم اليه مختاراً دون أخـذ ورد . وقام في ذهن زياد ، أنه سيسأله في تلك الساعة عن ماضيه ،

ولكنه لم يفعل بل نادى غلامه قائلاً :

ادعُ الرجل الذي يقص علينا أخبار الأولين فقد نسينا اليوم ان ندعوه ..

وكان ذلك الرجل بالباب ، وهو شيخ كبير ، ذو لسان فصيح وله اسلوب خاص في رواية الأخبار .. فدخل ، ثم سلم وجلس ، وهو يقول :

لي كلمة يا أمير المؤمنين . — قل .

— لم يكن من عادة أمير المؤمنين أن يأذن للناس في مثل هذه الساعة وأنا أرى الآن رجلاً .. والتفت الى زياد .

فضحك معاوية وقال : خير لك ان تبدأ بالروايات ..

فجعل يقص أخباره والخليفة يصغي اليه كأن زياداً غير موجود حتى انتهى مله فقال للغلام : المصحف .

فأتاه بالمصحف فجعل يقرأ .

ثم قام فدخل منزله يأمر وينهي فيه ، على عادته كل يوم وزياد جالس لا يعلم متى يجيء دوره .

وساد السكوت لحظة ، ثم قال للشيخ : أيعود أمير المؤمنين ؟

قال : دخل منزله ليأمر غلمانه بما يشاء ، ثم يصلي أربع ركعات ويعود الى هذا المجلس .

ورجع معاوية بعد قليل فأذن للخاصة .

فدخلوا عليه وهم طائفة من رجال البلاط ، من قومه وغير قومه فجعل يحدثهم ويحدثونه حتى مرت ساعة فقال : الوزراء .

فأقبل وزراؤه يشاورونه فيا يريدون من صباحهم الى المساء ، وهو ينصح لهم ويدلهم على مواضع الضعف ومواضع القوة حتى انصرفوا ، فقال : الغداء الأصغر..

فأقبل الغلمان يحملون فضلة عشائه من جدي بارد وفرخ وغير ذلك ، فأكل وأكل يزيد وزياد ومن في المجلس من خاصته ، ثم عادت الخاصة الى الكلام فجعلوا يذكرون له الولايات في افريقيا واليمن والحجاز والعراق وخراسان ، وهو يصف لهم عماله واحداً واحداً ويذكر لهم سياسة هذه الأقاليم وأحوالها كأنه فيها .

وزياد يسمع كل شيء وقد ملأ الإعجاب نفسه .

وبعد ان تحدثوا طويلاً ، دخـــل منزله ، ولم يلبث حتى عاد وهو يقول : يا غلام اخرج الكرسي .

فحمل الغلام كرسيه الى المسجد فجلس مستنداً الى المقصورة – وهو اول من بناها – وجلس القوم وراءه ثم أذن للمتظلمين الشاكين ..

فدخلوا عليه ، وفيهم الضعيف والاعرابي والصبي والمرأة واليتيم الذي لاملجأ له ؛ ثم قال أحدهم : لقد ظلمت يا أمير المؤمنين ..

قال : ومن هو ظالمك ؟ قال : فلان ، وخبّر حكايته ، فقال لرجاله : إذا كان صادقاً فارفعوا ظلمه .

وقام آخر فقال : لقد اعتدى فلان عليّ ولست قادراً على الاحتمال ، قال : ابعثوا معه من ينصح لهذا المعتدي بالكف عنه ..

ثم قال آخر : غصبني فلان أرضي .. قال : انظروا في أمره .

وظل زهاء ساعتين ينظر في هذا حتى لم يبق أحد فقال : قوموا ننصرف .

ورجع الى مجلسه ، فجلس على السرير – وهـو اول من اتخـــذه – وقال : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني احد عن رد السلام .

فدخل القوم وهم طائفة من خاصة الخاصة ، ومن المقربين وسأله احدهم قائلاً: كيف اصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟

قال : بنعمة من الله ، وجلسوا جميعاً فقال :

يا هؤلاء ، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا الينا حاجات الناس مما لا يصل الينا .

فقال رجل من امية : استشهد فلان يا أمير المؤمنين وهـــو يعني انه مات . فقال معاوية :

افرضوا لولده عطاءً .. وغير ذلك ؟

– غاب فلان عن اهله .. — تعاهدوهم واعطوهم واقضوا حاجتهم .

وجعل يجيب عن كل سؤال يوجّه اليه ، وفي كل جواب رحمة للفقير وعناية بأمور المسلمين دون استثناء ..

فقال زياد في نفسه : والله إن معاوية ليستحق الخلافة ..

وأتت عندئذ ساعة الغداء ، والناس يروحون ويجيئون ، ووفود الأقطار بالباب ، ومدت المائدة .

ومن عادة معاوية كل يوم ، انه يجلس للطعام والناس يدخلون عليه يستقضونه الحاجات لا يمنع احد من الدخول .

وكل رجل يدخل في حاجة له ، يدعوه الى الطعام فيجلس على المائدة ويمد يده فيأكل اللقمة او اللقمتين ، والكاتب واقف بين يدي امير المؤمنين يقرأ كتاب الرجل الذي ذكر فيه حاجاته ، فإذا فرغ من القراءة ، وفهم معاوية الحاجة ، أمر به بأمر ثم يقول : يا عبد الله أعقب .

فيقوم الرجل ويأتي آخر فيجلس على المائدة ويفعل به مثل فعله بالآخر حتى لقد يبلغ عدد الداخلين ، ومعاوية على طعامه زهاء الاربعين من الرجال .

ثم يقال للناس بعد ذلك : انصرفوا .

ويدخل معاوية منزله فلا يستأذن عليه احد حتى ينادى بالصلاة ، فيخرج فيصلي ، ثم يدخل فيصلي اربع ركعات ، ثم يعود الى المجلس فيأذن للناس .

فإذا كان الوقت وقت شتاء ، أتاهم بزاد الحج ، من الأخبصة اليابسة والاقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميذ والكعك المنضّد والفواكه اليابسة ، وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ...

ويدخل الوزراء مرة ثانية فيحدثونه بما يحتاجون اليه بقية يومهم لايصدرون أمراً ولا يقضون حاجة إلا بإذنه .

ويجيء العصر ، فيخرج يصلي ثم يدخل المنزل ، فتتراجع الوفود ، حتى إذا كان في آخر اوقات العصر ، خرج فجلس على سريره وأذن للناس من جديد .

ثم ينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ، ثم يصلي بعدها اربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يخرج منه

حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج ، ثم يأذن للخاصة ورجال البلاط ، والوزراء ، فيشاورونه فيما يريدون بعض الليل ، ويبقى الى ثلث الليل ، يسمع أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ، وسياستها وأحكامها ، وغير ذلك من أخبار الشعوب .

ثم تأتيه الطرف الغريبة ، من عند نسائه ، من الحلوى وغيرها من المآكل ، ثم يدخل فينام تلك الليلة ، ثم يقوم قبل الفجر فيقعد ، ويؤتى بالكتب ، فيها سير الملوك والحروب والحيل ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له يحسنون قراءتها ، فتمر بسمعه كل يوم طائفة من الأخبار والآثار والسياسات ، ثم يخرج فيصلي ثم يعود فيفعل ما ذكرناه .

●

ذلك هو عمل معاوية اليومي ، وقد رآه زياد .

وإنه لعمل جبار يدلك على علو الهمة والدهاء ، ورحابة الصدر ، وعظمة النفس . رآه زياد ، فلم يرتفع له صوت ولم يقل كلمة . فلما انقضى من الليل ثلثه ولم يبق في المجلس غير زياد ويزيد ، استوى الخليفة في مقعده وقال :

والآن نسألك يا زياد عما مضى ... فأجابه قائلاً : إن أمير المؤمنين ، الذي رأيت منه اليوم ما رأيت لا يسأل الرجل عن ماضيه ..

فعرف معاوية ان الرجل ، بهرت عينيه عظمة الملك ، فقال وهو هادىء : ما نسألك عن رأيك في الخلافة فلكل مسلم رأيه في ذلك ، وإنما نسأل عن هذا الجفاء الذي رأيناه ...

قال : عرفت يا أمير المؤمنين كل شيء وخبرك المغيرة بن شعبة كل شيء ... لقد كان جفائي بالأمس جفاء رجل أحب الإمام علياً وكان هواه فيه ..

— واليوم ؟ — أما اليوم ... فاذا عرفت حقي زال جفائي !!

وهي كلمة لا يجسر على ان يقولها غير زياد وليس بين الملوك من يطيق أن يسمعها غير معاوية ..

فقال ليزيد : هذه صراحة المسلم الحر الذي يحترم نفسه ... ثم قال لزياد :

وهل خطر لك ان أمير المؤمنين الذيأرسل اليك الرسل يدعوك الى مبايعته يتجاهل الحق الذي ذكرت ؟!

– بل خطر لي أن أمير المؤمنين سيغض طرفه عني بعد المبايعة ويغلق بابه في وجهي الى الأبد !! فغمرت الابتسامة ثغر الداهية وجعل يقول :

ما سمعنا قط مثل هـــذا . . . ومن قال لك ان الخليفة معاوية يغلق بابه في وجوه المخلصين له ؟

– قالوا لي : أنك تكافىء هؤلاء المخلصين ، على ما صنعوه ، بالإحسان والحب وتنظر الى اولئك الذين ترددوا في الطاعـة نظرات الاستخفاف ، فيهـا شيء من الجفاء . قال : لو نظرت الى عمالنا في جميـع الأقطار ، لرأيت بينهم فريقاً كبيراً من أنصار علي ، بايـع بعضهم في العام الماضي ، والبعض الآخر في هذا العام .

وكأنه يقول له : سأوليك إذا كنت مخلصاً لي ..

فأدرك زياد مغزى كلماته ، فقال :

وأنا من أجل هذا طلبت اليك ان تنسى ماضيّ وتسألني عن حاضري ..

قال : ستكون راضياً يا زياد ، ولكن يقضي علينا واجب الخلافة ، بأن نسألك عن أموال فارس ... قل ماذا صنعت بها .

وقد انتهى معاوية كما رأيت ، الى الغاية التي يريد أن تتم له فقال زياد :

حملت من هذا المال الى علي ما حملت ، وأنفقت منه في الوجوه التي تحتاج الى النفقة ما أنفقت ، وبقيت لي بقية منه .. – وحملتها معك الى دمشق ؟

– لا يا أمير المؤمنين بل هي وديعة في فارس ..

قال : أليس من الرأي أن تصالحنا علىشيء نأخذه منك ونجعله في بيتالمال؟

– افعل ما تشاء . بل نرضى منك أن تصالحنا على ما شئت ..

قال : احمل اليك الف الف درهم ؟ – غداً ؟

– قلت إن المال وديعة في فارس وسيحمل اليك بعد شهرين ..

قال : لقد صالحناك فاذكر حاجتك .

وكانت حاجة زياد أن يلحقه معاوية بنسبه فقال :

وما هي حاجة رجل يقال له زياد بن أبيه؟ قال : وما اسم أبيك ؟

– إن أمير المؤمنين يعرف اسمه .. قال : دع هذا الآن فسننظر فيه في وقت آخر .. ثم نادى : يا غلام أعد لزياد حجرة في الخضراء يبيت فيها الليلة وليقم ببابها واحد من الغلمان .

فقال زياد : بل أخرج الى دار الأضياف إذا أمر أمير المؤمنين فان معي اثنين من رجالي أحب أن أبيت معهما . قال : اخرج وسنراك غداً .

فقام وانصرف فقال معاوية ليزيد : ماذا رأيت ؟

قال : رأيت شيئاً من الدهاء ولكن لو صالحته على خمسة آلاف ألف لكان ذلك خيراً لك .

فضحك قائلا : أما أنا فلو صالحني على ألف درهم لرضيت .. إني لأشتري بنصف مالي سيف زياد .. ومشى وهو يقول في نفسه :

لو كان عند يزيد من الحلم مثل ما عنده من الشدة ، لما خفت عليه شيئاً .

والتفت اليه قبل أن يحتجب في الرواق وقال له :

احفظ ما تراه من مواقف أبيك ولا تنس ..

فتمتم يزيد كلاماً لم يسمعه أبوه ، ولعله كان يهزأ بذلك الحلم الذي يلجأ اليه أمير المؤمنين ..

●

٤

خرج زياد حتى أتى الرواق الأول الذي ترك فيه المنجاب بن راشد وحارثة ابن بدر ، فلقي الإثنين عند الباب ، وقد انضم اليهم رجل يدعى مصقلة بن هبيرة من بني شيبان .

ومصقلة صديق قديم لزياد ، وهو من المقربين الى معاوية ، ومن اولئك الناس الذين يشهدون مجلسه كل يوم إذا أرادوا ذلك .

وكان زياد يفكر في أمر خطر له ، وهو يستعين بذاكرته ليجد له في دمشق صاحباً يساعده في قضاء ذلك الأمر .

فلما أبصر مصقلة ، أشرق جبينه ومد اليه يده قائلاً : لم يخطر لي أني سأراك الليلة . قال : أما أنا فقد عرفت أنك في دمشق ، وأنك مثلت بين يدي أمير المؤمنين عند الصباح ، وجنّ الليل وأنت لم تخرج .

– أراد أمير المؤمنين أن أقضي يومي في مجلسه ففعلت . – وكيف رايته ؟

فالتفت زياد الى جانبيه والى الوراء ثم قال : المجال لا يتسع للبحث الآن .

قال اتبعوني الى المنزل نتحدث به . – أتقيم بدمشق ؟

– أجل ، إني فيها منذ رجعنا من صفين . – وتدخل على الخليفة ؟

– أدخل كل يوم إذا شئت . – وأين منزلك ؟

– يبعد عشرين خطوة عن الخضراء .

وتقدمهم فتبعوه ، وزياد مطرق حتى انتهوا الى البيت فدخلوه ، واستووا في المقاعد التي أعدّت لهم . وبدأ مقصلة فقال : قل الآن كيف رأيت معاوية .

قال : رأيت بحراً فياضاً بالسياسة والدهاء والاسلوب اللين يستهوي الناس .

– هذا ما أسمعه من عظماء المسلمين ورجال الادارة والحرب ، وهل انتهى الأمر بينك وبينه الى ما تحب ؟

– أجل ولكن من ناحية واحدة . – كان يقول أنه سيسألك عن أموال فارس .

– لقد سألني عنها وصالحني على ألف ألف درهم أحملها اليه بعد شهرين ..

– وبقيت هنالك حاجة لم يقضها لك ...

– بقيت قضية هذا النسب الذي تعلم عنه ما تعلم . – ولم تذكره له ؟

– قلت كلمة واحدة أجابني عنها أنه سينظر في الأمر .

– إذن سينظر فيه فهو إذا وعد مثلك وفى له .

قال : أخشى أن يتناساه ... إنه إذا فعل رجعت الى فارس ودعوت الناس الى نكث البيعة وليفعل عندئذ ما يطيب له ..

قال : سأراه غداً وأحدثه بأمرك ثم أنقل اليك ما اسمع .

– ولكنه سيعلم أني رغبت اليك في هذا فيعمد الى دهائه .

فابتسم قائلاً : سأكون في حديثي معه أوسع حيلة منه .

قال : ارجو ان تنقل اليه ما اقوله لك الآن .   – ماذا ؟

فأوصاه بما يقوله ، ورأى زياد ان لا يرى الخليفة في اليوم الثاني بل يصبر ريثما يأتيه مصقلة ويشير عليه .

وبات الأربعة ليلتهم ، فلما كان الصباح مشى مصقلة يريد الخضراء ، وخرج زياد ومن معه يطوفون في اسواق دمشق .

●

صلّى معاوية الصبح ثم أذن لخاصته .

فدخلوا عليه مع الوزراء يحدثونه ويحدثهم ومصقلة بينهم ، حتى أذن لهم بالانصراف ، فقال مصقلة : لي سؤال يا أمير المؤمنين .

قال : هات ايها الشيباني ..   قال : الأمر يتعلق بزياد ..

– وهل بلغك مجيئه .

– نعم وعرفت انه قضى يوم أمس في هذا القصر .   – وما هو سؤالك ؟

– يقولون ان زياداً أكل فارس براً وبحراً ..   – وبعد ذلك ؟

– وأنه صالحك على الف الف درهم وبقي له المال الكثير يستعين به على الزمان ... قال : هذا صحيح فما ترى ؟

– ما أرى الذي يقال إلا حقاً .   – وما يقال ؟

– يقال انه ابن أبي سفيان .. أي انه أخو أمير المؤمنين ..

– وفي أي مكان يقولون هذا ؟   – في الشام ، بل في دمشق ، بل في أروقة الخضراء ..   – ورأيت زياداً ؟

– رأيته ساعة خروجه من هنا في الليل الماضي ولكني لم أحدثه .

فأطرق ملياً ثم قال : قيل لنا ان معه رفيقين فمن هما ؟

– المنجاب بن راشد وحارثة بن بدر وهما من رجاله .

قال أمرناه بأن يعود اليوم فلم يفعل .   – لعله يجيء بعد صلاة العصر .

قال : إذا رأيته فقل له ان أمير المؤمنين يدعوك .

– وما رأيك فيما يقال يا مولاي ؟   – قد يكون ذلك صحيحاً فسنرى .

فانصرف مصقلة ينقل الى زياد ما سمعه من أمير المؤمنين ثم قال له : أرى أن الأمر قد انتهى ولم يبق إلا ان يلحق معاوية نسبك بنسبه .

قال : لك عليّ عشرون الف درهم أدفعها اليك يوم يحمل المال الى الخليفة وأنا لا أنسى لك يدك .. ولكن أتنصح لي بأن أذكر معاوية بالأمر غداً ؟

أرى أن تتكلم عندما يسكت هو .

والى أي شيء أحتاج في إثبات هذا النسب ؟ – الى شهود يشهدون لك .

قال : إن أبا مريم السلولي حي ، وهو يشهد لي .

وعند الصباح ، سار الى الخضراء ، وبعث بالحاجب يقول لمعاوية إنه بالباب ، فأذن له ، وكانت الابتسامة لا تفارق شفتي الخليفة ، وهو يقول :

أين كنت أمس يا زياد ؟

– خطر لي يا أمير المؤمنين ان أطوف في اسواق دمشق ففعلت .

– وأية مدينة أجمل في نظرك ؟ هي ، أم مدن فارس ؟

– أجمل بلد في هذا الملك الواسع ، ذلك الذي يقيم به أمير المؤمنين .

قال لقد ذكرنا امس ما حدّثنا به بشأن نسبك ، أواثق انت بأنك ابن ابي سفيان ؟ – نعم ولو لم أكن واثقاً لما خطر لي ان احدثك به .

– ومن يشهد لك ؟

– رجال من الكوفة والبصرة ، بينهم ابو مريم الذي نزل ابو سفيان في بيته.

قال : إذا رأيت من يشهد لك اعترفت بك .

قال : أطال الله بقاء امير المؤمنين الذي أحسن إلي بما لا أستحق .

قال : دع عنك هذا ، وانصرف الى النظر في أمر الشهود الذين ذكرت ، وعد الينا . قال : استأذنك في نزول الكوفة ..

– انزل في أي بلد شئت على ان تكون ذلك الرجل ...

– سترى يا أمير المؤمنين اني أصدق من حولك من الناس ، وأني أبايعك الآن وستكون هذه المبايعة في عنقي وأعناق أبناء زياد .

واستأذنه في السفر ، على أن يرجع بعد أن يعد عدته ، ولم يلبث حتى غادر

دمشق الى الكوفة ، ثم الى البصرة ، لينظر في الأمر الذي عرفت .

وبعد ثلاثة أشهر ، عاد الى دمشق حاملاً المال الذي صالح عليه معـــاوية ، ووراءه رجال بينهم أبو مريم شهدوا له أنه ابن ابي سفيان ..

وكتب ، الى عائشة ، زوجة النبي ، بعد رجوعه الى الكوفة يقول لهـا : من زياد بن ابي سفيان .. وهو يريد ان تكتب اليه : الى زياد بن ابي سفيان . أماهي فكتبت : من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد ...

وكان المغيرة بن شعبة ، والي الكوفة يكرم زياد ويعظمه ، وقد كتب معاوية الى المغيرة ، ليلزمه ، ويلزم حجر بن عدي ، وسليمان بن صرد وشبث بن ربعي ، وابن الكوا بالصلاة في الجماعة ..

وهؤلاء جميعهم من شيعة علي ، فكانوا يحضرون الصلاة مع المغيرة ..

●

امامة الحسناء

عندما تخلى الحسن بن علي عن الخلافة ، وسلم الأمر الى معاوية تفرق أنصار آل علي في البلاد ، هذا رجع الى البصرة ، وهذا الى الكوفة ، والآخر الى الحجاز وهنالك طائفة منهم آثرت الاقامة بدمشق ، وهي دار الخلافة ، وقد وفرت فيها أسباب العيش ، على البقاء في العراق الذي تستعر فيه نار الفتنة ثم تخمد .

من هذه الطائفة ، عمرو بن الحجاج أحد رجال بني زبيد المغاوير ، الذين كانوا انصاراً للامام علي ، يمشون وراءه الى الميادين .

فلما قتل الإمام ، بايع عمرو بن الحجاج ، ولده الحسن ومشى تحت لوائه الى لقاء جيش معاوية ، ثم انتهى الأمر ، بتخلي الحسن عن حقه كما قرأت ، واستئثار معاوية بالحكم .

على أن رجال علي ، من أهل الكوفة كانوا يقولون كثيراً ولكنهم لا يفعلون غير القليل ... بايعوا علياً على الموت ، ثم خرجو من الكوفة ، بقيادة ابنه الذي نادوا به خليفة بعد أبيه ، يريدون قتال أهـل الشام ولكنهم جبنوا ، ثم كثرت آراؤهم ، ثم ثاروا ، قبل أن تقع العين على العين !

وهذا معناه أن المبادىء في نظرهم كلام بكلام .. وان هواء الاقليم الذي يعيشون به هواء رطب . . . يفعل فعله في الأمزجة اللينة ... وتمحو رطوبته الصلابة في العقيدة ...

وانك لترى هواهم في علي وفي أهل بيتــه ، ترى ذلك ، وهم في منازلهم وفي المساجد ولكنك إذا ندبتهم الى حرب رأيت منهم غـير ما رأيت ، وأبصرتهم يتراجعون الى الوراء وقد محا نهارهم كلام الليل !.

لأجل هذا ، كان عـليّ رضي الله عنه يتــألم في داخله ، ويسمعهم في كل يوم نصائحه الغالية ، ويدعوهم الى الثبات في الموقف الصعب .

وهم يسمعون له ، ما دام على المنبر ، فاذا نزل وآوى الى منزله دب الخوف في صدورهم ، وترددوا في الأمر الذي دعاهم اليه .

وبقيت هذه حالهم كما مرّ حتى قتل الإمـام وتنحّى الحسن ، فانصرفوا الى الاقاليم وهم ينظرون الى معـاوية نظرهم الى خليفة لم يستولِ على الملك بالحق بل بقوة الحيلة والدهاء .. أتى عمرو بن الحجاج دمشق ، ولم يكن غريباً فيهـــا ، فدمشق ملعب شبابه وقد كان له فيها ماضٍ حافل بالأحلام والمنى .

أجل ، نزل دمشق ، قبل أن يقتل عثمان ، وقبل أن تبرز الأغراض والسيوف الى الساحة ، وتزوج فتاة حسناء من بني سعد تدعى خولة .

وخولة مظهر من مظاهر الجمال العربي وقد ولدت له فتــاة لا تقع العين ، في العشائر النازلة في دمشق وفي الغوطة على أجمل منها وجهاً وأحسن ثغراً .

ولم تلد خولة غيرها ، ولم يشأ عمرو أن يتزوج امرأة اخرى ، فخولة ملء نفسه وملء إحساسه والنساء جميعهن في نظره ، في صف ، وخولة في صف آخر .

ولم يكن لعبد الله بن عقبـــة السعدي والد خولة بنون غيرهـا ، وغير فتاة اخرى اسمها سلمى تزوجها وجيه قومهم وسيدهم ، هانيء بن عروة المرادي النازل في الكوفة ، وقد كان من أنصار علي . وسلمى ايضاً ، لم تلد لعروة ولداً ، فكانت امامة بنت خولة ، هـــذه الطفلة الحسناء الجذابة الملامح أعز الناس عليهـا حتى

ليخيل الى القوم ، أن الوالدة لا تستطيع أن تحب ابنتها أكثر مما تحب سلمى امامة ابنة اختها .

وحتى قال الناس في الكوفة ، بعد رحيل عمرو بن الحجاج وزوجته وطفلتها الى الشام ، أن سلمى زوجة هانيء بن عروة لايطيب لها عيش ، بعد هذا الرحيل.

على أن خولة وعدت اختها ، انها لا تلبث حتى تعود الى الكوفة لتعيش بالقرب منها ، وتكون امامة سلوى الاختين وبهجة البيتين .

بل قل ان امامة كانت في الكوفة ، وهي في عامها الأول ، بهجة الحي كله كما هي في دمشق اليوم ، بهجة بني سعد .

تتحملها النساء من خيمة الى خيمة ومن منزل الى آخر . وأصوات الاستحسان ترددها الشفاه ، ومظاهر الإعجاب بجمالها الفتان تبدو على الوجوه .

وإنها لكلمة حق ، رددتها الغوطة في ذلك الزمن ، ورددتها أحياء دمشق ، أن طفلة عمرو بن الحجاج آية الحسن الخلاب الذي لا يرى الناس أروع منه .

ومتى كانت عشائر العرب واحياؤها تتحدث بجمال الأطفال ؟

وأي سحر فاتن ، أملى على الناس أن يصفوا امامة بمثل هذا الإعجاب ؟

إنه سحر لم يروا مثله من قبل ، والسحر في الطفلة مثله في المرأة ، لايحتاج إلا الى استكمال الروعة في دور الشباب ... وكان من عادة العرب ، أن الرجل تعجبه طفلة من بنات عشيرته أو بنات حيّه ، فيخطبها الى ولده وهو طفل ، ثم يمر الزمان ، والحب ينمو في صدري الخطيبين حتى يتزوجا . وهي عادة باقية الى اليوم في بعض الأقاليم وعند معظم العشائر النازلة في البادية .

وكذلك كان شأن بني سعد ، والعشائر النازلة في الغوطة من ناحية الشرق .

رأى رجالها امامة ، على أيدي النساء ، وفي أحضانهن ، فبهر عيونهم ذلك الجمال ، وأقبلوا يخطبونها لأطفالهم ، الذين لا يعرفون من هذا العالم ، غير صدور المراضع والأمهات .. ولكن أباها كان يقول :

لا أفعل اليوم فرب خطبة خلقت حرباً ...

وكانت أمها تقول : إذا كان لا بد من الرجوع الى الكوفة فخير لأمامة أن

يتزوجها كوفيّ . ولم يستطع الناس أن يغيّروا شيئاً من هذين الجوابين .

وقد اشتهر ابن الحجاج ، بين عشائر الغوطة ودمشق ، كما كان مشهوراً في الكوفة ، ولأمامة الصغيرة يد في شهرته . وسمّى بنو سعد حفيدتهم الفتانة : حسناء الشلم وسماها أبوها الزبيدية الحسناء ، ولكن الاسم الاول غلب الثاني ، ثم جعلوا يقولون كلما رأوها : هذه هي شامية ابن الحجاج .

●

٦

لم يستطع معاوية ، وهو على العرش ، أن يستميل قلوب رجال الشيعة الى دعوته ، بل استطاع أن يستميل قلوب الضعفاء ، الراغبين في النفوذ والحكم ، الطامعين بالمال .. وأن يخمد نار التشيُّع المتأججة في الصدور .

ولم يبق هنالك ، في الكوفة والبصرة ، غير طائفة من سادة العشائر رجال السيف يطيب لهم ، أن يحفظوا عهد آل علي ، وهم وراء الجدران ، في منزل أحدهم ! ويذكروا الوسائل التي تنتهي بهم الى استرجاع المجد الذي ضيعوه .

وانك لتجد بين هؤلاء الرجل القوي المؤمن بعقيدته ، والضعيف المتردد في رأيه ، والمرائي الكذاب الذي يلبس كل يوم ثوباً جديداً له لون جديد .

وذلك هو شأن الجماعات في كل مكان وزمان . وان من الرأي ، أن نسمي لك بعض هؤلاء الرجال ، الذين ستقرأ أسماءهم في الفصول التي ستجيء ، ونذكر لك عنهم ما لا غنى لك عنه .

كان رجال الكوفة ، سليمان بن صرد الخزاعي ، والشيعة تجتمع في منزله من وراء الستار ، ويجيء بعده المسيَّب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مطهر ، وشبث بن ربعي ، وحجار بن أبجر ، ويزيد بن الحرث ، وعروة بن قيس ، وهانيء بن عروة المرادي زوج سلمى السعدية ، ومحمد بن عمير التميمي ، ومسلم بن عوسجة الأسدي ، وعمر بن الحجاج الزبيدي ، وسويد بن المطاع . وقد عرفت

من هؤلاء الرجال عمرو بن الحجاج ، وهانيء بن عروة اللذين ذكرناهما لك .

وكان مسلم بن عوسجة ، من سادة بني أسد ، وقد ذهبت له في حروب المسلمين شهرة وذكر ، وتحدثت العرب ببسالته في الميادين ، واستخفافه بالأخطار في اليوم العصيب . وبينه وبين هانيء بن عروة ، وعمرو بن الحجاج ، صلة ولاء وصحبة ، وثقت عراها صلة الجوار . وكانت زوجة مسلم ، التي توفيت ، بعد تخلي الحسن بن علي عن الخلافة ، من بني سليم ، وسليم فخذ من سعد ، وكانت لها في قلب مسلم ، منزلة الزوجة الصادقة ، في قلب الزوج البار .

توفيت ، وله منها بنون ثلاثة : سعد ، وعبد الله ، وعبد الرحمن الذي ولد في السنة الاربعين ، في السنة التي ولدت فيها ، امامة بنت عمرو . وقد كتب لمسلم ، بعد بضعة أعوام أن يخسر ولديه الأولين ، عبد الله وسعداً ، ولم يبق غير عبد الرحمن تكتنفه عناية جارية كانت لأبيه ولهذه الجارية عطف الوالد وحنو الأم .

وهنالك امرأة اخرى كانت تحتضن عبد الرحمن بعد موت امه هي سلمى زوجة هانيء التي أحست ان هذا الطفل ، يأخذ من قلبها وعاطفتها ما تأخذه امامة الحسناء .

ولم تقف سلمى عند هذا الحد ، بل كانت هذه العاطفة تملي عليها ، ان يخطب مسلم لولده عبد الرحمن ، امامة ابنة اختها ، ليعيش الخطيبان في ظلها عيش السعة والهناء الى ان يربطها ، في العشرين من العمر ، رابط الزواج .

وقالت لهانيء أن يحدث مسلم بالأمر ، ففعل ، ولم يكن هنالك شيء أحب الى مسلم من هذه الخطبة التي يكون وراءها لبني أسد ، ولاء العشيرتين القويتين : بني مراد ، وبني زبيد . وصبر القوم ، حتى يعود عمرو بن الحجاج من دمشق .

ولكن بلغ سلمى ، أن أشراف بني سعد ، والعشائر التي تجاور السعديين في الغوطة يتسابقون الى خطبة الشامية ، فكتبت الى خولة تقول :

لقد وجدت خطيب امامة في الكوفة ، فلا يغرك أهل الشام وتعجلي في الرجوع . ولم تذكر لها عبد الرحمن . فكتبت اليها خولة :

إن الكوفة أحب الى امامة من الشام ...

ولم تسألها ، لا عن خطيب امامة ، ولا عن عشيرته ، فقد كانت تعلم ان خولة تحب ابنتها كما تحبها هي ...

•

٧

لم تكن عظمة الملك ، والعرش الاسلامي الرفيع الذي تربع فيه معاوية ، وما حول معاوية ، من مظاهر خلابة وسعة وجاه .. أجل لم يكن شيء مما قرأت ، ينسي الخليفة الداهية واجبه نحو دولته الواسعة ، ونحو ذلك الشعب الكثير العدد ، الذي فرقته المطامع ، وأبعدته الأغراض عن الاخلاص للعرش .

كان يعلم ، ان في الكوفة والبصرة والحجاز طائفة من المعارضة تتشيع لبني هاشم وتريد إذا استطاعت أن تنحيه عن الحكم . وكان يعلم أن بين هؤلاء ، رجالاً يحلمون بالخلافة ، ويعدون عدة القضاء على العرش الأموي .

ولكن المطامع ، والاغراض والبغض الذي كان يلمسه بيديه في بعض الصدور كل ذلك كان أضعف من أن يخرجه عن هدوئه وعن دهائه .. ولو تدبرت أمره وهو سيد المسلمين ، لرأيت حلمه يتسع لجميع المساعي التي يبذلها خصوم العرش ، ورأيت المال الكثير الذي يهبه لأعدائه ، يغطي هذه القسوة ، التي يعمد اليها أعوانه ، في معظم الأقاليم .

من أجل ذلك كنت ترى الاقطار الاسلامية ، من أدناها الى أقصاها ، تدين لمعاوية ورجال الحرب والرأي ، يخضعون لسياسته اللينة ، دون عنف واكراه .

وقد ساعده الحظ ، في اولئك الانصار ، الذين جعلهم عمالاً له ، وقواداً لجيشه ، يشهرون السيف في وجوه أعدائه . لقد كانوا جميعهم رجال ادارة وشدة وجرأة وحزم ؟ وكانوا جميعهم آلة في يده يخضعون له خضوعاً تاماً لا تردد فيه .

وعين معاوية لا تغفل عن شيء ، ينظر في أمر الكبيرة والصغيرة لا يشكو تعباً ولا يملّ ، ومجلسه ، مجلسه الحافل برجال الخاصة والوزراء والمستشارين ،

مرجع لكل أمر . ولم يكن ينسى يزيد ، فقد جعل العيون حوله يحصون عليه الأنفاس ، ومنعه من الدخول عليه إلا إذا أذن له ، كما أنه منع المغنين ورجال الطرب واللهو من الدخول الى القصر .

وهذا معناه أنه كان يخشى أن يفضحه يزيد ويفضح نفسه قبل أن يجعله ولياً للعهد كما كان يخطر له . على أن ولي العهد هذا لم يعبأ بهذا المنع ، ولم يستطع أن يغضب نفسه ويقهرها بالابتعاد عن إخوان الصفاء ... كما أراد أبوه ، بل كان يدعوهم اليه كلما جنّ الليل ويقضي الساعات الطويلة معهم في مجالس الشراب .

وكان يظن أن أمير المؤمنين لا يعرف شيئاً من ذلك ، مع أنه كان يعلم كل شيء وينصح لولده باللين والحسنى بأن يجعل نفسه في مثله الصالح قدوة للمسلمين ، وأن يبتعد عمره كله عن إخوان السوء .

ثم رأى وهو الوالد البار الكثير العطف على يزيد أن يختار له فتاة من بنات الأشراف ويزفها اليه.. ثم آنس رغبة منه في ذلك ، فزوّجه أم هاشم بنت عتبة ابن ربيعة ، وقام في ذهنه أن حياته الجديدة ستكون حياة تليق بابناء الملوك .

وحول نظره بعد ذلك الى ناحية أخرى من نواحي ملكه فجعل مروان بن الحكم عاملاً له على المدينة ، وخالد بن العاص بن هشام والياً على مكة ، وكتب الى المغيرة بن شعبة والي الكوفة يأمره بأن ينظر في أمر الخوارج الذين اجتمع شملهم بعد أن فرّقه علي يوم النهر ، وعولوا على قتال الخليفة الاموي .

وكانت طائفة من هؤلاء الخوارج قد لجأت الى الكوفة وعلى رأسها ثلاثة قواد هم : المستورد بن علفة التيمي ، ومعاذبن جوين الطائي ، وحيان بن الظبيان السلمي .

ثم تشاوروا فيمن يولون ، فجعل كل واحد منهم يدفع الامارة عن نفسه حتى رأوا اخيراً ان يولوا المستورد ، فبايعوه ودعوه أمير المؤمنين !

ولم يلبثوا حتى أعدوا عدة الخروج في غرة شعبان من السنة الثالثة والاربعين .

وبلغ المغيرة ما فعلوه فكتب الى معاوية يخبره ذلك ولم يتردد هو في فعل ما يجب شأن الوالي الحازم الصادق الرأي . وانتهى رسوله الى دمشق قبل صلاة الغروب في يوم شديد الحر ، فقيل لمعاوية : بالباب رسولان من الكوفة ومصر .

فقال : أما رسول الكوفـة فهو يحمل أخبار الخوارج الذين بسم لهم الزمان ثلاثة أعوام ... ولكن ماذا يحمل رسول مصر ؟ ليدخلا .

فمثل الاثنان بين يديه ، فقال للمصري : ما وراءك ؟

قال : أحمل نعي أمير مصر يا أمير المؤمنين .

فارتجفت شفتاه قائلاً : عمرو بن العاص ؟

– نعم يا مولاي . – وفي أي يوم مات ؟ – يوم الفطر .

– وابنه عبد الله في مصر اليوم ؟ – نعم وهو الذي أمرني بالمجيء الى الشام .

فأطرق ملياً ثم رفع رأسه قائلاً لوزرائه : ما رأيكم في عبد الله بن عمرو ؟

– الرأي الذي يراه أمير المؤمنين نراه نحن .

قال : لقد جعلنا عبد الله خلفاً لأبيـــه ، اكتب اليه يا غلام ، ثم قال لرسول الكوفة : وأنت ؟ فدفع اليه كتاب المغيرة ، فقرأه فقال :

أما الخوارج فليس لهم إلا السيف ، اكتب ياغلام الى المغيرة : السيف السيف.

والتفت إلى سرجون ، مولى يزيد وكان حاضراً ، ثم قال له : خبر الأمير الليلة بما فعلناه .. ونهض وهو يقول : الى الصلاة .

ثم تقدم رجـال الدولة الى المسجد ، وأمامه الحراس كأن هذين الأمرين الخطيرين ، لا يستحقان اهتمامه ..

●

عرف المغيرة بن شعبة ، أن بعض الخوارج اجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان في الكوفة . فقال لصاحب شرطته « مدير البوليس » وهو قبيصة بن الدمون :

تذهب مع رجالك ، وتحيط منزل حيان بالحراب ، وتقبض على من فيه دون أن تقتل أحداً . وكان في ذلك المنزل عشرون رجلاً ، بينهم معاذ بن جوين .

وكانت امرأة حيان ، تبغض زوجهـــا ، ولا تطيق ان يخرج على اصحـاب السلطان فأخذت سيوف القوم ووضعتهـــا تحت الفراش . ونادى مناد قائلاً : رجال الشرط . فنهض المجتمعون ليأخذوا سيوفهم فلم يجدوها .

فاستسلموا ، وانطلق بهم قبيصة الى المغيرة ، فقال لحيان : ماذا تصنع يا ابن

ظبيان ؟ تجمع في بيتك هؤلاء الخونة الخارجين على أمير المؤمنين ؟

قال : إنا اجتمعنا لقراءة القرآن .. - أجل وقد بدت على الوجوه آثار السهر ، على قراءة كتاب الله .. خذوهم الى السجن .

وسمع اخوانهم والمستورد « أمير المؤمنين » فحذروا وانصرفوا الى الحيرة الى منزل سليم بن محدوج العبدي وهو صهر المستورد .

وبلغ المغيرة خبرهم ، فدعا الناس ، ثم قال :

لقد علمتم أني لم أزل أحب العافية لجماعتكم ، وأكف عنكم الأذى ، وقد بلغني أن رجالاً يريدون أن يظهروا في اقليم الكوفة ، بالشقاق والخلاف ، وايم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب إلا أهلكتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم ..

فقام معقل بن قيس الرياحي ، وكان من رؤساء أصحاب علي فقال : إن كان هؤلاء القوم منا حملناهم على الطاعة ، وإن كانوا غيرنا أمرت سادة العشائر فأتتك كل عشيرة بسفهائها تنظر في أمرهم .. قال : ما سمي لي أحد باسمه .

قال : أنا أكفيك قومي فليكفك كل رئيس قومه . فأمر بالرؤساء فحضروا فقال : ليكفني كل رجل منكم قومه وإلا فوالله لأتحولن عما تعرفون الى ما تنكرون ، وعما تحبون الى ما تكرهون .

فرجعوا الى قومهم واستحلفوهم بالله والاسلام أن يدلوهم على كل من يريد أن يهيج الفتنة .

وجاء صعصعة بن صوحان الى عبد القيس وكان قد عرف منزل القوم فقال :

يا أهل الحي ، ليس لكم ولأهل بيت نبيكم عدو أعدى من هؤلاء الخوارج ، الذين فارقوا إمامنا علياً واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تنزلوهم في بيوتكم أو تكتموا الولاة أمرهم ، وقد ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحث عن ذلك فان يكُ حقاً تقربت الى الله بدمائهم فان دماءهم حلال ؛ ثم قال : إن ولاتنا هؤلاء أعرف بكم وبرأيكم فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً.

فلعنهم القوم إلا سليم بن محدوج الذي نزل القوم في داره ، فانه لم يقل شيئاً ورجع كئيباً وهو يكره أن يخرجهم فيلوموه كما كان يكره أن يؤخذوا في داره

فيهلكوا ويهلك هو . وجاء أصحاب المستورد فخبروه فسأل ابن محدوج عما قاله صعصعة بن صُوحان لعبد القيس .

فأعلمه بذلك ثم قال : كرهت أن أنقــل اليكم الخبر فتظنوا أنه ثقل عليّ مكانكم . قال : لقد أكرمت المثوى وأحسنت ، ونحن مرتحلون .

وأرسل الى أصحابه يأمرهم بالخروج الى مكان يقال له سوراء .

فخرجوا اليه متقطعين وكانوا ثلاثمئة ، ثم ساروا الى مكان آخر يدعى الصراة .

وعين المغيرة لا تغفل عنهم فقال للناس : من نرسل اليهم ؟

فقال عدي بن حاتم : كلنا لهم عدو فأينا شئت سار اليهم .

وقال معقل بن قيس : إنك لا تبعث اليهم أحداً مما ترى حولك إلا رأيتــه سامعاً مطيعاً ، وأنا أرى ان تبعث بي فليس عندك أعدى لهم مني . قال : اخرج على اسم الله . واختار له ثلاثة آلاف من الرجال ثم قال لصاحب الشرط : ابعث مع معقل شيعة علي فانه من رؤسائها وهي أشد استحلالاً لدمــاء الخوارج وأجرأ عليهم من غيرهم .

وقام صعصعة فقــال مثلما قال معقل . فقــال له المغيرة : اجلس فانما أنت خطيب .. فغضب صعصعة وقال : ما أنا إلا خطيب فقط ؟ — أجل ..

قال : أما والله لو شهدتني يوم الجمل لعلمت أني الليث الذي يقتحم الخيل .

قال : لقد أوتيت لساناً فصيحاً فلا تزد . فسكت الرجل ، وحـول المغيرة وجهه عنه . وكان صعصعة يعيب عثمان بن عفان ويذكر علياً ويؤثره على بني أمية وقد فعل ذلك غير مرة . فدعاه المغيرة يوماً فقال له :

إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان ، وإياك أن يبلغني أنك تظهر فضل علي فأنا أعلم بذلك منك ولكن سلطان بني امية قد ظهر فنحن ندع شيئاً كثيراً مـما أمرنا به ، ونذكر الشيء الذي لا نجد بداً منه ، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا فان كنت ذاكراً فضل علي فاذكره بينك وبين أصحابك في منازلكم سراً ، وأما في المسجد فان هذا لا يحتمله الخليفة . فقال له : نعم .

ثم بلغه مرة اخرى أنه فعل ذلك .

فحقد عليه وأسمعه هذا الجواب الذي قرأت ..

●

خرج معقل بن قيس مع الشيعة الى الصراة .

فسار الخوارج الى بهرسير ، وأرادوا العبور الى المدينة التي فيها منازل كسرى، فتصدى لهم سماك بن عبيد الأزدي وكان عاملاً عليها ، فكتب اليه المستورد يدعوه الى البراءة من عثمان وعلي .

فأعاد سماك جوابه ودعاه الى الجماعة فيأخذ له الأمان .

فلم يجب ، وأقام بالمدائن ثلاثة ايام . ثم بلغه مسير معقل فقال لأصحابه :

إن المغيرة قد بعث اليكم معقل بن قيس وهو من المفترين الكاذبين فأشيروا علي برأيكم . فقال بعضهم : خرجنا نريد الله والجهاد وقد جاؤونا فأين نذهب ? اننا نقيم حتى يحكم الله بيننا .

وقال البعض الآخر : بل نتنحى ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء ، فقال :

لا أرى ان نقيم حتى يأتونا وهم مستريحون بل نسير فيخرجوا في طلبنا فينقطعوا ويتبددوا فنلقاهم على تلك الحال . وفعلوا كما قال .

ثم انتهى معقل الى المدائن فقيل له انهم رحلوا ، فشق ذلك على الناس فقال: إنهم ساروا لتتبعوهم فتتبددوا وتلحقوا بهم وقد تعبتم ولكن لا يصيبكم من ذلك شيء إلا وقد أصابهم مثله ، وتقدمهم قائلاً : الى الأمام .

ثم دعا أبا الرواغ الشاكري ، فقال : سر في الطليعة مع ثلاثمئة من الرجال .

قال : وإذا وقعت العين على العين ? قال لا تقاتلهم حتى أصل اليك .

فمشى أبو الرواغ في أثرهم حتى انتهى اليهم وهم بالمذار ، فقال لأصحابه : ماذا نفعل الآن ? قالوا : لانقاتل حتى يأتي معقل ولكن ينبغي أن نكون قريباً منهم.

وكان ذلك عند المساء ، فباتوا ليلتهم يتحارسون حتى أصبحوا .

فلما ارتفع النهار ، خرجت الخوارج . والرماح في الأيدي ، ثم هاجموا القوم.

فانهزم أصحاب أبي رواغ فقال لهم : عار عليكم أن تتراجعوا .

وحمل عليهم وهم وراءه ، فلما دنوا من الخوارج تصدى لهم هؤلاء بالحراب ، فتراجعوا مرة ثانية دون أن يقتل منهم أحد .

فصاح بهم ابو الرواغ : ثكلتكم أمهاتكم ، عودوا بنا لنكون قريباً منهم ، لا نفارقهم حتى يقدم أميرنا فمن العجز أن نرجع منهزمين .

فقال احدهم : إن الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا ..

قال : لا أكثر الله فينا مثلك .. قفوا قريباً منهم فان أتوكم وعجزتم عنهم فتأخروا قليلاً ، ثم اعطفوا عليهم ، فاذا حملوا وعجزتم عن قتالهم فتأخروا ، وهكذا حتى يأتي الجيش ، وجعلوا ، كلما حملت الخوارج يتراجعون الى الوراء ، فاذا عاد الخوارج عنهم رجع ابو الرواغ في آثارهم حتى كان الظهر .

فعمد الفريقان الى الصلاة .

وكان اهل القرى قد خبروا معقلاً ان الخوارج يطردون اصحابه بين أيديهم فقال لمن معه : إن كان ظني في ابي رواغ صادقاً لا يأتيكم منهزماً ابداً .

ثم تعجل في السير ، في سبعمائة من أهل القوة والبأس ، وبقي محرز بن شهاب التميمي على الفريق الضعيف ، فلما أشرفوا على ابي الرواغ قال لمعقل :

إن الخوارج خواضو الغمرات فلا تلِ القتال بنفسك ولكن قف وراء الناس تكون ردءاً لهم . قال : نعم مارأيت .

وبينما هو يخاطبه ، والشمس تحتجب وراء الأفق ، حمل الخوارج وارتفعت اصواتهم قائلين : الظفر او الموت .

فتأخر اصحاب معقل إلا طائفة قليلة ثبتت معه ، ونزل عن فرسه ومعه ابو الرواغ وحولهما نحو مائتي رجل . وكان مسكين بن عامر رجلاً شجاعاً ، فقال للقوم : أين الفرار وقد نزل أميركم ؟ ثم رجع ورجعت معه الخيل .

فلم يزالوا يقاتلون حتى ردوا الخوارج الى البيوت ، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى جاءهم محرز بن شهاب . واقبل أحدهم يقول للخوارج :

إن شريكاً ابن الأعور سيفاجئهم بثلاثة آلاف رجل قدموا معه من البصرة ، وقد بعث بهم عبد الله بن عامر .

فقال المستورد لرجاله : لا أرى ان نقيم لهؤلاء جميعاً ، ولكني أرى ان نرجع الى الوجه الذي جئنا منه ، فان أهل البصرة لا يتبعونا الى أرض الكوفة فيهون علينا عندئذ قتال معقل .

وصبروا حتى جنّ الليل ، فأخذوا من اهـل القرى ، من دلهم على الطريق الذي أقبلوا منه . وأصبح معقل وهو لا يرى لهم أثراً .

ثم جاء شريك بن الأعور ولقي معقلاً ، فخبّره بأمرهم ، فدعا شريك أصحابه الى السير مع معقل فلم يجيبوه ، فلم يرَ إلا ان يعتذر ويرجع .

على ان معقلاً لم يتردد في الأمر ، بل امر أبا الرواغ باتباعهم ، فقال له : زدني مثل الذين كانوا معي . ففعـل ، ولحق بهم ابو الرواغ حتى أدركهم ، فحملوا عليه حملة صادقة ، انهزم بعدها معظم اصحابه وثبت هو في مائة فارس .

ثم عطف أصحابه من كل جانب ، فأعادوا الخوارج الى مكانهم .

فلما رأى المستورد ان الفشل سيكون نصيبه ، وأن معقلاً إذا أتاه ، وهو على هذه الحال ، هلك رجاله ، أمر اصحـابه فعبروا دجـلة ووقفوا في ارض بهرسير ، فتبعهم ابو الرواغ ، فقال المستورد لقومه :

هؤلاء هم حماة اصحاب معقل وفرسانه ، ولو علمت اني اسبقهم الى معقـل بساعة واحدة لسرت اليه .. ثم سأل عن معقل فقيل له انه في مكان على فراسخ ثلاثة ، فركب حتى انتهى الى جسر ساباط .

فعبر النهر ، وهـدم الجسر ، وكان هو على الضفـة التي تلي الكوفة ، وابو الرواغ على الضفة الاخرى التي تلي المدائن .

وسار حتى انتهى الى معقـل ، واصحابه متفرقون ، وهو يريد الرحيـل ، وقد تقدمه فريق من جيشه ، فلما رآهم معقل نادي : ياعباد الله الارض الارض.

فنزل معـه نحو مئتين ، وجثوا جميعهم على الركب وقد استقبلوا عـدوهم بالرماح ، فحاول المستورد ان يقتحمهم فلم يستطع ، فقال : اعدلوا الى خيلهم .

ففعلوا وحالوا بينهم وبينها وقطعوا اعنتها فذهبت في كل جانب .

ثم مالوا الى المتفرقين من اصحاب معقل ففرقوا بينهم ..

ورجعوا بعد ذلك الى معقل فلم يقدروا عليه ، فرفع المستورد صوته قائلاً : لينزل نصفكم وليبق النصف الآخر على الخيل .

فاشتد الحال على أصحاب معقل وأشرفوا على الهلاك ، ولكن أبا الرواغ أقبل في تلك الساعة ، وكان قد عرف انها مكيدة من المستورد فعقد الجسر ولحق بهم .

ولقيه الناس وهم منهزمون ، فصاح بهم : اليّ اليّ .

فرجعوا وخبروه انهم تركوا معقــلاً وما يظنونه إلا قتيلاً . فركض فرسه وتبعه الجيش ، حتى انتهوا الى المعسكر فرأوا راية معقل منصوبــة والناس يقتتلون حولها ،فحملوا على الخوارج ،وإذا معقل يحرض اصحابه وقد رأى الفرج .

أما المستورد فقد رأى انه هالك . فنادى معقلاً ليبرز اليه .

فوثب معقل الى الساحة ،واصحابه ينهونه عن البراز وهو لا يصغي اليهم ومعه سيفه ومع المستورد الرمح . فقالوا له : خذ رمحك ، فأبى ، وأقبل الى عدوه .

فطعنه المستورد بالرمح فخرج السنان من ظهره .

ولكن معقلاً لم يقع ، بل تقدم والرمح في صدره ، فضرب المستورد بالسيف فقتله وسقط هو بعده ، وقد لفظ الروح .

وكان معقل قد قال لقومه : إذا قتلت فأميركم محرز بن شهاب .

فلما قتل ، أخذ محرز الراية ، ثم حمل على الخوارج فقتلوهم جميعهم لم ينج منهم غير ستة رجال . ومعقل والمستورد من عشيرة واحــدة ، فهما من بني تميم ، ثم من بني رياح ، وفي ذلك قال جرير :

ومنا فتى الفتيان والجود معقل   ومنا الذي لاقى بدجلة معقلا

وأرسل المغيرة أخبار الظفر الى امـــير المؤمنين فطابت نفسه وكان يقول : لا يرتفع للخوارج بعد هذا صوت .

●

٨

فسدت البصرة في ايام عبـــد الله بن عامر ، وظهر فيهـا السفهاء ، في السنة

الرابعة والاربعين . وذلك يعود الى ضعف في الادارة ، ولين يوضع في موضع الشدة والحزم . فشكا ابن عامر أمره الى زياد بن ابيه وسأله رأيه :

وزياد بطاش ليس عنده دواء أنجع من السيف ، فقال له : جرد سيفك .

قال : اكره ان اصلح الناس بفساد نفسي . – إذن ليس لك إلا ان تتمرغ في هذه الفوضى التي لمستها بيديك ، وإني قد نصحت لك .

وظلت حال البصرة على ماقرأت ، حتى رأى عبد الله أخيراً ان يوفد وفداً الى دمشق ، يطلع امير المؤمنين على ما يفعله الناس ، ويشاوره في الامر .

وكان المغيرة بن شعبة ، على عادته في كل عام ، قد ارسل وفداً الى معاوية ، يحمل اليه أخبار الكوفة واخبار العراق .

وقد انتهى هذا الوفد الى دمشق ، في الساعة التي انتهى فيها اليها ، وفد البصرة ، واجتمع الوفدان في الخضراء ، وفي وفد الكوفة ، ابن الكواء ، واسمه عبد الله بن ابي أوفى من بني يشكر وهو جريء القلب واللسان .

فلما مثل الفريقان بين يدي معاوية ، قال : نسألكم عن أهل العراق ..

فقال ابن الكواء :

ليس في العراق اليوم ، من الناحية العامة ، ما يغضب أمير المؤمنين .

– وماذا تعني بقولك ؟ – أعني ان الخوارج قد تفرق شملهم ولم يبق في العراق من يجاهر الخليفة بالعداوة كما كانوا يفعلون ..

فبدت آثار العز على جبين معاوية ، وقال :

لم نخف قط هذه الطائفة ولا نخافها اذا خطر للبقية الباقية منها ان تشهر السيف.

ان الخلافة لا تزعزعها الحادثات ، وسيف امير المؤمنين ، اطول سيف في الاسلام ... ألا فليسمع الناس... ثم ابتسم ابتسامته التي لا لون لها وجعل يقول : ليس لأحد ان يطمع بحلم امير المؤمنين ، إن للحلم ساعة وللسيف ساعة ، فالويل لمن تحدثه النفس بأن ينسى هذا . ثم قال : وماذا في الكوفة ؟

الكوفة قطرٌ يأمره امير المؤمنين فلا يتردد في الطاعة ، فهو سامع مطيع خاضع للخليفة أطال الله بقاءه .

قال : إنما فرضت الطاعة على كل مسلم ... واميركم المغيرة ؟

– شديد عند الشدة ، وليّن عندما يرى ان الامر يحتاج الى اللين .

قال : تلك خصلة يجب ان تكون لجميع الامراء ... وأنتم يا اهل البصرة ، ما وراءكم ؟ فقال احدهم : في البصرة طائفة من الناس تستحل كل شيء ، وقد بعث بنا ابن عامر لنشاور في امرها امير المؤمنين ... فضحك قائلاً :

تستحل كل شيء ويشاورنا في امرها ابن عامر ؟ انه لحزم عظيم الأثر يظهره عاملنا على البصرة ، للناس الذين يعيشون تحت لوائه .. وانها لرغبة في المشورة لم يرد علينا مثلها من عمال الدولة ! وهل يصبر ابن عامر على رجل يدعو الناس الى الثورة ، او الى الفتنة ، أو الى الكفر ليشاورنا في امره ؟ اما والله لو أتانا من غير ابن عامر ما أتانا منه الآن لعزلناه ... وماذا في البصرة إذن ؟

فقال ابن الكواء : أيأذن لي امير المؤمنين في الكلام ؟

– انك في الكوفة وقد لا تعرف شيئاً مما نسأل .

– بل اعرف كل شيء يا مولاي فاذا سألتني أجبت بكلمتين .

قال : ماذا تعلم ... قال : إن اهل البصرة أكلهم سفهاؤهم وضعف عنهم اميرهم ، وهذا كل ما في الامر !..

قال : تتكلم عن القوم وهم في هذا المجلس .

– اجل يا امير المؤمنين وأتكلم امام ابن عامر نفسه فهو الامير العاجز الذي لا يستطيع ان يعيد الى البصرة هدوءها ولا يقدر على إرضاء امير المؤمنين .

وكان وفد البصرة ضعيفاً لا يصلح للدفاع ، فقال معاوية :

أيجبن اميركم حتى ليطغى القوم السفهاء على البصرة وهو ساكت كأن الأمر لايعنيه ؟! فأجابه احدهم قائلاً : إنه يعمد الى الحلم واللين كما يفعل امير المؤمنين .

قال : اما الحلم الذي ذكرت فأمير المؤمنين يعرف مواضعه وكان على ابن عامر ان يتبين هذه المواضع لئلا تضيع .. ويضيع حلمه .. اما والله لو علمنا ان حلمنا يذهب بهيبة الخلافة قيد شعرة لما عمدنا إلا الى السيف ..! ثم قال :

انظر فيما تتكلم ولا تعد الى مثلها ، واومأ اليهم يأمرهم بالانصراف وهو يقول:

ارحلوا اليوم وارسلوا الينـا ابن عامر فمن الرأي ان نراه لنسأله عما يتحدث به الناس في العراق . فنهضوا وهم يهمون بالخروج ، فقال لابن الكواء :

أتري زياداً في الكوفة ؟ — نعم يا امير المؤمنين .

— وتراه في قصر الامارة عند المغيرة بن شعبة .

— نراه في فناء منزله وفي المسجد ..

فقال رجل منهم: رأيته مرة في مجلس المغيرة ، وفي ذلك المجلس وجوه الناس. فقال لوفد البصرة : اخرجوا . ثم قال لوفد الكوفة : مارأيكم في المغـيرة .. فسكت ابن الكواء ولم يشأ أن يقول كلمة .

اما ذلك الرجل فقال : رأينا فيه انه هواه في امير المؤمنين .

فأطرق قليلاً ثم قال : لانسألك عن هذا ، ولكنا اوصيناه عندما وليناه امر الكوفة ، بأن لايترك شتم علي وذمه ، والاستغفار لعثمان ، والعيب لأصحاب علي.

— وهو يفعل ذلك يا مولاي ويشتم علياً ويدعو لعثمان ..

— ولكن بلغنا ان هنالك رجلاً يقول له كلما ذم علياً ولعنه : بل إياكم ذم الله ولعن ، ثم يقوم ذلك الرجل فيقول : انا أشهد ان من تذمون أحق بالفضـل ، ومن تذكون اولى بالذم .. فهل تعرفون الرجل الذي يقول هذا ؟

وبدأ الغضب على وجه معاوية .

فقال رجل آخر : نعم ياامير المؤمنين ، انه حجر بن عدي .

— وماذا يفعل المغيرة عندمـا يسمع قول حجر ؟ يدعوه اليه فينهاه ثم يقول له : اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته فان غضب السلطان يهلك امثالك ..

فهز رأسه قائلاً : يفعل هذا ثم يكف عنه وهذا هو الضعف ..

وكأنه رأى انه جاوز الحد الذي يقضي به الدهاء .. فقال :

ولكنه يرى ، وهو في الكوفة ، مالا يراه أمير المؤمنين وهو بعيد عنها ، وقد يكون له بعض العذر .. والآن قولوا لنا ، أليس في بني كلدة النازلين في الكوفة رجل اوسع نفوذاً وجاهاً من حجر ؟

— إن حجراً سيّد كندة يا امير المؤمنين ، يساعده في امره رجل من قومه له

منزلته في العشائر ..   — من هو ؟   — الأرقم بن عبد الله ..

فجعل يقول : الأرقم بن عبد الله الكندي .. نعم ، الأرقم بن عبد الله من انصار علي ... ومن وجوه اصحابه ... ومن يناصر حجراً من رؤساء الناس ؟

فتردد الرجل في الجواب ، فقال له :

لا تكتمنا ما تعلم .. قل كل شيء قبل ان نعلم ذلك من المغيرة نفسه.

قال : أسمعهم يقولون ان هنالك رجالاً من بني شيبان وعبس وخثعم وتميم يرون رأي عدي وهم يساعدونه من وراء الستار .

— اذكر واحداً من بني عبس .   — قبيصة بن ضبيعة .

— وواحداً من بني خثعم ؟.   — كريم بن عفيف .   — ومن بني شيبان؟

— صيفي بن فسيل ، وأما بنو تميم فاذكر منهم اثنين هما محرز بن شهاب وعبد الله بن حوية . واقبل الحاجب في تلك الساعة يستأذن لسعيد بن العاص ، فأذن له فدخل ، فقال له :

هل بلغك يا ابن العاص ما يفعله المغيرة بن شعبة ، عاملنا على الكوفة ؟

— بلغني عنه يا امير المؤمنين أشياء ، وغابت عني أشياء .

قال : يلعن علياً ويدعو لعثمان فيقوم حجر بن عدي الكندي فيشتم عثمان ويدعو لعلي .. وهو ساكت لا ينهاه !

قال : اويفعلها المغيرة ؟ إنها اذن ظاهرة من ظواهر الفتنة .

— بل هي ظاهرة من ظواهر العجز فالفتنة لايرتفع لها صوت وأمير المؤمنين معاوية حي .. ولكن لا نستطيع ان نشك في دهاء المغيرة ، ووفائه للخلافة .. انصرفوا الآن ، وقد امرنا لكم ببعض المال ..

فقال ابن الكواء : أيأمر أمير المؤمنين بأن نرسل اليه المغيرة ؟

— لا ، ولك أن تخبره ما سمعت.

وكان أهل الكوفة قد سمعوا من قبل ، ان معاوية يريد أن يعزل المغيرة ويجعل سعيد بن العاص عاملاً له عليها .

وقد عرف المغيرة ذلك ، وحدّث به بعض خاصته ، ولكنه آثر السكوت والصبر ريثما تثبت هذه الاخبار التي نقلوها اليه .

فخرج الوفد وابن الكواء يقول في نفسه : إن العرب تتحدث بحلم معاوية وأنا أخشى هذا الحلم .

●

٩ .

كان لمعاوية وزراء ينظرون ، كما قرأت ، في أمور الدولة لا يحيدون عن امره ورأيه في جميع الشؤون .

بينهم اثنان من نصارى العرب السوريين ، هما منصور وسرجون وزيرا بيت المال،وهو يثق بوفائهما . وبين ابن الكواء وسرجون صداقة قديمة العهد .

فلما خرج وفد الكوفة الى الرواق الكبير ، الذي توضع في بعض حجراته اموال المسلمين ، لقي ابن الكواء صديقه الوزير يهامس الحرث بن عبد الله الأزدي احد وجوه دمشق . فصافحه قائلاً : لم يخطر لي ان اخرج من الخضراء دون ان اراك وقد رأيتك الآن . قال : ومتى قدمت؟

– قدمت دمشق امس مع وفد الكوفة ، ومثلنا الساعة بين يدي امير المؤمنين وعنده وفد البصرة . – وسمعت ما قاله للوفد الذي ذكرت ؟

– سمعت كل شيء ، وانصرف البصريون ونحن عنده ..

فنظر الى الحرث نظرة قصيرة ثم قال : تعالوا نجلس .

ثم تقدمهم الى إحدى القاعات المعدّة لجباة الاموال وجلس وهو يقول : ماذا جرى في البصرة حتى اضطربت حالها وفسد امرها ؟

قال : اما البصرة فهي كما كانت ولكن قويت فيها شوكة السفهاء ..

والحرث بن عبد الله يصغي اليه وقد برقت عيناه .

وقال سرجون : ولم يجد عبد الله بن عامر دواء للقوم ؟

- إن الضعف هو الدواء الذي لجأ اليه ، وقد ذكرت ما أعلم لأمير المؤمنين
ألس شيئاً ولم أترك كلمة ، ويشهد هؤلاء .. — وماذا قال امير المؤمنين ؟
- قال : إن عبد الله جبان وقد ضيّع هيبة الخلافة .
- وأرسل يدعوه الى دمشق ؟
- أجل ، أوصى رجال الوفد بأن يبعثوا به اليه .
لتمتم يقول للحرث : لقد انتهى الامر . فقال ابن الكواء : وأي أمر هذا ؟
لابتسم قائلاً : لك أن تسأل عما يجري في الكوفة فليس لك في البصرة شأن.
وهل نسيت ان بالبصرة طائفة كبيرة من بني يشكر ، وهم قومي ؟
قال : أولئك هم أنصار عبد الله بن ابي شيخ اليشكري وهو عدوك...
قال : يطيب لي ان يكون لي شأن مع هؤلاء الاعداء ..
- أما انا فلا يطيب لي أن ابوح بسر لاعلاقة لك به .. كيف رأيت معاوية؟
- أأصف لك ما رأيت من معاوية وما رأيت من وزيره صاحب بيت المال ؟
- أنا ؟ — نعم أنت .. صف ما تشاءوابدأبامير المؤمنين.
قال : رأيت حلما ما رأيت قط أروع منه . انه حلم رهيب تحتجب وراءه
أرة لا أعلم أي شيء هي .
قال ان امير المؤمنين احلم الناس ، الا في مواقف الدفاع عن الخلافة واني لا
اذكر ، وأنا اعيش معه في قصر واحد ، انه ضيع حلمه ، منذ تولى امر الخلافة ،
الا مرة واحدة . — ومتى كان ذلك ؟
- يوم نقلوا اليه أن المستورد الخارجي حمل سيفه يريد القتال .
ثم قال : ولكنك دخلت عليه ساعة خبروه بفساد البصرة ، فشهدت غضبه
ولم تر ابتسامته ،وخيل اليك ان الثورة تكمن وراء هدوئه ولينه ، اللذين وصفوهما
لك . قل هل سمعته يهدد عبد الله بن عامر ؟
لا فعبد الله بعيد عنه ، ولكنه سمعته يقول أن حلم عبد الله وَرفقه بأهل
البصرة ، حلم العاجز ورفق الضعيف . — وما معنى ذلك ؟
- معناه أنه لا يؤمن بهذا الحلم الذي يتظاهر به ،وهو يرى ان السيف خير منه .

– أما انا فقد رأيت غير مارأيت انت . ان استخفاف اهل البصرة بأميرهم عبد الله ، معناه الاستخفاف بالخلافة وهذا ما لا يطيقه امير المؤمنين . وذلك الصبر الغريب العجيب ، يظهره ابن عامر ويعتصم به ، معناه الضعف الذي لا يرى الناس مثله .. قال : كنت اظن أنه يظهر حلمه للاقوياء من العرب ويخفيه عن الآخرين ، الذين لا حول لهم ولا قوة .

قال: احذر أن تقول مثل هذا مرة أخرى .. إن معاوية لا يخاف أحداً ولا يقوم في ذهنه أن في الدولة رجلاً يستطيع أن يحدث حدثاً في الامة بدون اذنه .. ولو كان يخاف القوي ويهزأ بالضعيف لما صبر على ما سمعه من أروى بنت الحارث ، وقد شتمته في مجلسه وشتمت عمرو بن العاص ، وهي العجوز الضعيفة التي ليس لها من القوة ما تثبت معها في وجه أمير المؤمنين . – ومن هي اروى بنت الحارث؟

– انها حفيدة عبد المطلب بن هاشم ، وقد قدمت دمشق منذ ثلاثة أعوام ، أي بعد تخلي الحسن عن الخلافة . – وكيف أذن لها في الدخول عليه ؟

– قيل له ان أروى بالباب ، فقال لنا ونحن في مجلسه :

عجباً ، كيف استطاعت هذه المرأة أن تأتي الشام وقد جاوزت التسعين من العمر . ثم قال لحاجبه : ساعدها في الدخول.

فدخلت وقد حنت السنون ظهرها وهي تمشي كما يمشي السكران فقال لها : مرحباً بك يا خالة .. كيف أنت ؟ وأجلسها بالقرب منه .

فقالت : بخير يا ابن اختي . قال : اذكري حاجتك .

قالت : سأذكرها بعد أن أقول لك ما أريد قوله .

فابتسم قائلاً : قولي ما تشائين .. فرفعت رأسها وهي تقول :

لقد كفرت بالنعمة يامعاوية وأسأت لابن عمك الصحبة ، وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك ! وكان عمرو بن العاص حاضراً ، فهمّ بالكلام فأمره بالسكوت ثم قال لها : قولي أيضاً !

قالت : كنا أهل البيت أعظم الناس في هذا الدين بلاء ، حتى قبض الله نبيّه مشكوراً سعيه مرفوعة منزلته ، فوثبت علينا بعده تيم وعدي وامية ، فابتزونا حقنا ،

ووليتم علينا فكنا فيكم بمنزلة بني اسرائيل في آل فرعون ، ثم قالت :
وكان علي بن ابي طالب بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى !
فقال لها عمرو بن العاص :
كفى أيتها العجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك.
فقالت : وانت ياابن الباغية ، تتكلم وامك كانت اشهر بغيّ بمكة وقد ادعاك خمسة رجال من قريش فسئلت امك عنهم فقالت : انظروا أشبههم به فألحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فألحقوك بنسبه ! أتعلم ماذا قال عندئذ أمير المؤمنين ؟ — ماذا قال ؟
– قال عفا الله عما مضى هاتي حاجتك الآن يا خالة.
قالت : أريد الفي دينار . — وما تفعلين بها ؟
– اشتري بها عينا فوارة في أرض خرارة تكون لفقراء بني الحارث بن عبد المطلب .
– وغير ذلك ؟ — والفي دينار أخرى أزوج بها هؤلاء الفقراء .
فقال معاوية : وهل بقي شيء ؟
قالت : والفي دينار أخرى أستعين بها على الزمان .. فنظر الي عندئذ قائلاً: ادفع الى هذه الخالة ستة آلاف دينار ولتنصرف راضية .. أفتقول بعد ذلك أن أمير المؤمنين يجود بحلمه على القوي ويبخل به على الضعيف ؟
فقال ابن الكواء : ماسمعت مثل هذا قط .. إنه إذن أكرم من حاتم ..
قال : المال في نظره دعامة من دعائم الدولة ، فهو يبذله في كل يوم بل في كل ساعة إذا رأى أن هنالك ماينفع العرش ، والويل لمن يستخف بعطائه ، أو يضيع بخيانته وحيلته ذلك العطاء . — يظهر أن المال كثير بين يديه ..
قال : اسمع ياابن الكواء ، إن معاوية يشمل الناس باحسانه ، ويفيض عليهم من جوده وبره ، وينفق ما لا بد من انفاقه ، على ديوان الجند والولاة والفقهاء والقضاة يفعل ذلك كله من خراج دمشق وحده ، ثم يبقى من هذا الخراج ، في بيت المال أربعمائة الف دينار .! ثم قال :

أما وقد وصفت لنا مارأيته من معاوية وذكرنا لك نحن مانعرفه عنه ، فلم يبق إلا أن تصف مارأيت من صاحب بيت المال .. وكان ابن الكواء خفيف الروح فقال :

أما سيدنا الوزير سرجون صاحب بيت المال ، فقد سألني عما قاله أمير المؤمنين لوفد البصرة ، ولم يذكر لي غايته من هذا السؤال ..

– وأي دليل لك على أن لي غاية ؟

– دليلي هذه النظرات التي وجهتها الى الحرث بن عبد الله .. وهنالك دليل آخر لايرد هو قولك له : لقد انتهى الأمر ..

قال : بيني وبين الحرث سرٌ ليس من الرأي أن أبوح به .

– ولكني عرفت سرك وسأبوح به الساعة . – اذكر ماعرفت ..

– ولا تغضب ؟ – ليس في الأمر مايدعو الى الغضب فهو حديث بين صديقين..

قال : خيل إليّ أن الحرث ينظر إلى البصرة بعينين تتقد فيهما نار الشهوة ..

فضحك قائلا : وهل يؤثر الحرث البصرة على دمشق ، ودمشق جنة الدنيا وبهجتها ومقر الخلافة الفياض بالبركات ؟

– إن في البصرة شيئاً ليس في دمشق مثله فهو يؤثره على كل شيء ..

– وما هو ؟

– هو مقعد عال يشبه سرير امير المؤمنين ويصبح الجالس عليه من الأمراء .

– أي أن الحرث يطمع بالولاية . – نعم يامولانا الوزير ...

– ولكن الأمر لن يتم إلا اذا عزل عبد الله بن عامر .

– وأمير المؤمنين سيعزل عبد الله . – ومن قال لك ذلك ؟

– رأيت أمر العزل مكتوباً في عيني الخليفة وهو يتكلم .

– ولكنك لا تعلم أن هذا الخليفة يفكر اليوم في أمر آخر ، يضمن الولاية لابن عامر الى الابد . – وتعرف أنت هذا الامر ؟

– ان صاحب بيت المال يعرف ما في نفس أمير المؤمنين . لقد بلغه اليوم أن لعبد الله بن عامر فتاة هي آية الجمال وتدعى ام كلثوم . – نعم .

– وليس للخليفة هم غير ولده يزيد فهو يرسل نظره الى الاقطار العربية ، ليختار له الزوجات الحسان من بنات الشرف والجاه .

– ويريد أن يزف اليه ام كلثوم ؟ – هذا ما يفكر فيه .

– وتظن أن فكرة الزواج هذه تمنعه من عزل عامله ؟ – اجل .

– أما أنا فأظن غير ذلك، لقد دعا الآن عبد الله بن عامر الى دمشق وسيأتيها بعد شهرين فيقول له الخليفة :

لقد عزلناك عن البصرة ، وخطبنا ام كلثوم ليزيد ، فهو يضربه بيد ويمسح دموعه باليد الاخرى .. ثم يهب له بعض المال ، ويعده بأنه سيبقى الى الابد من المقربين اليه .. ذلك ما يفعله الخليفة بعد شهرين ، وذلك هو معنى قولك للحرث : ان الامر قد انتهى . فابتسم سرجون ابتسامة الدهاء وقال :

اني اعتب على الله عز وجل . – لماذا ؟

– لأنه لم يشأ أن تولد في أيام الأنبياء ..

– وأنا أعتب عليه تعالى وفي الصدر كآبة وألم . – لماذا ؟

– لأنه جعلك وزيراً لبيت المال ، تلعب بأموال الامة ، وعقول أبنائها وتهزأ بالمخلصين لك مثل ابن الكواء .. فضحك الجميع ضحكاً ملأ القاعة والرواق .

وكان معاوية عندئذ في ذلك الرواق وهو ذاهب الى منزله .

فقال لحاجبه : من يضحك في قاعة الجباة ؟ قال أتأذن لي أن افتح بابها ؟

قال : نفتحه نحن .. ومشى الى ذلك الباب فقال : سرجون !.

فنهض الرجل وفتح الباب من الداخل وهو يقول : امير المؤمنين ..

قال : سمعنا ضحكاً فأحببنا أن نرى أصحابه . وجعل يتبين القوم ثم قال : وفد الكوفة ، وابن الكواء .. والحرث بن عبد الله .. انك يا ابن الكواء تقص على سرجون اخبار البصرة التي قصصتها علينا منذ ساعة .. ولكنك لا تقول كلمة عن الكوفة .. الم يذكر لك سرجون حكاية السفهاء في ظل عبد الله بن عامر .. إن عبد الله سيبلغه ما قلت يا ابن الكواء والويل لك منه .

فقال : حسبي أن امير المؤمنين راضٍ ولتغضب البصرة وأنا لا أبالي .

قال : الرجل الذي لا يحبه عبد الله لا يحبه امير المؤمنين ..
- اذن فالويل لأهل البصرة جميعهم فهو لا يحب أحداً منهم ولا يحبه احد .
قال : ما سمعنا مثل هذا إلامنك .
قال : كنت أجرأ الناس فخبرت امير المؤمنين بكل ما أعلم .
فحول وجهه وجعل يقول :
سنرى إذا كانت الجرأة وحدها هي التي أملت عليك ماقلت .
وخطا بضع خطوات ثم رجع قائلاً للحرث :
أما أنت فلا تترك دمشق إلا إذا أذنا لك ...
وانصرف وهو ينظر الى الأرض ، وقد غاص في لجة التفكير ..
فقال ابن الكواء عندئذ لسرجون : وما معنى هذا يامولانا الوزير ؟
- معناه أن لأمير المؤمنين سؤالاً يريد أن يوجهه الى الرجل .
- قل ان له حاجة ، وهذه الحاجة هي ولاية البصرةالتي سيعهد فيها اليه.
ونهض قائلاً : سنلتقي في البصرة إن شاء الله ...
فخفض سرجون صوته قائلاً : نعم ستلتقيان إن شاء الله ...

●

١٠

رجع وفد المغيرة الى الكوفة ووفد عبد الله بن عامر الى البصرة ،وقد حفظ الوفدان ماسمعاه من معاوية لم ينسيا من حديثه كلمة .

وكان أهل الكوفة يقولون : ان أمير المؤمنين يهم بعزل المغيرة وجعل سعيد ابن العاص خلفاً له . إلا ابن الكواء فقد كان يرى أن المغيرة سيستطيع بدهائه ، وقوة حيلته ، أن يثني معاوية عما يهم به .

وكان أهل البصرة يقولون : لقد أتت الساعة التي يتنحى فيها عبد الله بن عامر عن مقعد الولاية . ولكنهم لم يعلموا أي رجل يختاره معاوية عاملاً بعده

حتى انتهوا الى بلدهم ومثلوا بين يدي عبد الله ، فقال لهم : قصوا علينا مارأيتم وسمعتم . فقال أحدهم: رأينا أيها الأمير وسمعنا ما لا تحب.

فاضطرب قائلاً : من أمير المؤمنين ؟! — منه ومن ابن الكواء ..

– ابن الكواء ؟.. وهل عنيت عبد الله بن أبي اوفى اليشكري ؟

– نعم .. – وأي شأن لهذا الرجل مع معاوية ؟

– كان في مجلس أمير المؤمنين يرأس وفداً من أهل الكوفة .

– وماذا قال ؟

– خبّر الخليفة بما يعلم عن أحوال البصرة ، وعرض لهذا الحلم الذي غمرت به القوم قائلاً انه عجز وضعف !

فجعل يقول : ويل لك ياابن ابي أوفى ، تعرض لأمـــير البصرة في مجلس الخليفة واهل البصرة يسمعون ؟!.. إنها جرأة مجنون لايعلم ماذا يصنع ...وبماذا أجابه معاوية ؟ – رأينا على جبين معاوية اثراً من آثار القسوة ثم قال لنا ... إني والله لا اذكر ما قال ... – بل تذكر وتعيد قوله.

فكره الرجل ان يفعل ، فقال عبد الله لآخر : أعد علينا انت ماسمعته من امير المؤمنين.

قال · لقد دعاك جباناً حتى ليطغي القوم السفهاء في ظلك ، وانت ساكت كأن الأمر لايعنيك ... – ولم تدافعوا عن اميركم ؟

– بلى، ولكن معاوية لم يصغ الى دفاعنا ، بل لم يشأ إلا ان يأمرنا بالانصراف من مجلسه ، والرحيل عن دمشق.

– وآخر كلام سمعتموه ؟ - أمرنا بأن ننقل اليك رغبته في الذهاب اليه .

فأطرق ملياً ثم قال :

أما الذهاب الى الشام فليس صعباً . ولكننا لا نسكت عن النمام الواشي ..

اين ابن الكواء اليوم ؟ لقد رجع الى الكوفة مع القوم .

قال : تبينوا رجال العراق واحداً واحــداً وانظروا أيهم اشد عداوةً لهذا النذل . قالوا : إن عبد الله بن ابي شيخ اليشكري أعدى عدو له .

قال : سنقهر ابن الكواء ، بأن نجعل الرجل الذي ذكرتم عاملاً علىخراسان. ولكن ولاية ابن أبي شيخ لا تغضب عـدوك كما تظن ، فاذا شئت فاعمد الى شيء آخر تقهره به .

– لا نستطيع أن نمدّ اليه يداً وهو في الكوفة .. اين ابن ابي شيخ ؟

– هو هنا وقد يكون الآن في المسجد . فأمر غلامه بأن يدعوه اليه .

فلما أقبل قال له : لقد وليناك أمر خراسان يا عبد الله فماذا تقول ؟

فانحنى الرجل قائلاً : ليس لي إلا أن أشكر الأمير على عنايته بي .. ولكن في أي شيء استحققت هذا منك ؟

قال : إنك أهل لهذا وأنت عدّو عبد الله بن ابي أوفى الذي يقـــال له ابن الكواء أليس كذلك ؟

– بلى وستبقى هذه العداوة ما بقيت وإن يكن الرجل من قومي .

قال : لقد انتهك حرمتنا في مجلس امير المؤمنين وكان يقول اننا أضعف من أن نحفظ في البصرة هيبـــة الخلافة .. أفترى ان هنالك شيئاً يقهر ابن الكواء اكثر من ان نوليك ؟ – لا أعلم وأرجو أن يدلني الامير على ما اقهره انا به ..

– يكفي هذا الآن وسننظر في أمره بعد رجوعنا من دمشق .. تهيأ الآن للانصراف الى خراسان، وكن ذلك الرجل الذي نثق ويثق به امير المؤمنين .

فخرج اليشكري وهو يقول في نفسه :

سأمعن في عداوة ابن الكواء فعداوته خير لي .

وكان ابن عامر يقول لجلسائه : أترون ان نسير الى دمشق في هذا الشهر ؟

فقال صاحب سره : سينتهي هذا العام بعد شهر فخير لك أن تسير اليها لتقرأ مافي نفس أمير المؤمنين . فانصرف عبـد الله الى منزله ثم لم يلبث حتى عاد وهو يقول : أعدوا لنا عدة السفر فسنرحل غداً .

– ومن يرافقك من القوم ؟ – غلامان يساعداننا في قضاء الحاجات .

ففعلوا ما أمرهم به ، وعمد هو يومه كله ، الى النظر في أمر الاموال ، ما له منها وما عليه ، حتى جنّ الليل ، وعند بزوغ الفجر ، خرج من البصرة ونفسه

تحدثه بأن قساوة معاوية ستحجب الدهاء واللين ، اللذين يعمد اليها في حديثه مع عمال الدولة .

●

١١

هذا عبد الله بن عامر امير البصرة يا أمير المؤمنين .

قالها أحد حجاب الخضراء ، وعند معاوية عقبة بن نافع ، وسرجون ، وسعيد بن العاص ، وبعض الوزراء .. فرفع معاوية صوته قائلاً :

يستطيع أمير البصرة ان يدخل على امير المؤمنين عندما يشاء ...

فدخل ابن عامر وقلبه يخفق في صدره . ولكنه سلم وهو يبتسم .

فرأى القوم عندئذ على ثغر معاوية ، تلك الابتسامة المعروفة التي لالون لها، ثم مدّ يده الى عامله قائلاً : هذا مكانك فاجلس ... وأومأ الى مقعد قريب منه ثم قال : ماذا تحمل من اخبار البصرة ياعبد الله ؟

قال : أحمل من أخبارها ما تطيب له نفس امير المؤمنين ..

فقال لعقبة بن نافع وسعيد بن العاص : ألكما حاجة ؟

فعرف الاثنان انه يأمرهما بالانصراف ، فخرجا ، فقال :

يطيب لأمير المؤمنين ان يكون عامله على البصرة رجلاً عظيم الهيبة بعيد الأثر في ولايته فقل لنا أأنت ذلك الرجل ؟ - اني كما تعلم يامولاي .

- نحن نعلم أن السفهاء في البصرة يضعون أيديهم على كل شيء ، والقوم فوضى .. ونحن لانعلم شيئاً آخر ...!

قال : لقد كان الهدوء من قبل ينشر في البصرة ظله ..

- كان ذلك من قبل أما اليوم ؟..

- ليس هنالك شيء جديد ياأمير المؤمنين «سلبية» .

فقال : اسمع ياسرجون ، إن الرجل في البصرة لايجسر على أن يترك ناقته في

فناء داره خوفاً من أن تمتد اليها يد سارق ، بل لايجسر على الخروج من بيتـه في ظلام الليل ، خوفاً من أن تمتد اليه يد عدو والقوم فوضى ... ومع ذلك فليس في البصرة شيء جديد ... أهذا هو عذرك ياعبد الله ؟

قال : يحدث مثل هذا في جميع الأقاليم يامولاي .

– أجل يحدث مثله ولكن العامل الذي يعجز عن اخماد النار يعزله الخليفة عن عمله ويجعل خلفه رجلاً هو أصلب عوداً منه .

قال خطر لي أن ألجأ الى الحلم كما يصنع أمير المؤمنين ففعلت ..

قال : لقد ذكر رجل من وفد البصرة شيئاً من هـذا فنهيناه عن ذلك ونحن ننهاك الآن .. ضع الحلم في موضعه إذا أردت ان تفعل مايفعله امير المؤمنين ... نغض الطرف على الخطيئة والهفوة ، ونصبر على مانسمع ، وما نراه من جفـاء ، ولكن لانطيق الصبر على قوم يستخفون بشأن الخلافة ... أفهمت الآن ؟

قال : عفوك عما مضى ياامير المؤمنين ..

قال : لقد نسينا الماضي ونحن ننظر في أمر الحاضـر الواقع .. أي رجل تراه يصلح للبصرة في هذا الزمان ؟

– أيريد امير المؤمنين ان يعزلني عن الولاية ؟

قال : لانعزلك عزلاً ياعبد الله ولكن نسألك أن تتخـلى انت عنها الآن لنجرب رجلاً قيل لنا انه ذو دهاء ... – وهذا هو العزل ..

قال : اخطأت فالخليفة إذا اراد ان يعزل عاملاً اتبع آثاره وحاسب عماله ونظر في أمر امواله قبل ان ينحيه أتريد ان نصنع مثل هذا ؟

فأطرق ولم يجب ، فقال معاوية :

اختر ، إما ان افعل ماذكرت واما ان تعزل نفسك .

قال : لا أطيق ان يقول الناس غداً ان امـير المؤمنين يحاسب عبد الله بن عامر ويهم بعزله .

– اذن فليس عليك إلا ان تختار الأمر الآخر ..

قال : امهلني شهراً إن شئت . لماذا ؟

– لأتدبر أمري قبل ان اترك البصرة .

– تستطيع ان تفعل ذلك عندما يطيب لك . – واي بلد تختاره لي ؟

– لك المال بعرفة ، والدور بمكة ، وأنت تعرف العراق والشام كما تعرف الحجاز فأي البلاد أحب اليك ؟

فتنهد قائلا : سأتخذ منزلاً بعيداً عن الناس فذلك خير لي ..

فرأى معاوية الغضب على جبينه فقال :

لقد انتهينا الآن من أمر الولاية وبقي امر آخر نحدثك به الآن .

فظل عبد الله ساكتاً ، فقال له : أسامعٌ انت ؟

– نعم يا أمير المؤمنين . قال : وصفت لنا ابنتك أم كلثوم انها من أحسن النساء وجهاً وأكرمهن خلقاً وهي في سن الزواج .

فبرقت عيناه قائلا : انها لكما وصفت لك . – وتزوجها ؟

– إذا أردت فاذكر لي اسم طالب الزواج ...

– نذكر لك شيئاً عنه قبل ان تعرف اسمه..انه أعظم أشراف العرب شأناً وأرفعهم مقاماً لا يتقدمه في الجلوس والرواح والمجيء أحدٌ منهم ..

فرقص فؤاده من الفرح وجعل يقول : انه امير المؤمنين ...

– بل هو ابن امير المؤمنين . – يزيد ؟

– أجل وقد سألنا ان نزفها اليه ونحن الآن نخطبها له فماذا تقول ؟

– ولكنه تزوج ام هاشم بنت عتبة بن ربيعة .

قال : يظهر انك تبخل عليه بأم كلثوم .

قال : لا يخطر لعربي ان يبخل بابنته على الأمير الاكبر ابن خليفة المسلمين ، ولكني اردت أن أذكر الخليفة ، بأن الأمير تزوج ام هاشم منذ زمن قصير .

– ليس لك أن تسألنا عن هذا ، فللأمير ان يتزوج اثنتين او ثلاثاً في عام واحد . إنا نخطب اليك الآن ام كلثوم فبماذا تجيب ؟

– اجيب بالرضى ، والطاعة ، والشكر .

– وتريد أن تسأل الأمير عن رضاه ؟

– حسبي أن امير المؤمنين أمر بذلك .

– اذن فارجع الى البصرة وستحمل ام كلثوم الى زوجها بعد قليل .

ثم قال : أيطيب لك يا عبـد الله أن ترجع الى الامارة ، وتبقى ام كلثوم في بيت ابيها ، أم تؤثر العزل على ان يكون يزيد صهراً لك ؟

– ليس في العالم شيء أؤثره على هذا الرابط الجديد الذي تشرفني به .. غير أني اخشى أن لا تكون ام كلثوم أهلاً لولدك .

قال : أما هذا الأمر فلا نعرض له . قل الآن أتنصرف راضياً .

– بل انصرف شاكراً كما قلت ولكن أتأذن لي أن اسألك عن الرجل الذي سيخلفني على البصرة ؟

– لقد فكـّرنا في ان نولي رجلاً من اهل الشام لا نظن إنك تعرفه .

– من هو يا مولاي ؟ – هو الحرث بن عبد الله الازدي .

وكأنه أراد عندئذ أن يداعب سرجون فقال :

وقد دلـّنا عليه من قبل وزيرنا هذا .

فقال سرجون : حسبي أني لا أدل امير المؤمنين إلا على المخلصين من رجاله .

– وهذا معناه ان عبد الله ابن عامر لم يكن مخلصاً لنا .. أفلا ترى ياعبد الله ان صاحب بيت المال من أعدائك ؟

فطاب للرجل ان يدافع عن الوزير فقال :

– بل ارى انه من أعداء الوشاة الساعين بي .

– لو كان كما تقول لما رضي ان يختار للبصرة عاملاً آخر .

– أمرته بأن يدلك على رجل توليه البصرة ففعل .

فابتسم قائلاً : هذا هو الحلم الذي تضعه في موضع الشدة..يقول لك الخليفة: هذا رجل من اعدائك ، فتقول انه من أنصارك وتدافع عنه بدلاً من أن تشكوه.

قال : اني اعرف اعدائي يا امير المؤمنين .

– اذكر لنا واحداً منهم . – ابن الكواء الذي نقل اليك أن ابن عامر أعجز عن أن يسوس الناس ويجرد السيف على السفهاء .

قال : لقد خبَّرنا غيره بما خبَّرنا هو به فلننس ما مضى ، ولنجرّبْ الحرث ابن عبد الله الازدي هذين الشهرين فقد يكون من أولئك الرجال الذين يريدهم امير المؤمنين . – واذا رأيت أنه ليس من هؤلاء ؟

– اذا رأينا ذلك عزلناه وجعلنا على البصرة عاملاً رابط الجأش لا يستعين إلا بالسيف ولو غضب سرجون .

ثم نادى غلامه فقال : ادعُ الحرث الازدي .

والحرث لا يفارق الخضراء ..

فلما أقبل قال له : لقد وليناك البصرة بعد أن تخلى عنها عبد الله الذي تراه ، فاذا ندبت الى اصلاح ما فسد فكن رجلاً .. ونهض قائلاً : الى المسجد فهذه ساعة الصلاة .

ولم يزد كلمة على ما قال ، ولكنه كان واثقاً بأن هذا الازدي اضعف من أن يعيد الامن الى ذلك الاقليم المضطرب .

●

١٢

عزّ على المغيرة بن شعبة ، أن يعزله معاوية عن الكوفة ، ويولي سعيد بن العاص ذلك مابلغه من قبل ، وقد نقل اليه وفد الكوفة ان سعيداً كان في مجلس أمير المؤمنين . والمغيرة لايسكت على أمر مثل هذا ، فهو الرجل الداهية الذي يجاري معاوية في دهائه : والوالي المجرب الذي خبر الزمان وعركته التجارب .

وكان القوم قد تحدثوا كثيراً بامر عزله وهو يصغي الى مايتحدثون به ولا يقول كلمة ؛ حتى عاد الوفد من دمشق ، وقص عليه رجاله ماسمعوه من معاوية يوم مثلوا بين يديه . وكان يثق باخلاص ابن الكواء ، فقال له :

اذن فأمير المؤمنين لايكتفي بان نشتم علياً ونستغفر لعثمان .

ـ لا ، بل هو يريد أن تؤدّب بسيفك حجر بن عدي الذي يشتم عثمان

ويستغفر لعلي .قال: نهينا حجراً عن ذلك كما تعلم فلم يشأ إلا الاصرار على مايفعل وليس لي حيلة في رده . قال : اسفك دم حجر يستسلم اليك قومه .

ـ ولكن لايطيب لي ان اسفك الدماء .

قال : قد يطيب ذلك لسعيد بن العاص ..

ـ ليفعل سعيد ما يراه عندما ينتهي اليه الامر .. أما انا فان ديني خير من دنياي ولست بفاعل . قال : بهذا يأمرك امير المؤمنين فاصنع ما يأمرك به .

ـ ما كنت لأطيع أحداً في المعصية وقتل حجر يغضب الله عز وجل .

ـ اذن فاترك قصر الامارة مختاراً قبل أن تتركه وأنت مكره فمعاويةلايلبث حتى يولي سعيداً . قال : اعد عليّ ما قاله سعيد لمعاوية وأنت حاضر .

ـ قال له ان الصبر على حجر بن عدي ظاهرة من ظواهر الفتنة وكأنه يسأله أن يوليه لينقذ الكوفة من حجر .. فتردد قليلاً ثم قال :

لا يجلس سعيد بن العاص في قصر الكوفة والمغيرة حي .. ولا يظن سعيد أن سرجون يستطيع أن يعزلني كما عزل عبد الله بن عامر .. إن المغيرة شيء وعبد الله شيء آخر ، ومع ذلك فعبد الله خير من الحرث الازدي الذي لا يصلح للولاية أتعرف ماذا صنع ؟ — ماذا ؟

ـ دعا اليه سفهاء البصرة وصعاليكها فنصح لهم بأن يكفوا عما يفعلون ، ثم سكت فرأى القوم بعد ذلك انه رجل يقول ولا يفعل .

ـ وكيف يرضى امير المؤمنين عن هذا ؟

ـ ما أظنه راضياً وأنا أرى انه سيأمر بعزله وسيولي زياداً فقد سمعت انه ينتظر الامارة . ـ الويل لأهل البصرة اذا انتهى الأمر الى زياد .

ـ بل الويل لزياد نفسه الذي يغوص في لجة من دماء الأبرياء .

وبينا هما يتحدثان ، أقبل حاجب المغيرة يقول : إن زياداً بالباب .

فأذن له المغيرة وجعل يهامس ابن الكواء قائلاً : لم يأتِ زياد الآن إلا لأمر .

فلما دخل هشّ له المغيرة ، ودعاه الى الجلوس ثم قال :

اذكر حاجتك ايها الأمير .

– ليس لي حاجة أسألك قضاءها وإنما ورد عليّ كتاب من أمير المؤمنين يأمرني فيه بترك الكوفة فلم أشأ ان اتركها قبل ان اراك ..

قال : بترك الكوفة ؟ – نعم. – والذهاب الى البصرة ؟ – نعم.

– وقد ولاّك وعزل الأزدي ؟ – نعم .

– لقد اختار أمير المؤمنين لأهل البصرة السيف القاطع بعد أن جرّب الحرث ابن عبد الله أربعة اشهر ...

ومتى ترحل ؟ – بعد ثلاثة أيام .

– بل تمكث بيننا بضعة عشر يوماً ثم تنصرف .

– ولكني لا استطيع ذلك . – لماذا ؟

– لأن القوم في البصرة في فوضى ، وقد جمع لي أمير المؤمنين ، خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان ..

قال : إنها ولاية واسعة الأطراف لم يولِ أمير المؤمنين أحداً مثلها .

– ولكنها لاتتسع لسيفي ...!

– صدقت ، وهذا ما أراده امير المؤمنين ، ولكن هل فكرت في الرجال الذين ستجعلهم أعواناً لك ؟ – فكرت في رجل واحد اجعله على الشرطة .

– من هو ؟ – عبد الله بن حصن .

وكان ابن حصن ، سفاكاً بطاشاً مثل زياد ، فقال المغيرة :

مارأيت ابعد نظراً منك في الاختيار .. ان عبد الله هذا يقتحم الموت ولا يبالي ... قال لاخير في الرجال الذين لايقتحمون الموت .

والتفت الى ابن الكواء قائلاً : أليس لك في البصرة غرض نقضيه لك .

– كان لي غرض قضاه امير المؤمنين ولم يبق لي غرض آخر .

– وهل تلجأ الى امير المؤمنين في قضاء الأغراض ؟

– اجل ، فقد وصفت له ضعف ابن عامر وعجزه عن الأمر ، ثم طلبت اليه ان يولي سواه ففعل . وكان زياد يعرف حكايته فقال :

ولكن ابن عامر لم يترك الامارة إلا بعد أن جعل على خراسان ، عدوك ابن أبي شيخ اليشكري . قال : ان ابن دجاجة « وهو يعني ابن عامر » قليل العلم .
– وكيف ذلك ؟ – لقد ظن ان ولاية عبد الله بن ابي شيخ خراسان ، تسوءني لوددت انه لم يبق يشكري إلا عاداني وانه ولاه قبل عزله ..
– إذن فأنت لاتسألني ان اعزله الآن ..
– ولماذا أسألك وقد عزله امير المؤمنين..ألم تقل الآن انه جمع لك خراسان وغيرها ؟ – بلى ولكن يخطر لي ان ابقيه ..
– افعل ماتشاء فليس لي أن أسأل الأمراء ان يعزلوا جميع الناس ..
– وانت ايها الأمير ؟
– أما انا فأسأل الله ان يجعل عهدك في البصرة عهد هدوء وراحة .
قال : سأقيم بالبصرة وعيناي تنظران الى الكوفة ... فاذا فسدت حالها فاستعن بي فالسيف خير ما ألجأ اليه .. قال : سأستعين بالقوة ..
فقال في نفسه : بل تستعين بالضعف كما كان يفعل ابن عامر ، ولولا بقية من هيبة الخلافة لوثب على معاوية ، حجر بن عدي .
وقام فخرج والقساوة تطل من عينيه .
فقال ابن الكواء : ستنتهي الينا اخبار قساوته بعد حين .
– وسيرحل الناس عن البصرة فراراً من الظلم .
– اما انا فأرى انهم سيؤثرون البصرة على كل بلد . – لماذا ؟
– لأن قساوته ستحفظ الأمن وتعيد هيبة الامارة .
قال لو جعلك الخليفة اميراً لجردت السيف ،انك يابن الكواء تؤثر الحرب على السلم والشدة على اللين . قال : شدة يعيش الناس بعدها ، خير من لين يخسرون معه كل شيء ، قل لي على أي أمر عولت ؟
– على الذهاب الى دمشق . – وماذا تصنع فيها ؟
– أرى معاوية فأستعفيه لأظهر للناس اني مللت الولاية .
– ولكنك قلت ان ابن العاص لايجلس في قصر الكوفة وأنت حي .

– وهل يخطر لك ان الأمر ينتهي عند هذا الحد ؟

– أجل ، فاذا استعفيت الخليفة ، ارسل سعيداً الى الكوفة قائلاً له : هذا المغيرة قد ملّ فكن خلفاً له .

– بل يعيدني الى عملي قائلاً : لا أرضى إلا ان تبقى ..

– وأي شيء يدعوه الى ذلك ؟

– تدعوه اليه مصلحة ملكه والدفاع عن العرش ..

قال : اعترف لك بأني لم افهم شيئاً مما قلت .

– ولكنك ستفهم كل شيء بعد رجوعي من الشام . – ومتى تترك الكوفة ؟

– أمكث بها يوماً واحداً بعد رحيل زياد ، ثم اذهب .

– اي انك تسافر بعد اربعة ايام .

– نعم فأنا اخشى ان يولي معاوية سعيداً إذا ترددت في الذهاب .

– وانا اخشى دهاء معاوية وحلمه فاحذر ..

قال : سأضيّع هذا الدهاء الذي تخافه بدهاء مثله إن شاء الله .

– وهل تأذن لي في الذهاب معك ؟

– أخاف ان تكثر ظنون الخليفة إن فعلت ..

قال : أصبت فالحرب والوباء أهون عليّ وعلى الناس من هذه الظنون ...

وقام المغيرة فدخل منزله وجعـــل يهامس ولديه موسى وعروة ، وقد سمع الغلمان من كلامه لفظة البيعة ثم سمعوه يردد اسم يزيد .

وكان ابن الكواء قد انصرف ، وقد قام في ذهنه ان عزل المغيرة لابدّ منه ، وان دهاءه لا يذكر ، إذا ذكر دهاء امير المؤمنين .

●

١٣

قدم زياد البصرة في شهر ربيـع الآخر ، من السنة الخامسة والاربعين .

وأهل البصرة يعلمون اي رجل هو زياد ، واي سيف هو سيفه .. قدمها ، والفسق ظاهر فاش فيها ، والأمن لا وجود له ، والقوي يتناول الضعيف ، بطمعه وجفائه . فأقبلوا اليه يظهرون له الطاعة ويحنون له الرؤوس .

فلم يبتسم لأحد ، ولم يمد يده الى احد .

ولكنهم رأوه يمشي بقدم ثابتة الى المنبر ثم سمعوه يقول :

« اما بعد فان من الضلالة العمياء ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه العقلاء من الأمور الجسام التي يثب فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا نبي الله ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تعلموا ما أعدّ الله من الثواب لأهل طاعته ، والعذاب لأهل معصيته ، أتكونون كمن طرقت عينه الدنيا وسدت مطامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون انكم أحدثتم في الاسلام حدثاً لم يسبقكم الى مثله احد ؟ هذه المواخير المنصوبة،والضعيفة المسلوبة، ألم يقم منكم من يمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ وتعطفون على المختلس وكل امريء يذب عن سفيهه ، لا يخاف عاقبة ولا يخشى معاداً ...

اني رأيت آخر الأمر لا يصلح إلا صلح به أوله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، واني لأقسم بالله لآخذن الولي بالولي ، والمقيم بالراحل ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم حتى تستقيم لي قناتكم ..

إياكم ودلج الليل ، فاذا حمل الي مدلج سفكت دمه ، إياكم ودعوى الجاهلية فإني لا أجد احداً دعا بها إلا قطعت لسانه . لقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، من حرق بيتاً حرقناه ، ومن نقب منزلاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته حياً فيه ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم اكفف عنكم لساني ويدي .. من كان منكم محسناً فليزدد احساناً ،ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته ..

ايها الناس ، لقد اصبحنا لكم ساسة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، واعلموا أني مهما قصرت فاني لا اقصر عن ثلاث .. لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً أو عطاء ، ولا تاركاً لكم جيشاً في أرض العدو..

فقام عبد الله بن الأهتم فقال :

أشهد ايها الأمير انك اوتيت الحكمة وفصل الخطاب .

قال : كذبت فذاك نبي الله داود . فقال الأحنف بن قيس وكان حاضراً :
قد قلت فأحسنت ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثني حتى نبتلي ...

قال : صدقت . ثم أمر منادياً ينادي :

من يخرج من بيته ليلاً بدون عذر يضرب الامير عنقه !!

وجعل على شرطته عبد الله بن حصن ، وأوصاه بأن لا ينسى كلمة مما قال .

وكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي ، فيأمر رجلاً بأن يقرأ سورة البقرة أو غيرها يرتل القرآن ، ثم يصبر ساعة ، ويأمر بعدئذ صاحب شرطته بالخروج .. فيخرج الى الاسواق ويطوف في الاحياء فلا يرى انساناً خارج بيته إلا قتله . حتى أخذ صاحب الشرطة ، في ليلة مظلمة اعرابياً غريباً .

فأتى به زياداً فقال له : أبصريٌ أنت ؟ — لا والله .

— ولم تسمع النداء اننا لا نأذن لأحد في الخروج ليلاً ؟

— لم أسمع شيئاً ولكني قدمت بناقة لي وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع واقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الامير .

قال : أظنك والله صادقاً ولكن فيقتلك صلاح الأمة . ثم أمر به فضربت عنقه ! .

وكان زياد اول من جرد سيفه من الولاة ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، فخافه الناس خوفاً شديداً ، وأمن بعضهم البعض الآخر .

حتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتي صاحبه فيأخذه . وحتى كان القوم يبيتون دون ان يغلق أحد بابه ..

وانتهت اخبار البصرة الى معاوية ، فقال لرجاله :

لم أكن مخطئاً حين وليت زياداً ، انه رجل يعرف اين يضع السيف ...

وجعل زياد شرطته اربعة آلاف ، وسيّر الحراس بين يديه بالحراب والعمد ، وأمر خمسمائة من رجال الجيش بأن لا يفارقوا المسجد .

فصلحت حال البصرة ، وطابت نفس معاوية من هذه الناحية ، وجعل يفكر في أن يجعل زياداً عاملاً له على الكوفة والبصرة ، في وقت واحد .

ولكنه لم يذكر ذلك لأحد ، ولم يحدث به الوزراء .

وكان يهم بأن يعزل المغيرة، الذي لمس ضعفه ، وثبت له انه يخاف حجر بن عدي ، الذي يسب عثمان ..

●

١٤

انتهى المغيرة الى دمشق ، ومعه بضعة رجال من قومه .

وكانوا يقولون له : نخشى ان ينتهي الأمر بينك وبين معاوية الى ما لا تحب ، أما هو فكان يقول : لو لم أكن واثقاً بأني سأحفظ الولاية لي ، لما خطر لي ان اجيء الى الشام ...

ونزل معهم في دار لأحد اصحابه ، لم يخرج منها إلا عندما جنّ الليل .

وكان قد سأل عن إخوان يزيد ابن الخليفة ...

فدلوه على أحدهم ، فأتاه فقال : أتستطيع ان تستأذن لي على الأمير يزيد ؟

قال : من أنت ؟ — إني من أهل العراق .. — وليس لك اسم ؟

فتردّد .. ثم قال : اسمي المغيرة بن شعبة . قال : عامل الكوفة ؟ —اجل.

— ان الأمير في مجلس امير المؤمنين وقد لا يخرج منه إلا إذا أذن له ابوه ، بعد الهزيع الثاني من الليل .. — والى أين ينصرف إذا خرج ؟

— الى جناح في الخضراء يقيم به .

— واقدر ان أراه الليلة قبل ان يستسلم الى الكرى ؟

قال : ألا تطيق الصبر الى الصباح .

— لا فالأمر خطير ، ومن الرأي ان أحدثه به قبل ان ادخل غداً على أمير المؤمنين . قال : سأمهد لك سبيل الوصول اليه قبل ان يغلق بابه ..

ثم قال : دلني على مكانك .   ـ إني في منزل صديق لي .. وسماه له .

فقال : ارسل الى الخضراء من يخبرك ان الخليفـة صرف جلساءه وخاصته ثم هد الي فترى الأمير .   ـ هنا ؟   ـ نعم هنا وستحدثه بما تشاء .

فانصرف المغيرة وهو واثق بنفسه ، ومؤمن بأن الغاية ستتم له .

ولم يتردد في إرسال رجل الى الخضراء .

وبعد بضع ساعات ، عاد ذلك الرجل وهو يقول :

لقد انصرف امير المؤمنين وخرج يزيد من القصر .

فمشى والي الكوفة الى ذلك البيت الذي يقابل فيه أميره .

وكان يزيد قد وصل قبله ، بدعوة من صديقه ورفيق لهوه .

فاستأذن ودخل ثم قال : السلام على مولانا الأمير ..

قال : وعليك السلام يا ابن شعبة . ما الذي أتى بك ؟

قال : خاطر خطر لي لم أستطع معه البقاء في العراق .

قال : خاطر حرب أم سلم ؟

قال : أما الحرب فقد خمدت نارها بعد تفرّق الخوارج ، وأما السلم فنحن من طلابه ولم نحارب قط إلا من شهر في وجهنا السيف .

ـ إذن فالأمر يتعلق بخبر انتهى الى الكوفة ...

ـ الأخبار كثيرة يامولانا الأمير ، فأيها عنيت ؟

ـ ذلك الذي تحدثت به الوفود ورددته الشفاه في دمشق ...

ـ ومع ذلك فأنا لاأعلم ماهو .

قال : ألم يخبرك الناس أن أمير المؤمنين أراد أن يجعل سعيد بن العاص خلفاً للمغيرة بن شعبة ؟ قالها يزيد وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف .

فأجابه مستغرباً : وهل خطر لأمير المؤمنين أن يعزل المغيرة ؟

ـ هذا ماسمعته منذ بضعة اشهر وقد قيل لي أنه كان يهم بعزلك يوم عزل ابن عامر عن البصرة ...! قال : انه خبر لم يجاوز الشام يامولانا وأمير الكوفة لايعلم ان هنالك سبباً يدعو الى هذا العزل ..

قال : ألم يبلغك أن امير المؤمنين غير راض عنك ؟..

– بلغني قوله لابن الكواء أنه غير راض عن حجر بن عدي ..

– وهذا معناه أن حجراً لم يرفع صوته في سب عثمان إلا عندما رأى أن امير الكوفة اضعف من ان يؤدبه ..

– ليس في الأمر ضعف كما يظن امير المؤمنين ، ولكني كرهت ان اضرب حجراً فتثور كندة ويحمل السيف انصار علي ... فقهقه ضاحكا ثم قال :

إذن فأنت تخاف انصار علي وتخشى ان تدافع عن الخلافة .

– بل أخاف ان أعكر على أمير المؤمنين صفو العيش ، وأدفع جيشه ، بسياستي الطائشة ، الى خوض الميادين . – ولكن الخليفة يرى غير ماتراه .

– ماذا يامولانا ؟

– يريد أن تخافه الشيعة فلا يرتفع لها صوت في ظل عماله .

قال : إذا أراد أن نضع السيف في الشيعة وضعناه ...

– لا أعلم ما الذي يريده اليوم فلك ان تسأله .

قال : خير لي أن استعفيه فينتهي الأمر ..

– ستمثل بين يديه غداً فتفعل مايطيب لك .. اذكر الآن ماقدمت لأجله .

قال : في الأمر سر أيها الأمير .

– في هذا المنزل تحفظ الأسرار فلا تكتمنا إياها ..

فخفض صوته قائلاً :

لقد ذهب أصحاب النبي وكبراء قريش ولم يبق غير أبنائهم .

– وما معنى ذلك ؟

– معناه انك انت أفضلهم وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسياسة والسنة ولا أدري مايمنع أمير المؤمنين من ان يعقد لك البيعة .

فأشرق جبين يزيد وجعل يقول : البيعة بولاية العهد ؟ – نعم .

– وهل ترى يا ابن شعبة ان الامر يتم لي ؟

قال : لا كان المغيرة ان لم يضمنه لك ..

– وعولت على أن تحدث به الخليفة ؟ – لقد قدمت من اجل هذه الغاية ولكني رأيت ان أبسط لك رأيي قبل أن أدخل عليه .

فأطرق يزيد وهو يفكر في هذا الاقتراح العذب ... ثم رفع رأسه قائلاً : سأرى أمير المؤمنين عند الصباح فأعيد عليه ماسمعته منك ثم تدخل انت بعدئذ فتسأله الرأي . – وتكون انت في مجلسه ؟

– اجل فيجب ان اسمع كل ماتقولان ..

وملأ الغرور عندئذ بردتيه ، فنهض وهو يقول : الى اللقاء غداً في الخضراء . وأومأ الى رفيق صباه بان يلحق به الى مجلس لهوه حيث ينتظره المغنون ..

•

١٥

كان معاوية في ذلك الصباح ، كثير التفكير أصفر الوجه ، يرى اصفراره جميع الذين خرجوا معه الى الصلاة ، وعادوا الى مجلسه .

وكانوا يعلمون ، ان هذا الاصفرار ، دليل حادث مفاجىء ، أو همّ يحمله من هموم الدولة . ولكنه لايلبث حتى يستعيد هدوءه ويخرج من لجة تفكيره زاهي الجبين ، مفتر الثغر . فالداهية مثل معاوية لايغرق في كأس ماء كما يقولون .

ورجال البلاط لم يتعودوا ان يسألوه عن همه بل هم لايجسرون على ذلك إلا إذا حدثهم بأمره ، وسألهم رأيهم فيما يعانيه .

وكان يزيد في ذلك اليوم ، أول من مثل بين يديه ، بعد الصلاة .

فقال له : لقد جئت الآن يابني تسألني قضاء حاجة لك ..

– بل جئت اقص عليك ماسمعته امس ، من رجل له مقامه في العراق ، ومنزلته عند أمير المؤمنين . قال : اذكر الرجل قبل ان تذكر ماسمعت .

– انه المغيرة بن شعبة والي الكوفة .

– المغيرة هنا ونحن لا نعلم ؟ انه آت إذن ، ليسمع باذنه ما قيل له عن سعيد

ابن العاص .   - يقول أنه لم يسمع شيئاً من هذا وقد خبرته أنا كل شيء .
- ماذا ؟   - خبرته ان أمير المؤمنين لم يكن راضياً عنه يوم نقلوا اليه ان حجر بن عدي يستغفر لعلي كلما لعنوه ...

لقد نقل اليه ذلك ابن الكواء فكأنك لم تقص عليه شيئاً .. وماذا قلت غير هذا ؟   - قلت انك هممت بعزله يوم عزلت عبد الله ..

فجعل معاوية يعبث بلحيته وهو يقول :

هذا خطأ يا بني ، فليس من الرأي ، من الناحية السياسية ، ان يطلع عمال الدولة على مايفكر فيه امير المؤمنين .. ألا تعلم ان هؤلاء العمال يستخفون بنا عندما يعلمون اننا هممنا بأمر وترددنا فيه . وسكت قليلاً ثم قال :

وماذا يظن المغيرة عندما تخبره بذلك ؟ سيقوم في ذهنه ان أمير المؤمنين لم يجسر على المضي في أمر العزل خوفاً من الفتنة او من أمر آخر فكأنك أعطيته سلاحاً جديداً يضمه الى ما عنده من سلاح الدهاء .

وبماذا أجاب ؟   - يقول انه سيستعفيك .

قال : كذب المغيرة فهذا القول قطعة من دهائه ... قل لنا الآن ما سمعت منه ؟   - لقد جاء ليحدثك بأمر ولاية العهد . فوضع يده على جبينه ثم قال : انه موقف سنستغله نحن قبل ان يستغله المغيرة .. هذه هي السياسة ، وهذا هو الدهاء وإنّا نعترف للمغيرة بالاثنين .. أتدري ما الذي يريده من اقتراحه ؟ انه يريد أن يخدع الخليفة ، ويخدر أعصابه ، فيستسلم اليه ، ويعدل عما يهم به من امر عزله..ولكن فاته أن الأمر يهتم له امير المؤمنين أكثر مما يهتم له سواه .. أجل ، سنصغي اليه ، ثم نعيده الى عمله ، ونأمره بأن ينظر ، وهو في الكوفة ، في امر البيعة ، ويمهد لها السبل في العراق ... ودعا حاجبه فقال : اخرج الى الرواق ، فاذا رأيت والي الكوفة في القوم فليحضر فقد أذنا له .

فانصرف الغلام ثم عاد قائلاً : لقد أقبل الساعة يا امير المؤمنين .

- دعه يدخل وامنع الناس .

وما هي إلا لحظة حتى دخل المغيرة ومعاوية يغتصب الابتسام اغتصاباً

ويحاول أن يخفي همه وراء مظاهر الهدوء .

وقد أحس المغيرة بذلك ، فسلم منحنياً له وليزيد ، فقال معاوية :

أهلاً بوالي الكوفة ، الذي يمرّ بيزيد فيحدثه بشأن من شؤون الدولة ، قبل ان يرى امير المؤمنين ... قال : خطر لي يا أمير المؤمنين ان ألمس بيدي هوى ولدك قبل ان اذكر لك أمر البيعة . – كأنك خفت ان يرفض يزيد ولاية العهد؟

– هذا ما خطر لي . – وماذا رأيت ؟

– رأيت هوى في النفس ، ورأيت الأمير اهلاً لما افكر فيه .

– ومن اوحى اليك بهذه الفكرة يا ابن شعبة .

– أوحاها اخلاصي لك ولآل بيتك .

– ولكنها فكرة جريئة تحدث في الاسلام حدثاً لم يسبقنا اليه احد ولم يخطر مثله للخلفاء . – حسب أمير المؤمنين ان يختار للخلافة بعده ، رجلاً يبعد مطامع الناس عن عرش المسلمين ... – نفعل ما فعله الخلفاء قبلنا ..

– ماذا يا مولاي ؟ – نختار رجلاً من غير أبناء معاوية ..

ولكن الناس لا يرضون ، إلا أن يكون الامير يزيد ، خليفة لهم بعد أمير المؤمنين ابيه .. – من هم هؤلاء الناس ؟

– انا أكفيك أهل الكوفة . – ثم ماذا ؟

– ويكفيك زياد اهل البصرة . – ثم ماذا ؟

– ثم لا يخالفك أحد في غير الولايتين اللتين ذكرت . – والحجاز ؟

– أما الحجاز ومصر فليس فيها من يرفع صوته كما تعلم ..

فتمتم قائلاً : قد يقوم في اقليم الشام نفسه من لا يرضى بهذا .

– الشام كلها في يد أمير المؤمنين .

فتظاهر بالتفكير ثم قال : ومع ذلك فقد يوجد بين امرائها من يطمع بالعرش .

– يقول الناس ، إن الذين يطمعون بالخلافة اربعة رجال من قريش يقيمون جميعهم بالحجاز وأنت تعرفهم كما اعرفهم انا .

قال : إنا معجبون بك يا ابن شعبة فأنت تعلم كل شيء ..من هم رجالك الاربعة؟

ـ الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر الخطاب ، وعبد الرحمن بن ابي بكر ، وعبد الله بن الزبير .. فابتسم قائلاً : وفي حمص رجل آخر أحبه اهل الشام وعظم شأنه عندهم هو عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ..

ـ وهل يطمع كما يطمع هؤلاء ؟

ـ من يعلم فقد يخدعه الناس ويدفعونه الى الامام .

ومرّت عندئذ موجة صفراء على جبينه .. فقال المغيرة: ماسمعت قط ان لعبد الرحمن هوى في هذا .. انه رجل شديد البأس وهواه في الحرب كما كان هوى أبيه.

ـ أجل إنه رجل حرب ، وهو اليوم يقاتل الروم ، وله شأن في جميع الميادين .. رجل حرب نعم ... ورجال الحرب يقتحمون المخاطر وتثب بهم المطامع الى لجة ليس لها قرار ...

فعرف المغيرة عندئذ ان معاوية يخاف عبد الرحمن من هذه الناحية ، فقال : إذا رفع الرجل صوته خفضته بسيفك !

قال : ما نبالي بصوته ، ولا نعبأ باصوات الآخرين .. ولكنا نريد ان ننظر في الأمر من جميع نواحيه قبل ان ينتشر الخبر في الاقاليم .. أي عذر نعتذر به يا ابن شعبة اذا فعلنا هذا ؟ ـ لقد رأيت يا أمير المؤمنين ما كان من سفك الدماء بعد عثمان ، فاعقد للأمير يزيد ، فان حدث بك حادث ، كان ابنك كهفاً للناس وخلفاً ، لا يسفك دم ، ولا تكون فتنة ...

ـ وماذا تصنع بحجر بن عدي ؟ فتجلد قائلاً : ان خوفي من الفتنة التي ذكرت، أملى عليّ أن اغض الطرف عن حجر ، ولكني نهيته ..

ـ ومع ذلك فهو يفعلها كل يوم . ـ لم يخطر لي يا امير المؤمنين ان أضع السيف في كندة من أجل كلمة يقولها ابن عدي .. وقد يكون ذلك خطأ في السياسة فانا من أجل هذا الخطأ أتيت لاستعفيك .

قال : ذكرت هذا ليزيد امس ، وتذكره لنا الآن .. إن في هذا القول ضعفاً يا ابن شعبة لانرضاه لك .. ـ وأين هو هذا الضعف يا أمير المؤمنين ؟

قال : أرأيت أن امير المؤمنين يستعمل رجلاً لايثق به ؟

– لا .   – وهل رأيت أن الولاة لا يثقون بالخليفة الذي ولاهم ؟

– لا .   – أما نحن فقد رأينا واحداً من هؤلاء الولاة هو انت .

– انا ؟   – أجل .   – وكيف ذلك ؟

– سنقول لك كيف ذلك .. لقد سمعت من الناس أن الخليفة يريد أن يجعل سعيد بن العاص عاملاً له على الكوفة ، فصدقت ما قيل لك وجئت الآن تتخلى عن الولاية دون أن تسألنا عما سمعت .. أتعرف معنى هذا ؟. معناه أن ثقة أمير الكوفة بأمير المؤمنين قد ضعفت بل كادت تتلاشى ..

ونظر اليه نظرة رضى والابتسامة على شفتيه ..

فقال : لقد سألت الامير امس فخبرني أنك همست بعزلي وهذا يكفي .

فضحك قائلا : ولكن الامير الذي خبرك ذلك امس ، قال لنا اليوم أنه اراد أن يجرب دهاء المغيرة بن شعبة فنقل اليك ما لا صحة له .. ألم تقل لنا هذا يا يزيد ؟   قال : بلى يا امير المؤمنين ..!

قال : وكيف تريد أن لا اصدق ما يقوله ابن الخليفة ؟

– كان عليك أن تقول له : إن الخليفة يثق بي وأثق به فهو لا يعزلني عن الكوفة إلا اذا حدثني بأسباب هذا العزل . – اذن كان ابن الكواء كاذباً فيما ذكره لي .   – ماذا ذكر ابن الكواء ؟

– قال إن الغضب على حجر بن عدي يملأ صدرك،وقد سألت سعيد بن العاص رأيه في سكوتي عنه ، أي عن حجر .

– هذا صحيح ، ولكن نسي ابن الكواء كلمة اخرى قلناها وابن العاص حاضر ... قلنا أن المغيرة يرى،وهو في الكوفة ، ما لا يراه امير المؤمنين ، وهو في دمشق ، وفي هذه الكلمة وحدها بيان لابن العاص ...

اذن فأنت لا تريد أن اترك الكوفة .

– بل لا نريد أن نفكر في هذا ولا يخطر لنا أن ننحيك عن الامارة،ما دمنا على هذا العرش .!   – وحجر بن عدي ؟

– افعل مع حجر ما يطيب لك ، على أن تكون شديداً عند الشدة ،وحليماً

عندما ترى وجهاً للحلم !!

قال : خير لي يا امير المؤمنين أن تأمرني بواحد من امرين ، إما أن أضرب حجراً ضربة لا يرتفع بعدها صوت لقومه ، وإما أن أنهاه بالحسنى عمّا يفعل .

فذكر معاوية في تلك الساعة البيعة ليزيد ، فقال :

الرفق أولى .. ولكن أيبايع بنو كندة ولدنا هذا بولاية العهد ؟

— يبايع بعضهم ويتنحى البعض الآخر دون ان يكون له شأن .

— وهل حدثت وجوه الكوفة بالأمر ؟

— وكيف افعل قبل ان اسألك الرأي .

قال : ستحدثهم بعد رجوعك فترى ونرى ..

قال : اضمن لأمير المؤمنين ان اهل الكوفة سيكونون اول من يهتف لولي العهد يوم المبايعة . — واهل البصرة ؟ — لك ان تستشير زياداً ..

قال : لاتخاف شيئاً وعلى البصرة رجل مثل زياد .. اما انت فلا تتردد في ارسال اخبارك بعد شهرين .

— سأجعل امر البيعة أول عمل لي وستعرف كل شيء .

قال · أيطيب لك ان تمكث بدمشق بضعة ايام ؟

- لا يا أمير المؤمنين فالرجوع خير من البقاء وسأرحل غداً ..

قال : اكتم الناس جميعهم ما حدثناك به ولا تقل لأحد اننا ذكرنا لك عبد الرحمن بن خالد ، ثم قال : سنأذن للناس الآن فهل يطيب لك ان تبقى ؟

ــ أؤثر ان اخرج الى المدينة فأقضي فيها يومي.

فقال: ياغلام، ليدخل الناس. فنهض المغيرة فودعه وخرج وهو يقول في نفسه:

لقد كنت أدهى من معاوية .. وكان معاوية يقول ليزيد :

كنا أولا فرسي رهان ثم غلبناه .. قال : بماذا ؟

قال : ولاية العهد اعظم شأناً من ولاية الكوفة ، فليبق والياً وليمهد لنا سبل البيعة التي هي دعامة العرش .. ودخل الناس عندئذ ، فانصرف معاوية الى

النظر في امور شعبه،وهو يفكر في امرين اثنين ، احدهما ولاية العهد ، والآخر أمر رجل من وجوه الناس وعظمائهم يقيم بحمص .

•

١٦

قبل أن يدخل معاوية منزله عند غروب الشمس، دعا وزراءه وخاصته فقال لهم : نبوح لكم الآن بسر خطير لا نريد أن يعرفه احد غيركم مهما يكن شأنه .

فقال احدهم : ما كنا لنبوح بأسرار الدولة يا امير المؤمنين .

ـ نعلم ذلك ولكن سرنا الحاضر اعظم هذه الاسرار ..

فاستووا في مقاعدهم ، ومدوا اعناقهم ليسمعوا ما يقول .

فقال : أرأيتم والي الكوفة في دمشق اليوم ؟

ـ رأيناه في مجلس امير المؤمنين هذا الصباح .

قال : لقد جاء يعرض علينا أن ننظر في امر المبايعة بولاية العهد فمن كان له رأي في ذلك فليذكره الآن . ـ الرأي رأيك ولكن يجب أن تستوثق .

ـ ممن ؟ من جميع الامراء الذين لهم مقامهم في الامة .

ـ يكفينا المغيرة اهل الكوفة، وزياد اهل البصرة، ونحن لانجد في غير هذين الاقليمين من يخالفنا في امر .. ـ وهل سألت زياداً ؟

ـ سنكتب اليه الساعة فهل يظن أحدكم ان في الحجاز واليمن ومصر والشام من يأبى ان يبايع ؟ فأجابه سرجون قائلا : انت تعلم يا امير المؤمنين أن في الامة طائفة كبيرة تأبى ذلك وتكيد الخليفة من وراء الستار ، فاذا اردت أن تدعو الناس الى البيعة ، في هذا الزمان ، فاسبر غور المسلمين في جميع الاقطار ، وأرسل من يحمل اليك آراء العمال والأنصار .

ـ لم يخطر لنا ان ندعو الناس اليوم ، ولكن نقرأ افكارهم ونبدأ بزياد ،

اكتب ياسرجون : وكان سرجون ، كاتبه ووزيره ، وصاحب امره ، فكتب الى زياد :

إذا أتاك كتابنا فاستشر من تشاء من وجوه البصرة في أمر البيعة ليزيد وتعجل في الجواب . ثم قرأه سرجون بصوت عال فقال معاوية لحاجبه :

ادع المختار . والمختار رجل من الموالي جعله معاوية قائداً لحرسه .

فأقبل،فقال له الخليفة : نحتاج الى رجل صادق من رجال الحرس .

فعرف ان هنالك رسالة لها شأنها ، فقال :

أيريد امير المؤمنين ان يحمل الرجل رسالة له ؟

ـ اجل يحملها الى البصرة على أن لا يراها احد سواه .

ـ وتأمر بأن يترك دمشق الليلة ؟

ـ بل يتركها عند الفجر دون أن يعلم الناس الى اين يذهب .

ـ اعطني الرسالة يا مولاي . ـ تأخذها من سرجون عندما يتهيا الحارس للرحيل . وأومأ اليه بان ينصرف . ثم اطرق ساعة وشفتاه ترتجفان ، والوزراء لا يقولون كلمة . ثم قام فخرج وأمر سرجون بان يلحق به ، وتقدمه الىاحدى القاعات ثم هامسه قائلاً :

ألم تسمع شيئاً عن عبد الرحمن بن خالد ؟

ـ لقد كان في بلاد الروم يا امير المؤمنين .

ـ نعرف ذلك ، وهل ورد علينا شيء من أخباره ؟

ـ ورد في بريد اليوم انه عاد الى حمص . فبرقت عيناه وجعل يقول : عاد الى حمص ... ولم ينثر اهل حمص الأزاهير على رأسه ؟

فتردد سرجون في الجواب ثم قال : ان اهل حمص يحبونه ، ويستقبلونه ، عندما يعود من سفر ، كما يستقبلون القائد الظافر الذي يشرف قومه ..

فهز رأسه قائلاً : لايفعل ذلك اهل حمص وحدهم بل يشاركهم فيه طوائف كثيرة من أهل الشام . قال : أراك تذكر عبد الرحمن ياامير المؤمنين والغضب في عينيك ...

ـ أجل ، وهل يطيب لأمير المؤمنين ان يعظم شأن عبد الرحمن في الشام ، ويميل الناس اليه منصرفين عن الخليفة ؟

ـ ومن يجسر من أهل الشام ، على أن يعظم شأنه والخليفة وآل بيته احياء؟

ـ يجسر على ذلك ، اولئك الذين يعرفون آثار أبيه ، خالد بن الوليد ، ويطمعون بعطائه ، وهم كثار في هذا القطر . ـ وهل تخشاه يامولانا ؟

ـ نخشى ان يمسي مرجعاً للقبائل النازلة في الشمال الشرقي ، وان يبعد صوته ويمتد نفوذه حتى ينتهي الى دمشق !!

قال : يسهل على أمير المؤمنين ان يخفض صوته ويقضي على نفوذه ، بكتاب صغير يكتبه اليه . ـ وماذا نكتب ياسرجون ؟

ـ هذا ما تكتبه اليه : من أمير المؤمنين الى عبد الرحمن بن خالد ،

أما بعد فنأمرك بأن تترك حمص وتسير الى اليمن فتمكث بها حتى يأتيك أمر آخر .. ، تكتب اليه هذا يا أمير المؤمنين فينتهي كل شيء .

فأجابه هازئاً : لو رفعك القدر ياسرجون الى عرش من عروش بني قومك لما استطعت ان تصون ملكك يوماً واحداً . ـ ولماذا يا أمير المؤمنين ؟

ـ لأن هذا الكتاب الذي تشير علينا بـه ، نفي صريح تضطرب له نفوس المخلصين لعبد الرحمن وتكثر بعده الاقاويل .

ـ إذن فاجعله عاملاً لك على اليمن .

قال : يظهر أنك تريد ان يعظم شأنه في بلاد اليمن كما عظم في بلاد الشام فيكثر انصاره في الناحيتين ويذهب له صيت وذكر .

قال : مره فيحضر الى دمشق . ـ وإذا حضر ؟

ـ نجعله من الخاصة او قائداً للحرس . ـ أو نجعله من الوزراء يروح ويجيء في البلاط ويفسد علينا كل مانصنع ، أهذا هو الرأي ؟

قال : لقد رأيت الآن رأياً آخر . ـ ماهو ؟

– هو ان توليه المدينة فيعيش هنالك بين اعدائك ، وتجعل مروان بن الحكم والي المدينة ، عاملاً على حمص .

قال : ألم يكفك يا سرجون ان في الحجاز ابن الزبير وابن عمر ، وابن ابي بكر ، وأبناء علي حتى تقويهم وتشد ازرهم بعبد الرحمن ؟ إنك ضيعت دهاءك ولم يبق لي إلا ان انظر في الأمر وحدي دون ان يكون لك رأي فيه ...

قال : اقذف به الى بلاد الروم .

قال : ألا تراه يخوض صفوف الروم ثم يرجع ولواء الظفر يخفق فوق رأسه، وأهل تلك الناحية من الشام يلقبونه بالفارس الذي لايغلب ؟

فوضع رأسه بين يديه ليخلق للخليفة رأياً آخر ، فلم يجد ، فقال : أعترف لك يا أمير المؤمنين بأني لم أرَ غير هذا .. قال : أعجزت ؟ – نعم .

– وكيف خطر لنا ، ونحن من تعلم ، أن نجعلك كاتبنا وصاحب أمرنا والرجل الأول في الخضراء بعد يزيد ؟

قال : عندما أحاطني أمير المؤمنين بنعمته كنت شيئاً .. أما الآن فأنا لاشيء وخير لك ان تبعث بي الى الغوطة احرث الأرض التي وهبتها لي ..

فضحك قائلاً : سنفعل ذلك ولكن في وقت آخر ، ثم قال : أين يقيم الآن ابن أثال ؟ – في حمص . – ولم يزل صديقاً لك ؟

– نعم وهو من المخلصين لأمير المؤمنين .

قال : كنا نراه دائماً في الخضراء ، أما اليوم فقد مرّ أكثر من شهر ونحن لانرى له وجهاً .

– إنه في دمشق يامولانا وقد قدمها عند العصر .

– وتقول إنه من المخلصين للخلافة ؟

– أجل ، وقد ذكر لي غير مرة أنه يبذل دمه في سبيل أمير المؤمنين .

قال : أرسل من يدعوه الى هذه القاعة الآن .

قال : أخشى ان يأمره أمير المؤمنين بقضاء أمر لا يستطيع أن يقضيه .

– يكفي أن يكون مخلصاً ..

فأيقن سرجون بان في الأمر ما فيه فقال : ولكنه جبان .

– نحن لانأمره بان يشهر السيف..ولكننا نعلم ان له خبرة بطبائع النبات .. قل لغلامك ان يأمره بالمجيء . فخرج سرجون ليرسل من يدعو الرجل وهو يردّد في سره : لقد قضي عليك ياعبد الرحمن .

ثم جاء ابن أثال بعد لحظة ،وهو من النصارى ، وكان يحب سرجون ومعاوية كا يحب نفسه ، فقال له الخليفة : اغلق الباب واجلس .

ففعل وهو ينظر الى الأرض ولا يقول كلمة ، ثم قال معاوية : متى قدمت من حمص .

– جئت مع البريد يا أمير المؤمنين .

– ورأيت عبد الرحمن بن خالد يوم رجوعه من أرض الروم ؟

رأيته وهو في موكبه والحراس والغلمان بين يديه ، والناس يعظمونه ويهتفون له كأنه امير المؤمنين ...!

فقال وشفتاه ترتجفان : يفعل ذلك اهل حمص كل مرة .

– ويشاركهم فيه رجال القبائل النازلة في البادية وهم على الخيل والرماح في الايدي ، كأنهم فرسان عبد الرحمن . – ولا يذكرون الخليفة ؟

– اذا هتف احدهم ذاكراً الخليفة ضاع صوته ..!

– فترى الناس في حمص يميلون اليه ويذكرون فضله وفضل ابيه ؟

– نعم يا امير المؤمنين ، انهم يحبونه ، وتجيء اليه وفود العرب كل يوم تحمل الهدايا وتسأله قضاء الحاجات . – وكيف يعودون ؟

– يعود الجميع وهم يرددون الفاظ الشكر !

قال : صف لنا منزله يا ابن اثال .

– اذا وصفت منزل الرجل فكأني أصف الخضراء .. قاعاته وأروقته تغص بالقوم ، وفي مجلسه وجوه العرب وأمراء العشائر والسادات ، والغلمان والمماليك يطعمون الناس ويحملون اليهم عطاءه . – واذا جلس للمظالم ؟

– ترى الناس جميعهم ينصتون الى اقواله ، وينصرفون ،عندما يأذن لهم ،وهم

راضون بأحكامه ، مؤمنون بعدله !

وكانت هذه الالفاظ التي يرسلها ابن اثال ، ناراً تتأجج في صدر معاوية ، وابن أثال يعرف ذلك ، وهو يزيد النار ضرماً وسعيراً من أجل غاية له .

أجل ، إن عبد الرحمن لم يقرّب ابن أثال اليه ، ولم يخصّه باحسانه ، بل آثر عليه من أهل حمص ، طائفة كبيرة وفر لها المال بفضل عطاياه .

ومثل ابن أثال لا ينسى الاساءة ولا ينسى الاحسان .

وقد ساعد الحظ معاوية ، والقت الاقدار بين يديه ، عدواً لعبد الرحمن يستخف بالمخاطر في سبيل القضاء عليه .

وكان الغضب قد ملأ نفس الخليفة ، فقال : — أتشهد مجلس ابن خالد ؟

— ادخل مع القوم عندما يخطر لي أن اسمع شيئاً .

— ويعطيك كما يعطي الآخرين ؟ — لا ، بل هو يضيق عليّ في دفع الخراج.

— وخراجك كثير ؟

— نعم فأنا من فضل امير المؤمنين املك ارضاً واسعة . انفق من غلتها ، وأستعين بما بقي من هذه الغلة ، على جور الدهر .

فأشرق جبينه قائلاً : اذن يطيب لك أن تنجو من ظلم عبد الرحمن .

ـ وكيف انجو منه يا مولانا ، وهو الغني القوي ، وابن القائد العظيم الذي فتح الفتوح للاسلام ، وأنا الفقير الضعيف الذي اعالج الارض ونبات الارض لأعيش !؟

ـ يتم لك ذلك بشيء من الحيلة ، والقليل من الدهاء .

ـ وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ ـ قيل لنا أنك خبير بطبائع النبات .

ـ نعم . ـ وهل تعرف احداً من غلمان عدوك ؟ ـ اعرفهم جميعاً .

ـ وبينهم واحد من الروم ؟ ـ بينهم ثلاثة من هؤلاء مخلصون لي .

ـ اذن فالقدر عبد لك يا ابن أثال ، تصنع شربة فيها سم ثم تدسها مع غلام لعبد الرحمن فيشربها فيموت ، وهذا خير ما تلجأ اليه في مثل هذه الحال .

فاضطرب قليلاً ثم قال : القتل هيّن يا امير المؤمنين ولكن يجب أن ننظر فيما يحدث بعده .. ـ وماذا يحدث ؟

ـ يعرف القوم في حمص أني قاتل عبد الرحمن فتسوء العاقبة ..

قال : ويلك ، تقول هذا وتنسى أن امير المؤمنين هو الذي يأمرك بقتله، وهل يخطر لك أننا لا نستطيع ان نحميك اذا ظهر السر ؟.. قل انك جبان ولست اهلاً لحب الخليفة وثقته بك ...

قال : تحميني من السيف يا امير المؤمنين ولكن يبقى ... ـ يبقى ماذا ؟

– إني غريب في حمص وقـد يحملوني من الخراج مالا اطيق حمله فيضيع مالي وأخسر كل شيء .. فعادت الابتسامة الى شفتيه الصفراوين ، وجعل يقول : إذا خسرت مالك فأمير المؤمنين أعجز من ان يعطيك بدلاً منه . اسمع يا ابن أثال ، لقد وضعنا عنك خراجك ما بقيت ..

فحنى رأسه ولم يجب ، وكأنه كان يطمع بشيء آخر .

فقال معاوية : وما نكتفي بهذا بل نوليك خراج حمص .

قال : حسبي أنك راض عن عبدك يا امير المؤمنين .

– وسنفي لك بما وعدنا ، عندما ينتهي الى دمشق خبر ابن خالد .

فتمتم قائلاً : سأفعل .

– ولكن احذر ان تخرج من فمك كلمة تفضح السر ..

– إن الموت خير من الفضيحة .. أتأمرني بالرجوع غداً ؟

– اجل ، وهذا سرجون يعطيك بعض المال تعالج به أمرك .

وهمّ بالانصراف ، فقال الرجل : أهذه آخر كلمة تقولها لي ؟

– نعم ، وليس لك أن تسألنا سؤالاً إلا بعد ان تفعل ماأمرناك به .

وخرج ، وسرجون ساكت ، فقال ابن اثال : ألا ترى رأياً ؟

– لو كان لي رأي في هذا لما ترددت . ـ وهل تنصح لي بأن امضي في امري؟

قال : أمجنون انت ؟ تطلب الي ، بعد أن تم الرضى بينك وبين امير المؤمنين ، ان انصح لك بما تصنع ؟ إن الامر قد انتهى الآن فكن ذلك الرجل الداهيـة ، الذي لا تعلم يسراه ، بما تفعله يمناه .. ودخـل بيت المال فأعطاه ما يستعين به ، ولم يلبث حتى ودعه قائلاً : الى اللقاء ، ولم يزد كلمة .

فانصرف ابن أثال وهو يفكر في ذلك الامر الرهيب الذي ندب اليه ، وفي ولاية الخراج التي سيكون له بعدها المقام الرفيع ...

●

١٧

عندما رجع المغيرة الى اصحابه قالوا له : ماذا صنعت ؟

قال : وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على امة محمد وفتقت لهم فتقاً لايرتق ابداً . — وما ذاك ؟

قال : لا والله لا أقول شيئاً حتى اقدم الكوفة .

فلما رجع اليها ، دعا اليه من يثق به من القوم ، ومن يعلم أن هواه في بني امية وقال لهم: يريد أمير المؤمنين ان نعد العدة لمبايعة يزيد في ولاية العهد فماذا ترون ؟

فقال أنصار الامويين : ليس هنالك شيء احب الينا من هذا .

فقال لقومه : وانتم ؟ — أما نحن فنفعل ما تفعله انت .

قال : ليس لنا إلا ان نبايع فنحقن دماء المسلمين بعد موت الخليفة .

— ومتى تكون البيعة ؟

— لا أعلم فهذا أمر ينظر فيه امير المؤمنين وحده ، ثم قال : سنختار وفداً منكم نبعث به الى دمشق . — وماذا يصنع فيها ؟

— نوصيه بما يقوله فيعلم معاوية ان أهل الكوفة أنصار له . وانها لسياسة تجعلكم من المقربين .. فقال احدهم : الوفد يحتاج الى المال ...

— سنعطيه ثلاثين ألف درهم توزع على رجاله .

— إذن لم يبق إلا ان نختار هؤلاء الرجال .

— وعددهم ؟ — هذا أمر يعود اليك .

فاختار عشرة منهم ، ويقول بعض المؤرخين انه اختار اربعين رجلاً جعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وأوصاهم بما يقولون . فخرجوا وهم يحملون المال الذي

اشتراهم به ، حتى انتهوا الى دمشق ، فدخلوا على معاوية وعنده الوزراء .
فقام خطيب منهم يقول : أتيناك لنطلب اليك أن تنظر في أمر المسلمين ..
فتجاهل قائلاً : قضينا حياتنا كلها ونحن ننظر في هذا الأمر . ماذا عنيت بقولك ؟ — عنيت امر الخلافة بعدك فقد كبرت سنك يا أمير المؤمنين .
— وماذا تريدون ؟ — نريد ان تنصب لنا علماً وتجعل لنا حدّاً ننتهي اليه .
— أشيروا علينا . — نشير بيزيد ابن امير المؤمنين . — أو قد رضيتموه ؟
— نعم . — وذلك رأيكم ؟ — نعم ورأي من وراءنا .
فهامس موسى قائلاً : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟
قال : بثلاثين الفاً .. قال : لقد كان دينهم رخيصاً ، ثم قال : لا تعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فنحن سننظر فيه ويقضي الله ما أراد والأناة خير من العجلة ..

وقضى الوفد في دمشق ثلاثة ايام ، دون ان يحدثه معاوية بالأمر ، غير المرة الاولى التي قرأت . ولكن عزمه قوي على البيعة ليزيد ، وأقام ينتظر جواب زياد ، وكان رسوله قد انتهى الى البصرة ، بعد رجوع المغيرة الى الكوفة .
فدعا زياد عبيد بن كعب النميري وهو من مستشاريه ، وقال له : إن امير المؤمنين كتب اليّ يستشيرني في أمر البيعة لابنه يزيد فما ترى ؟ قال : هات أنت .
قال : يخيل اليّ ان معاوية يخاف نفرة الناس ويرجو طاعتهم ، ويزيد صاحب شدة وولع باللهو والصيد ، فأرى ان تلقى امير المؤمنين ، وتذكر له ما تعلمه عن ولده ، وتنصح له بأن لا يتعجل في الأمر . — أفلا ترى غير ذلك ؟
— ماذا ؟ قال : لا تفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه .
— ونساعده في أمر البيعة ولم تأتِ ساعتها . — بل نفعل غير ماتقول .
— قل فأنا أريد أن ابعث جوابي .
— أذهب انا الى دمشق وأسير الى يزيد قبل أن ارى معاوية فأخبره ان أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وأنك تخشى خلاف الناس عليه لهذا اللهو الذي اشتهر أمره ، وأنصح له باسمك ، بأن يترك لهوه ، لتستحكم له الحجة

ويتم له الأمر . ـ وبعد هذا ؟

ـ تسلم بعد هذا مما تخاف من امر الامة وتكون قد نصحت امير المؤمنين باخلاص وصدق .

قال : صدقت فاذهب على بركة الله ، فان أصبت فقد انتهى الامر وإن يكن خطأ فحسبك أنك فعلت ذلك وأنت من المحبين ويقضي الله ما يشاء . فقام عبيد فركب حتى اتى دمشق . واستأذن على يزيد فذكر ذلك له ، فقال يزيد وهو هادىء : اذا كان اللهو الذي تحدثني به يمنع الناس من المبايعة فأنا اكف عنه .

قال : سيكون لهوك عذراً لهم اذا امتنعوا .

ـ اذن فقد تركته ، وتستطيع أن تقول لزياد أن هذا اللهو ستضمحل آثاره .

قال : لم يبق إلا أن أرى امير المؤمنين .

وقام فدخل عليه ، فقال معاوية : عبيد بن كعب ؟

ـ نعم عبيد بن كعب كما ترى يا مولاي . ـ وآت من البصرة ؟

ـ وآت من البصرة .. قال : نسألك عن زياد ..

ـ اني رسوله إليك يا امير المؤمنين . ـ وتحمل كتاباً منه ؟

ـ أجل وهذا هو .

فتناوله معاوية واذا هو لا يزيد على سطرين وقد جاء فيهما :

أتاني كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه يذكر لي البيعة ليزيد فأنا أشير بالتؤدة وعند عبيد بن كعب الخبر اليقين ، فقال : ما خبرك يا عبيد ؟

ـ أأذكر كل شيء يا مولاي ؟

ـ إن امير المؤمنين لا يكتم خاصته شيئاً . أجل اذكر كل شيء وأعد علينا ما حدثك به زياد ..

قال: كنت الآن عند الامير يزيد، وقد نقلت اليه ما أوصاني به أمير البصرة .

ـ وبماذا اوصاك ؟ ـ بأن اطلب الى الامير أن يكف عن لهوه .

ـ ووعدك بهذا ؟ ـ نعم يا مولاي وقد وثقت بوعده .

ـ وأي رأي لك في أمر البيعة ؟ ـ ارى ما يراه زياد وأنا أرجو أن لا تعجل ،

قال : قبلنا ذلك منك ومن زياد وسنصبر حتى تشيروا علينا بأن نفعل .. أيسود الهدوء الكوفة اليوم ؟

– ومن يجسر في الكوفة على رفع صوته والسوط سوط زياد والسيف سيفه، وصاحب الشرط يطوف في النهار والليل باحثاً عن السفهاء ..

قال : بارك الله في زياد فقد استعاد في البصرة هيبة الخلافة ثم قال : قل لزياد أن أمر البيعة قد انتهى الآن ولكن يجب ان يذكر دائماً أننا سندعو الناس اليها في زمن آخر فليعد لها العدة وليمهد الاسباب ..

قال : أتستطيع يا أمير المؤمنين أن تعين هذا الزمان .

– لا يستطيع ذلك غير الله .. إن الخليفة من هذه الناحية لا إرادة له ... الارادة للأمة وحدها فهي التي تطلب الينا أن تبايع رجلاً ترضاه .. وكأنه أراد أن يقرأ الاسرار من وراء الستار،فقال : لو سألناك الآن عن ارادة اهل البصرة فبماذا تجيب ؟

– بماذا اجيب يا مولاي وأنا لم احدث احداً ولم يعرف القوم أنك كتبت الى زياد تسأله رأيه .

– اذا كنت انت لا تستطيع أن تجاوب عن هذا لأنك لم تسأل احداً فكيف يستطيع الخليفة أن يعين زمان البيعة ، وهو لا يعرف رأي المسلمين في ذلك ؟؟ إن في الصبر نيل الارب فلنصبر ونحن متكلون على الله .

وسكت قليلاً ثم قال : من في البصرة من رجال الرأي والجاه ؟

– اعظم الرجال جاهاً وأصدقهم رأياً الأحنف بن قيس .

– صدقت انه لكما تقول ولكن كان هواه من قبل في علي وقد شهد معه صفين . – كان كذلك ياأمير المؤمنين . – واليوم ؟

– اما اليوم فقد اعتزل السياسة وانصرف الى النظر في امر عشيرته كأنه لم يشهد الحروب ولم يعالج السياسات .

– وهل تظن انه يقبل بالبيعة التي نهمُّ بها ؟

– يخيل إليَّ انه يقبل فعهد علي قد انقضى الآن ، ولم يبق إلا أن يخضع لأمير

المؤمنين ، خضوعاً لارياء فيه .   – وهل يحب زياداً ؟

– لا أراه كثيراً في قصر زياد ولكني أعلم انه ليس بين الاثنين جفاء .

قال : احفظوا منزلته فالخلافة تحتاج الى مثله .

– إذا أراد امير المؤمنين ان يكتب الى زياد شيئاً من هذا فليفعل .

– نوصيك بان تقول له ذلك وهذا يكفي وليذكر زياد دائماً ما أمرناك بان تقوله له ... وهو يعني أمر المبايعة .

وكانت ساعة الصلاة قد أتت ، فصلى عبيد معه ثم سأله ان يأذن له في الرجوع ، ففعل . وقد علم معاوية ان البصرة والكوفة ستسبقان الأقاليم كلها الى الاعتراف بيزيد ولياً للعهد .

●

١٨

مرّ من السنة السادسة والأربعين نصفها ، وابن أثال يفكر في القضاء على عبد الرحمن ، والأمر لايتم له . وكان يدخل القصر ، ويظهر الاخلاص والوفاء ، لذلك الرجل الكبير البريء ، الذي حكم عليه معاوية بالموت .! حتى أصبح عبد الرحمن يوماً وهو محموم ، ولم تكن حماه ضيفاً ثقيلاً ، بل كانت حمى خفيفة الظل ، تجيء عند الصباح ، وترحل في صباح اليوم الثاني .

ولكن اهل بيته وغلمانه ، أحاطوه بالعناية ، وجعلوا يعالجونه بما يعلمون ، وبما يشير به الأطباء . وعرف ابن أثال كما عرف الناس ، فأقبل الى غلام لعبد الرحمن ، يسأله عن مولاه ، والهم ظاهر في عينيه ...

فخبره الغلام بامره ، فقال : سيشفيه الله غداً في مثل هذه الساعة ..

– ومن اين لك ان تعلم ذلك ؟

– أعطيك دواء تسقيه إياه في أول الليل فيستسلم بعد ساعة الى نوم لذيذ هادىء لاتزعجه فيه الآلام والأحلام ..

– وأقول له إن هذا الدواء مرسل منك ؟

– بل تقول ان طبيباً عربياً اعطاك إياه . – لماذا ؟

– لأني لست من الأطباء وقد يظن مولاك اني لا أحسن وصف العلاج فلا يأخذه منك .. – وأنت واثق بان حماه ستزول ؟

– أثق بذلك كما أثق بأنك من الأوفياء .

قال : لقد فكرت في أمر هو أن أرى خالد ابن مولاي فأعطيه دواءك وهو يتولى أمر أبيه .. فابتسم قائلاً : إذا فعلت ذلك قتلت عبد الرحمن .

– وكيف أقتله ؟

– إن ابنه خالد لا يحبني فهو يحوّل عني وجهه كلما وقعت العين على العين وأنا لا أدري لماذا ، فاذا حدثته بأمر العلاج قذف به الى الخارج فتقتل الحمّى أباه قبل أن يبزغ الفجر .

– إذن أتولى الأمر بنفسي ويفعل الله مايشاء .. ولكن عد اليّ عند المساء ..

– سأفعل عندما يجن الليل .

فانصرف وهو يقول في نفسه : إذا صدق الغلام مات الأمير الليلة فالسم الذي وضعته له لا يحب المزاح . وعندما سدل الليل ستاره ، رجع الى القصر وقال للفتى : تستطيع أن تفعل الآن .

فمشى الغلام ، وذلك الدواء القاتل في كمه ، حتى انتهى الى حجرة عبد الرحمن ، وفيها سراج ينظر الأمير الى نوره الضعيف .

فقال : كيف أمسيت يا مولاي ؟

– كما ترى ، إن هذه الحمّى تعوّدت أن تزورني كل اسبوع او كل شهر وأنا في بلاد الروم دون ان أبالي بها او اهتم لأمرها .. أين ولدي خالد ؟

– خرج الى المسجد وسيعود .

ومد يده فأخرج الدواء ، فقال الأمير : ما هذا ؟

– انه دواء طبيب . قال : لا تذكر لي هؤلاء الأطباء فأنا لا أثق بنباتهم .

– ولكنه دواء شاف تهرب الحمى منه بعد ساعة .

– بل تهرب العافية .. خذه فلا حاجة لي اليه .

– استحلفك بالله يا مولاي أن تشربه فأنا واثق بأنك ستغادر فراشك عند الصباح .. – من يعلم فقد أغادر هذه الدنيا وأسير الى الله ...

فلج الغلام في الطلب حتى لان الأمير ، فقال : أعطني إياه .

واستوى جالساً ، ثم وضع الوعاء على شفتيه وجرع ما فيه جرعة واحدة ثم استلقى وهو يقول : إنه شديد المرارة فاسقني ماء .

فسقاه ، وقد قام في ذهنه ، أن دواءَه المرّ سيطرد الحمى القاسية . وأغمض عبد الرحمن عينيه . ليمزق السم امعاءه بهدوء ..

فخرج الغلام وخبر ابن أثال فقال : قضي الأمر وسينام مولانا نومه الهادىء .

وبعد ساعة ، رجع آل عبد الرحمن وبينهم ولده خالد . وكان الأمير يقيء مافي جوفه ، وقد عقد السم لسانه فهو يتململ متألماً ويومىء الى أحشائه التي تلتهب .

فذعر القوم ، ولكن هذا الذعر ما لبث حتى أمسى لوعة .. فقد لفظ الأمير روحه دون أن يكون هنالك من يعلم ، أن ابن أثال أرسل اليه الموت ، في وعاء..

وبكت العيون عبد الرحمن ، ورثته حمص ذليلة مفجوعة وكانت تعلم انها تبكي بطلاً له ولأبيه الأثر الذي لا يبلى ، وذكره يملأ بلاد الروم .

ولو نظرت الى الصفوف التي شيعت جثة القائد الى القبر ، لرأيت بينها ابن أثال ، وفي عينيه دموع كاذبة قد تجدها في عيون بعض المجرمين .

وبلغ النعي معاوية ، فقال لمن حوله : لقد خسرت الدولة اليوم ، بطلاً من من أبطالها ، ورجلاً من أعظم الرجال .

ثم قال لسرجون : ولّ ابن أثال خراج حمص ..

ثم دار الزمان ، فباح غلام عبد الرحمن بسر الدواء ،وتحدث القوم من وراء الجدران قائلين : هذه ضربة معاوية ...

وسكت خالد ابن القتيل ، على غلّ . ثم رأى ان يسير الى الحجاز لغرض له ، فبينا هو في المدينة ، أقبل عروة بن الزبير ، اخو عبد الله بن الزبير فقال له . مافعل ابن أثال ؟ فركب ناقته دون ان يقول كلمة ورجع الى حمص .

ومشى في صباح يوم الى دار الخراج ، وابن أثال فيها ، يوصي الجباة ، ويقبض الأموال ، والغلمان بين يديه ، وخالد متقلد سيفه وعيناه ترسلان النار ..

فدخل خالد فقال : يا ابن أثال .. ذكرت دواءك ...!

فتراجع الجاني الى الوراء وهو يقول : اي دواء هذا ؟!

– ذلك الذي دفعته الى غلام ابي ليسقيه إياه ..

قال : لا أذكر أني سقيت أباك شيئاً .

– ولكن أهل حمص يذكرون ذلك كما يذكره أهل الحجاز ..

وجرد سيفه قائلاً : لقد جئت الآن ادفع ثمنه كي لايقال ان حفيد خالد بن الوليد بطل الاسلام ، لم يدفع ثمن دواء عولج به أبوه .. فاستغاث الرجل بمن في الدار ، ولكن سيف خالد ، برى عنقه ، قبل أن يجتمع القوم وتمتد الأيدي ..

فصاح الناس : قتل القائم على خراج حمص ، قتل ابن أثال ..

على أن خالداً لم يبالِ ، بل أغمد سيفه المخضب بالدم، والتفت الى القوم قائلاً : أين رجال الشرطة ، إني مستسلم .

فقبضوا عليه وحمل الى دمشق .

فلما قيل لمعاوية ، ان ابن أثال قتل، وقاتله ابن عبد الرحمن ، أمر بخالد فوضع في السجن ، ولم يرد ان يأذن له في المثول بين يديه ، خوفاً من أن يسمع ما لا يحب .

ولكن أيام سجنه لم تطل، فقد شفع له بعض الخاصة فيه الى معاوية ، فخلّى سبيله ، بعد ان غرّمه دية القتيل . ورجع خالد الى المدينة فلقيه عروة بن الزبير فأعاد عليه قوله الأول : مافعل ابن أثال ؟.

قال لقد كفيتك ابن أثال ولكن ما فعل ابن جرموز ؟

« وابن جرموز ، هو قاتل الزبير والد عروة ، يوم فرّ من واقعة الجمل » فسكت عروة ولم يجب .

وعاد خالد الى حمص ، وهو يرى ان الابتعاد عن معاوية خير لهمن الدنو منه .

●

١٩

لم يكن في السنتين ، السابعة والأربعين، والثامنة والأربعين مايستحق الذكر .

فلما أقبلت السنة التاسعة والاربعون ، فكر معاوية في أمر خطير لا يفكر فيه غير الفاتحين أصحاب المطامع ، الذين يريدون ان يخضعوا العالم لمشيئتهم الجبارة ..

رأى هذا الشرق يدين له ، مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وبلاد العرب فلم يبق إلا أن يمد يده الى الغرب .

يفتح بابه ثم يدفع جيشه الى الداخل فيقتل ويسبي ويهدم ويستولي على كل شيء ..

اجل ، فكر معاوية في أن يغزو بلاد الروم ، غزوة لم يسبقه اليها مسلم حتى يضرب الجند خيامه ، وراء اسوار القسطنطينية، عاصمة الامبراطور الغربي وهي فكرة خطرة لا تخطر إلا للعظماء من الرجال الذين ليس لطموحهم حد .

يغزو الروم في البر والبحر ، حتى يستسلموا اليه ، ثم يبني وراء عاصمتهم القوية ملكاً جديداً واسع الارجاء .

واذا استطاع معاوية ، أن يخلف ملك الروم على عرشه ، سماه العالم ملك الملوك وسلطان الشرق والغرب .

وماذا يبقى ، اذا تم لابن ابي سفيان هذا الامر الذي يفكر فيه ؟ لا يبقى إلا أن يعصب رأسه بالتاجين ويقول : انا رجل الدنيا .. انا سيد الخافقين..!

وحسب العرب أن يخلق لهم معاوية هذا العز الذي لا تزول آثاره .

واذا فكر معاوية في أمر ، قذف بفكرته الى الاقطار ، يدعو اليها الناس . ويعقد لها مجالس الشورى ، ثم يأمر ، فتخرج هذه الفكرة الى العالم بثوبها الرائع الجذاب . نعم ، ذلك كان شأن الخليفة الاموي الاول ، يمضي في امره الى النهاية، حتى اذا خانه الحظ وضاعت خبرته ودهاؤه ، نسي الماضي كأنه لم يكن ، وانصرف الى اختراع الشيء الجديد ، يغذي به مطامع نفسه .

قضى ثلاثة اشهر ، وهو يدرس مع خاصته ووزرائه حال الروم ، ويقيس هذه الغزوة بالطول والعرض ، ليكون النصر حليفاً له ، حتى نضجت الفكرة وملأت نفسه ، فقال : لينتقل احدكم بالفكر الى مصر ، والآخر الى العراق ، والآخر الى فارس ، واتركوا لنا بلاد الشام ..

قالوا : لقد فعلنا . قال : اختاروا الآن القائد الاكبر ، لهذا الجيش الذي سلبعث به .

فجعلوا يستعرضون الاسماء ، ولكنهم لم يعثروا على ذلك الرجل العظيم الذي يصلح لمثل هذه القيادة . وساد الصمت ساعة ، فرفع صوته قائلاً : ما رأيكم في سفيان بن عوف ؟

وسفيان رجل السيف ، وداهية الحرب . فقالوا جميعهم : سفيان بن عوف .

– وما رأيكم في ولدنا يزيد ؟

فظن القوم أنه يريد أن يجعله من القواد ، فقال زرارة الكلابي وهو شيخ : ليس يزيد من رجال السيف يا امير المؤمنين .

– ولكن يجب أن يكون منهم ، فلا خير في عربي لا يعمد الى سيفه اذا اكرهته الحادثات ... – ويطيب لأمير المؤمنين أن يجعله من القواد ؟

– لا ،بل يكون جندياً غازياً،يقاتل كما يقاتل فتيان العرب،ويفعل مايفعلون.

وكان سعد رئيس حجابه حاضراً فقال له : ليحضر يزيد يا سعد .

قال : رأيته خارجاً من الخضراء يا امير المؤمنين . – متى كان ذلك ؟

– هذا الصباح . – انظر فقد يكون في الجناح الذي يطل على السور .

فانصرف سعد ثم رجع قائلاً : سألت الغلمان فقالوا انه لم يعد .

قال : تركب الساعة الى الغوطة فتقول له : ان امير المؤمنين يدعوك اليه ، اسمع .. يجب ان ترجع الينا وانت وراءه .

– سأنقل اليه امرك يا امير المؤمنين ثم انتظر امره ..

– يكفي ان تنقل اليه امرنا فيجيء ، ثم قال : ان سفيان بن عوف في منزله على النهر ، فقل له ان يحضر .

وما هي إلا ساعة حتى جاء سفيان ، وكان يعلم ان معاوية سيسأله رأيه في غزو الروم .

وقد حدثه غير مرة ، بأمر هذا الغزو فلما رآه قال :

ياسفيان بن عوف ، لقد انتهى الآن ، ذلك الأمر الذي حدثناك به من قبل .

– أي امر هذا يا امير المؤمنين ؟

– امر الجيش الذي سنبعث به ليزور قيصر .

– وعولت على إرساله في البر والبحر ؟

– أجل سنملأ البحر سفناً ، والبر رجالاً حتى يخضع الروم ويتخلوا لنا عن القسطنطينية ، او يدفعوا الجزية ..

قال : لا يعلم غير الله الى اي بلد تنتهي خيل امير المؤمنين اذا فتحت عاصمة الروم .. – ولا يعلم غير الله في اي فضاء يخفق العلم العربي ..

إن امر الفتح ، يعود الى البطل المجرب ، الذي نوليه قيادة الجيش والى اولئك القواد الذين سيكونون اعواناً له ، والى الجيش الظافر خواض الغمرات ..

فقال للوزراء : أتذكرون لابن عوف اسم القائد الأكبر الذي اخترتموه .

فقال سرجون : أنا اعلم لماذا يريد امير المؤمنين ان يذكر لابن عوف اسم القائد الذي اختاره ..

– لماذا ؟ – لأنك تخاف ان لا يحارب ابن عوف تحت لوائه ...

فضحك قائلاً : بل نذكره له ليشاركنا في الرأي . لقد اخترنا ياسفيان رجلا من أحب الناس الينا وأصدقهم في خدمة الاسلام هو انت . – انا يا مولاي ؟

– اجل ، وقد أجمع رجال الدولة ، على ان تحمل لواء العرب خفاقاً في البر والبحر ، وترفعه فوق اسوار مدينة القياصرة ..

– ولكني أعجز عن هذا يا امير المؤمنين .

– بل انت ذلك الرجل الذي يشرف قومه في جميع الميادين ، ويخضع لعرش الخلافة ، اولئك الذين سادوا هذا الشرق من قبل ، وبنو لأمتهم مجداً نراه بالعيون ونلمسه بالايدي .. قال : هنالك بحر يا مولاي لا استطيع ان اخمد ثورته ..

قال : تعود البحر منذ القديم ، ان يخضع للأبطال الذين لايبالون بالموت ، ولا يخافون امواجه !. — وعدد الجيش يا امير المؤمنين ؟

– لك ان تجعل هـذا الجيش اربعين او خمسين الفاً فالأمر راجع اليك ، وان الرجال قد تهيأت لحمل السيف .. — ومن تبعث معي من الامراء ؟

تخرج فيخرج معك يزيد ، وجميع القواد الذين خبروا الحرب ، ثم يلحق بك ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمر ، وأبو ايوب الانصاري ، وغيرهم من رجال الاسلام ، وجعل يحدثه ويطمعه بالفتح ، حتى قدم يزيد ، فقـال له أبوه : ألا يطيب لك أن تقاتل الروم في هذا العام .

فظهر التردد في عينيه ثم قال : يطيب لي ما يطيب لأمير المؤمنين .

قال : لقد جعلنا سفيان بن عوف قائداً للجيش ، وجعلناك انت ، مع الأمراء رجال الحرب والبأس ، اعواناً له ، فكن ذلك الرجل الذي يعلم ، انه يقاتل في سبيل العرب .

فحنى رأسه وجعل يقول : سأكون صادقاً في القتال كما انا صادق في الطاعة ..

وكان يقول في نفسه : سأرجع من ارض الروم قبل أن تتلاحم السيوف ...

وكان سفيان يحادث زرارة الكلابي . ولزرارة ولد يدعى عبد العزيز هو فارس من فرسان العرب البواسل ، الذين يقتحمون الصفوف بصدور الخيل .

فقال سفيان لمعاوية : اطلب اليك أمراً يا مولاي .

– اطلب ما تشاء . قال : أسألك ان تجعل على الخيل عبد العزيز بن زرارة.

فقال ولم يتردد : لقد جعلناه دون أن نسألك لماذا .

– اما أنا فأقول لأمير المؤمنين ما لم تسألني عنه ، إني اخشى ان يمتـد زمن الحرب إذا لم يسعرها عبد العزيز ..

– وهذا الزمن سيطول يا سفيان ، أتظن ان أمر القسطنطينية ينتهي في عام.

– من يعلم فقد تسقط الاسوار بعد حصار شهر ! وقد يعجز الجيش عن الفتح فيتراجع مذعوراً بعد سنة ..

– اما نحن فنرضى بان تمسي القسطنطينية ملكاً للاسلام بعد خمسة أعوام .. بل بعد عشرين عاماً . – النصر بيد الله يا امير المؤمنين .

– أجل وستسيرون على بركة الله .. اكتب يا سرجون الى جميع العمال ليبعثوا بالرجال وليتعجلوا في ذلك .. واكتب الى ابي ايوب ، وابن الزبير ، وابن عمر ، وابن عباس ليتهيأوا للسفر عندما يرد عليهم أمر آخر ..

ثم قال ليزيد : أما انت يا بني ، فأعدّ العدة ، وهذا زرارة يقول لولده عبد العزيز ان ينظر في امر الخيل وفرسانها منذ الآن .

وأومأ اليهم بالانصراف ، وقد قام في ذهنه ، ان القسطنطينية ستدين له ..

●

٢٠

مشى الجيش العربي ، بقيادة سفيان بن عوف ، لا يبالي بالمدن الصغيرة التي تطأها حوافر خيله ، بل كان ينظر ، وهو في البر والبحر ، الى تلك المدينة الجبارة ، مدينة قسطنطين الاكبر ، وعاصمة الرومان الشرقية ، نظرات تتقد فيها نار المطامع والشهوات .

مشى ، ويزيد وراءه ، يسير متثاقلاً على مهل ، كأنه لا يريد ان تحتجب بلاد الشام ، عن عينيه . وانك لترى ، في كل جيش ، طوائف كثيرة ، تمشي الى الحرب ، كما يمشي المجرم الجبان الى الموت ..

اجل ، ان الجيوش كلها ، في كل زمان ومكان ، فئتان ، في صدر الاولى عقيدة راسخة وإيمان ، وتتردد في صدر الاخرى عاطفة خوف هو خوف الذليل الجبان .

ذلك كان شأن الجيش العظيم الزاحف الى بلاد الروم ، وقد يكون للمترددين في المسير شيء من العذر .

إن الطريق طويل وعر المسلك ، ومخاطر المرض والجوع تحيط بهم من النواحي الاربع ، وبينهم وبين بلاد العرب ، أودية وأنهار ، وسهول وجبال .

فلما أمعنوا في البلاد ، وعرضت لهم المصائب والتجاريب ، جبن يزيد واعتلّ ، لم تراجع عن الجند لا يريد اللحاق به ، الى بقاع يكمن فيها الخطر ، بل لا يريد ان يموت في ارض بعيدة عن الشام .

وعين معاوية ، وهو في الخضراء ، ترى جيشه وهو في بلاد عدوه ، كأنه بين الصفوف !. رسل سفيان تروح وتجيء ، ورسل معاوية تروح وتجيء وبين الاثنين بريد دائم من الرجال ، ينقل الاخبار .

وقد انتهى الى امير المؤمنين ، أن الجيش يسير الى الامام وولده الذي يريد ان يجعله خليفة بعده ، يتراجع الى الوراء ، فأمسك عنه زمناً ، عندما بلغه ان الناس أصابهم مرض وجوع .

ولكن نقلوا اليه بعد ذلك ان ولده يقول :

ما ان ابالي بما لا قت جموعهم　　　بالفرقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفعاً　　　بدير مرّان عندي ام كلثوم

« الموم الجدري ، وام كلثوم زوجة يزيد وهي ابنة عبد الله بن عامر » .

فلما بلغه شعر يزيد ، كتب اليه يأمره بان يلحق بسفيان ، وأمر في الوقت نفسه ، أبا ايوب الأنصاري ، وابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمر ، بان ينضموا اليه .

فرأى يزيد أن السفر لا بد منه ، فمشى عندئذ كما يمشي الغزاة وركبت السفن طوائف من الجيش ، على أمل اللقاء عند أسوار القسطنطينية .

ونحن الآن عند هذه الأسوار ،وقد عبرت سفن المسلمين « الدردنيل ومرمرا » دون ان يعرض لها شيء ، حتى رست غربي المدينة وراء السور ، في مكان يقال له « السبع قلاع » .

وبين السور والمدينة « القديمة » سبعة أميال وقد نزل الجيش العربي البر ، بعدته وأثقاله ، وترك اسطوله راسياً في المكان الذي انتهى اليه .

والسور ، بناء هائل ضخم ، لم يرَ المسلمون في حروبهم وفتوحهم أعظم منه. والروم في المدينة ، متحدون أقوياء ، وعندهم جند يحمي الأسوار ، ويدفع

الأعداء على رأسه جماعة من القواد الذين شهدوا حروب الاسلام في بلاد الشام .

وما هي الحرب بين جيشين ، أحدهما في ابراجه ، وفوق اسواره والآخر مكشوف في السهل لايرى امامه غير الحجر الصلد يمنعه من اقتحام الصفوف ؟.

إنها حرب نبال ونار ، يترامى بها الجيشان ويمر الزمان وهذه النبال لاتخلق ظفراً ، ولا تشفي الغليل . نعم ظل سفيان بن عوف وجيشه أشهراً ، يرمون الروم والروم يرمونهم فيصيب المسلمون واحداً عندما يصيب الروم عشرة حتى احترق الكثير من خيام المسلمين ، وقتلت منهم الجماعات . وحتى قلّ الزاد في المعسكر العربي وهدده الجوع

فبعث سفيان سفنه تغزو الشواطىء وتحمل منها الطعام .

وكانوا قد جعلوا جزيرة في آسيا الصغرى تدعى « كيزيكوس » « Cyzieus » بيتاً لمؤونتهم وقد ظنها بعضهم جزيرة أرواد التي فتحها معاوية على رأي «كتاب خطط الشام » في السنة الثالثة لعثمان بن عفان وفي السنة الرابعة والخمسين على رأي معظم المؤرخين .

أما نحن فلا نرى ما رآه بعضهم لأننا لانستطيع أن نتصور ان الجيش العربي الذي يحارب الروم في القسطنطينية يجعل أرواد وهي بعيدة عنه بيتاً لمؤونته .

وقد رأت الروم أن عدوهم أضعف من أن يفتح المدينة ، فطمعوا وكانوا يخرجون للقائهم وجهاً لوجه ، وتدور رحى القتال فيحصد السيف العشرات من الجيشين .

وعبد العزيز بن زرارة الكلابي قائد الخيل يتعرض للشهادة فلا يقتل وكان يقول :

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق   شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فـلا النعـماء تبطرني   ولا تخشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه   ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

فبينا هو يقاتل يوماً ، وقد اقتحم الخيل ، امتدت اليه الرماح من كل ناحية فقتل، وبلغ خبر قتله معاوية ، فقال لأبيه : يازرارة ، هلك والله فتى العرب

فقال وهو هادىء : ابني أو ابنك ؟

قال : ابنك ، أحسن الله جزاءك وجزاءه .

فارتجفت شفتاه قليلاً ثم أنشد بيتين من الشعر أحدهما :

فكل فتى شارب كأسه　　　فإما صغيراً وإما كبيرا !!

ودنا الشتاء ، فلجأ المسلمون الى الاسطول ، ثم أتوا هذه الجزيرة التي ذكرت حتى عاد الصيف فعادوا ...

وجعلوا يهاجمون الاسوار كل صيف ، ويرجعون عنها كل شتاء ، حتى مرت ستة اعوام ، والنجدة من معاوية تتبع النجدة ، وهم لا يلقون في الهجوم والرجوع غير المرض والضيق والجهد .

وكان ابو ايوب الانصاري قد قتل ، وقد اضطرب لمقتله المعسكر كله ، وشيعته الصفوف بالخشوع واللوعة ، وعيون الروم تنظر اليهم من العلاء .

وأبو ايوب من الانصار اهل المدينة ، وله صحبة وجهاد ، شايع علياً وكان من اتباعه المجاهدين في الدفاع عن الاسلام .

وقد دفن في ذلك المكان ، وظل قبره مجهولاً زهاء ثمانية اجيال، حتى وجده السلطان العثماني محمد الفاتح يوم حاصر القسطنطينية وفتحها سنة ١٤٥٣ للمسيح، فبنى له جامعاً يزوره المسلمون بالاحترام والاجلال .

وقد قتل من الجيش العربي ثلاثون الفاً، فتراجعوا والكآبة تملأ الصدور وتنفس الروم الصعداء ، بعد ذلك الصراع الطويل العمر ، وبعد الحروب القاتلة التي خسروا فيها الشرق .

على أن الامبراطور الروماني ، كان حكيماً ، فبعث الى دمشق رجلاً من مستشاريه الامناء، يعرض على معاوية النظر في امر الصلح ، أو الهدنة، كما يقولون، ويسأله باسم مولاه أن يكتب عهداً في ذلك . فهش له معاوية ورحب به ، وأمر وزراءه من وراء الستار بأن يقولوا له : إن امير المؤمنين لا يكف عن الغزو حتى يرى دليلاً واحداً من دلائل الخضوع . وهي فرصة يغتنمها معاوية على عادته .

وكان السفير الروماني ، من أولئك السياسيين اصحاب المرونة والدهاء . وقد

فوّض اليه مولاه أن يفعل ما يطيب له .

وقد عرف أن الخليفة يريد أن يفرض على الروم شيئاً من الجزية .

وهذا هو دليل الخضوع . ولكن هذا الخليفة لم يكن ظافراً ليملي ارادته على الامبراطور ، ومع ذلك فقد رأى أن التسليم بما يريده معاوية خير من حرب دائمة تضعف معها الدولة وتخور بعدها القوى .

فلما عقد الخليفة مجلسه من رجال قريش وأبدى كل واحد من هؤلاء رأيه تم الاتفاق على هدنة عمرها ثلاثون سنة لا تسعر فيها نار حرب بين الدولتين ولا يشهر فيها سيف .

وفرض على الروم خمسين فرساً من جياد الخيل وخمسين مملوكاً وثلاثة آلاف قطعة من الذهب كل عام .

وأنت ترى أن معاوية وإن خسر في الحرب شيئاً من المال وطوائف من الرجال فقد ظفر في السلم ظفراً معنوياً يحفظ هيبة الاسلام والخلافة بين الرومان .

وبعد أن كتب العهد انمحت من ذهن معاوية صورة القسطنطينية واكتفى بما قسم له الله من ملك فسيح الجوانب وعز لم ترَ روما مثله .

•

٢١

بعد أن تخلى الحسن بن علي عن الخلافة أقام بالمدينة لا ينقل منها قدماً .

وكان مطلاقاً وقد تزوج الكثير من النساء بينهن جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي . ويظهر أن جعدة كانت تكره أن يتخلى زوجها عن حقه ، وكانت تحب أن تتحدث العرب بأمرها فتقول : زوجة امير المؤمنين .!

وقد يكون هنالك شيء آخر هو أنها لم تكن تحب الزوج المتردد الذي يتزوج اليوم ثم يطلق بعد ايام .

وتستطيع أن تقول أن حياتها مع الحسن لم تكن حياة هدوء وحب وليس

لك أن تعرف السبب في ذلك . وكان معاوية ويزيد اللذان لا يغفلان عن شيء ، يعرفان هذا ، ويكثران من السؤال عن الاسباب ، حتى ليظن الحجازي الذي يسألانه ، أن للاثنين غاية من وراء السؤال .

أجل ، كانت هنالك غاية عرفها القارىء من حكاية معاوية وعبد الرحمن صاحب حمص .

أحب الناس عبد الرحمن فخاف معاوية أن ينازعه العرش ، وتخلى الحسن عن الخلافة ، فمال اليه بعض من في الحجاز ، فخافه معاوية على العرش نفسه ،وجعل يفكر في أن يمثل في المدينة ، ذلك الدور الذي مثّله في حمص ابن أثال .

والسم . إن السم سلاح الملوك الخفي ، يقضي على عدوهم وهو في فراشه ، دون أن يخلق قتالاً أو يحدث ثورة ..

هذا ابن أثال ، وعده معاوية بأن يوليه خراج حمص ، فقتل ، وهذه جعدة بنت الأشعث يتولى يزيد بن معاوية أمرها فتساعده الاقدار .

أرسل اليها رجلاً من خاصته يقول : أي شيء أحب اليكِ ، البقاء مع الحسن أم الانتقال الى الخضراء وأنت زوجة يزيد ابن امير المؤمنين ؟ فترددت قليلاً ثم قالت : يزيد خير لي .

قال : ولكن الامر يحتاج الى القليل من الجرأة .

– أما الجرأة فعندي منها الشيء الكثير .. ماذا يريد يزيد ؟

– يريد أن تقتلي الحسن وهو يعدك بالزواج إن فعلت ! قالت : بالسيف؟

– بل بالسم ، ولا تمر ثلاثة ايام على دفن الحسن حتى تحملك الهوادج المذهبة الى دمشق . – وتبقى أنت هنا ؟ – اذا قلت لا ، مشيت الليلة راجعاً الى الشام ، وإن قلت نعم ، بقيت في المدينة حتى ارى الحسن محمولاً على نعش ...

قالت : سأفعل فابقَ .

– ومتى يكون ذلك ؟ – بعد بضعة ايام .

فانصرف الرجل الى بيت نزل فيه .

وبينا هو في السوق ، بعد اربعة ايام ، سمع الناس يقولون : الحسن بن علي في

خطر وهو يوصي ! ثم سمعهم بعد غروب الشمس يقولون . مات الحسن ووصى
بأن يدفن عند جده رسول الله .

وكان معاوية قد عزل مروان بن الحكم عن المدينة وولى سعيد بن العاص
فلما اراد القوم في اليوم الثاني أن يدفنوا ابن علي عند النبي تصدى لهم مروان
ومعه فريق من بني امية ومنعوهم من ذلك .

ولكن الحسين أراد أن يدفنه بالقوة فقيل له : إن أخاك قال قبل موته : اذا
خفتم الفتنة فادفنوني في مقابر المسلمين .

فسكت ، وصلى عليه سعيد بن العاص ، ثم دفن .

فلما بلغ معاوية خبر موته خرّ ساجداً ، فقال بعض الشعراء :

اصبح اليوم ابن هند شامتاً ظاهر النخوة إذ مات الحسن
يا ابن هند إن تذق كأس الردى تكُ في الدهر كشيء لم يكن
لست بالباقي فلا تشمت به كل حي للمنايا مرتهن

وأرسلت جعدة بنت الاشعث تطلب الى يزيد أن يفي بوعده فأبى فبكت
حظها وندمت ولكن بعد أن مرّ الزمان .

●

٢٢

خلا الجو لمعاوية من هذه الناحية ، ناحية العرش ..

على أن خوفه من الرجلين اللذين صرعهما السمّ ، كان وهماً صورته له خيا[illegible]
التي هي مخيلة السلطان الخائف على تاجه .

قُتل الحسن ، وقتل عبد الرحمن .. وحلالٌ عند معاوية ، قتل كل ر[illegible]
يخطر له أنه طامع بمقعد الخلافة الذي خلق له وحده .. !

وليس هنالك ما يمنع معاوية من ذلك ، فالعرش قبل كل شيء ، ومن الضعف
أن يتردّد في الدفاع عنه .. وهو العرش الذي سالت دماء الناس حوله ، وحار[illegible]

من أجله ابن عم النبي . والقدر ؟. أما القدر فقد ساعده في أمره وكان عبداً لأحلامه وأمانيه ..

هذا الحسن وعبد الرحمن، قتلهما السم دون أن يرتفع لقومهما صوت وهذا المغيرة بن شعبة، طواه الموت، وهو في الكوفة، قبل أن يبعد صيت حجر بن عدي ويشتد ساعده .. أجل كان يهم بعزل المغيرة فتمنعه سياسة « البيعة » من ذلك، وكان يهمّ بقتل حجر، فتعرض له بالفكر، صورة قومه بني كندة، حاملين السيف، وخارجين على الخلافـــة . حتى مد هذا القدر يده الى المغيرة لمحاه من الوجود، فلم يبق، نعم لم يبق إلا أن ينظر معاوية، من جديد، في أمر حجر الذي يلعن عثمان والناس يسمعون ..

وليس أسهل من أمر حجر، بعد موت المغيرة ...

إن زياداً حيّ، وهو الوالي السفاح البطاش، الذي يخضب يديه كل يوم بدماء الأبرياء !

نعي أمير الكوفة الى أمير المؤمنين في السنة الخمسين، فاطمأنت نفسه، وكتب الى زياد يقول له : جمعنا لك الولايتين، فاستخلف على البصرة من تشاء، وارحل الى الكوفة قبل ان يفسد علينا أمرها، أصحاب علي . فاختار للبصرة سمرة بن جندب، وهو اخوه، في العنف، والقسوة والجفاء،.. وقال لأصحابه قبل خروجه : نقيم بينكم ستة أشهر، ونقيم مثلها بـين الكوفيين، حتى تخمد أصوات الشيعة، ويدب الذعر في القلوب ... ومشى الى الكوفة . فلما قدمها، تحدث الناس فقالوا : ويلكم جاء زياد .

أما هو فانصرف الى المسجد، وقام خطيباً في الناس ؛

ثم ترحم على عثمان، وأثنى على أصحابه، ولعن قاتليه . فقيل له : إن حجراً يقول اليوم ما كان يقوله بالأمس .

فقال : مهلا، فسيأتي دور حجر ..

ولم يلبث حتى رجع الى البصرة لأمرعرض له، واستخلف على الكوفة رجلا يقال له عمرو بن حريث . وبينا عمرو يخطب يوماً، حصبه اصحاب حجر، أي

رموه بالحصى .

ثم بلغه ان حجراً تجتمع اليه شيعة علي فتظهر لعن معاوية والبراءة منه ، وتسب عثمان وأصحابه . فأرسل رجلاً يخبر زياداً بما جرى . فأقبل زياد حتى صعد المنبر ، وحمد الله ، وحجر جالس ، ثم قال :

أما بعد فان هؤلاء أمنوني واجترأوا على الله ، لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ، ولست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر بن عدي ..

وأمر أحدهم بأن يدعو حجراً ، وهو بالمسجد .

فلما دعاه ذلك الرجل ، قال اصحابه : ليأت زياد نفسه ..

فخبر الرسول زياداً ، فقال لصاحب شرطته ، وهو شداد بن الهيثم : عليّ بالرجل الساعة ،قبل ان يخرج. فمشت طائفةمن الرجال تريد ان تحمل سيد كندة .

ولكنها رجعت بعد قليل وهي تقول : إن اصحاب حجر يسبون الأمير ، فقال لأهل الكوفة : أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق ..

قالوا : ليس لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك ..

قال : ليدعُ كل رجل منكم عشيرته وأهله ..

ففعلوا ، فتفرق أكثر اصحاب حجر . فقال زياد عندئذ لابن الهيثم :

انطلق الآن الى حجر فان تبعك فأتني به وإلا فشدوا على اصحابه بالسيوف حتى تحملوه .. فحمل صاحب الشرطة على القوم ، وزياد على المنبر ، وهو يرى كل شيء . فقال احد الكنديين لحجر : ليس معك رجل يحمل سيفاً غيري ، وما يغني سيفي..قم فالحق بأهلك يمنعك قومك ، ويتسع لهم مجال الدفاع عنك.

فمشى هو واصحابه الى ابواب كندة ، ودافعوا دفاع اليائس حتى خرجوا منها ، وركب حجر بغلته ، فأتى داره ، وحوله طوائف من رجال العشائر ، إلا كندة فلم يكن منها غير بضعة رجال !! فظهرت الكآبة على وجهه ثم قال : انصرفوا ، فلا طاقة لكم برجال زياد ، وما احب أن تهلكوا .

فخرجوا ، وخرج هو وراءهم الى دار رجل منهم يقال له سليم بن يزيد .

ولكن ابن الهيثم لحق به .

فتناول سليم سيفه ليقاتل الناس ، فبكت بناته .

قال حجر : إني اذن بين نساء ..

قال : والله لا تؤخذ من داري اسيراً او قتيلاً وانا حي ..

فلم يبال بما سمع ، بل خرج من نافذة ، في الجانب الآخر ، تطل على الحي ، ولجأ الى منزل عبد الله بن الحرث ، اخي الأشتر ، فأحسن لقاءه .

وبينا هو عنده ، قيل له أن الشرط تسأل عنك .

ففرّ الى الأزد ، واستخفى في بيت ربيعة بن ناجد وأعيا القوم طلبه ..

فدعا زياد محمد بن الأشعث وقال له : والله لتأتيني به أو لأقطعن كل نخلة لك، واهدم دورك ، ثم لا تسلم مني حتى أضرب عنقك !

فاستمهله ثلاثة أيام ، ثم بعث الى حجر يسأله أن يستسلم ، قبل ان تشتعل النار في الكوفة . ونصح بعضهم لحجر بان يحقن الدماء ، فقال : ليأخذ لي ابن الأشعث ، اماناً من زياد ، حتى يبعث بي الى معاوية .

فجاء ابن الأشعث الى زياد ، ومعه جرير بن عبد الله ، وحجر بن يزيد ، وعبد الله بن الحرث ، فاستأمنوا للرجل على ان يرسله الى دمشق فيرى امير المؤمنين رأيه فيه .

فأجابهم الأمير الى ما طلبوه . ومثل حجر بين يدي زياد ، فلما رآه قال : مرحباً بك يا أبا عبد الرحمن .. حرب ايام الحرب ، وحرب وقد سالم الناس ؟! على اهلها تجني براقش ..

قال : ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة ، وإني على بيعتي .

قال : خذوه الى السجن .

فلما خرج قال : والله لأحرصن على قطع خيط رقبته ..

وبدأ يطلب أصحاب حجر حتى قبض على بعض الرؤساء واستخفى البعض الآخر ، وكان رجال الفتن والشر ، يحملون الاخبار الى زياد ، حتى كان الرجل منهم يسعى بابن عمه ...

من هؤلاء قيس بن عباد الشيباني ، الذي أقبل يقول لزياد :

ان امرءاً منا يقال له صيفي من رؤوس أصحاب حجر .

قال : أين هو ؟ قال : أدلك على مكانه .

فأمر زياد فأتي به ، فقال : يا عدو الله ، ما تقول في أبي تراب ؟!

« قال أبو تراب كنية علي ويقول أبو الفداء إنها كانت أحبّ الكنى اليه لأن الرسول كناه بها » .

قال : ما أعرف أبا تراب . – أتعرف علي بن ابي طالب ؟

– نعم . قال : ذاك ابو تراب . قال : كلا ، ذاك ابو الحسن والحسين ..

فقال صاحب الشرطة : يقول الأمير ابو تراب وتقول لا ؟..

قال : فإن كذب الأمير أ كذب أنا وأشهد على باطل كما شهد ؟

فقال زياد : وهذا ايضاً ؟ عليّ بالعصا .

فحملوها اليه ، فقال : ماتقول في علي ؟

قال : أحسن قول . قال اضربوه ..

فضربوه حتى لصق بالأرض ، ثم قال زياد :

كفوا عنه .. ماقولك في علي ؟

قال : والله لو مزقتني الخناجر ما قلت فيه إلا ما سمعت مني الآن ..!!

قال : لتلعنه أو لأضربن عنقك . قال : لا أفعل ..

قال : ضعوا الحديد في يديه ورجليه وضموه الى اخوانه .

ثم أمر رجاله بان يقبضوا على عبد الله بن خليفة الطائي .

فثار بنو طيء ، وانقذوا عبد الله .

فقال زياد لعدي بن حاتم وهو في المسجد : أئتني بعبد الله .

قال : لاعلم لي بما جرى . فخبره وأمره بان يحمله اليه ، فقال :

والله لا اتيك به أبداً . اتيك بابن عمي تقتله ؟! والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه .. قال : اقبضوا إذن على عدي ..

فلما أخذوه الى السجن لم يبق في الكوفة سيد من سادات العرب إلا خاطب زياداً بأمره وكانوا يقولون : تفعل هذا بعدي بن حاتم صاحب رسول الله .

قال : أخرجه على شرط أن يخرج ابن عمه عني فلا يدخل الكوفة ما دام لي بها سلطان .. فأمر عدي عبد الله ، بان يلحق بجبلي طيء ، ففعل ، ثم مات بالجبلين قبل موت زياد !. وكان اصحاب حجر ، الذين قبض عليهم ، أحد عشر رجلاً .

فدعا زياد عندئذ رؤساء الأرباع ،وهم عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان ، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكندة ، وأبا بردة بن أبي موسى على ربع مذحج وأسد ، وطلب اليهم أن يشهدوا على حجر .

فشهدوا ، أن حجراً جمع الناس ، وأظهر شتم الخليفة ، ودعا الى حرب أمير المؤمنين ، وزعم أن الخلافة لا تصلح إلا لآ ل أبي طالب ، وترحم على علي ، ولعن عثمان .

ثم كتبوا : وإن هؤلاء الذين معه هم رؤوس اصحابه وانهم على مثل رأيه وأمره لا يخالفونه في شيء . وأقبل زياد ينظر في شهادتهم ، ثم قال :

اني لأحب أن يكونوا اكثر من اربعة .

ودعا الناس فشهد منهم بضعة رجال بينهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص ، والمنذر بن الزبيد ، وعمارة بن عقبة ، وغير هؤلاء . ثم دفع حجراً وأصحابه الى وائل بن حجر الحضرمي،وكيثر بن شهاب،وأمرهما بأن يسيرا بهم الى الشام .

فخرجوا حتى انتهوا الى ارض الحيرة ، فلحق بهم شريح بن هانيء،وأعطى وائلا كتاباً يحمله الى امير المؤمنين .

ثم ساروا حتى بلغوا مرج عزراء ، عند دمشق ، وهم اثنا عشر رجلاً ، وأتبعهم زياد برجلين آخرين هما عتبة بن الاخنس ، وسعد بن نمران . وانتهى خبر وصولهم الى معاوية ، فأرسل الى وائل بن حجر ، وكيثر بن شهاب يأمرهما بالمجيء اليه .

فلما دخلا عليه ، قرأ كتاب زياد ، وشهادة الشهود ...

ثم دفع اليه وائل كتاب شريح بن هانيء ، وهذا ما ورد فيه :

بلغني يا أمير المؤمنين ان زياداً كتب شهادتي ، فأرجو أن تعلم أن شهادتي على حجر هي هذه : إنه ممن يقيم الصلاة ويديم الحــج والعمرة . ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر . حرام الدم والمال فان شئت فاقتله وإن شئت فدعه ..

فقال معاوية : ما ارى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم .. ليبق القوم الآن في مرج عذراء .. ثم أقبل من المرج عامر بن الاسود العجلي، فقال معاوية: ما وراءك ؟ قال : أتيت أخبر امير المؤمنين أن زياداً أرسل رجلين اثنين من اصحاب حجر وكنت أنا من حراسهما . قال : عرفنا هذا .. وهل رأيت حجراً؟

— نعم يا امير المؤمنين . — وهو خائف من الموت ؟

— انه يخفي خوفه ، على ما أرى ، وراء مظاهر الهدوء وقد طلب إليّ أن ينقل اليك كلاماً . —وحفظت انت هذا الكلام ؟

— نعم ، وأنا أعيد قوله : قل لمعاوية أن دماءنا عليه حرام ، وخبره أن زياداً قد أمننا فصالحناه ، وإنا لم نقتل احداً فيحل له قتلنا .. — ولم يقل غير هذا ؟

— لا . قال : مسكين حجر فكأنه لم يقل شيئاً .

ثم نادى حاجبه قائلاً :

ادع هدبة بن فياض ، والحصين بن عبد الله ، وأبا شريف البدي .

فأقبل الثلاثة ، فقال لهم : اذهبوا الى مرج عذراء واقتلوا حجراً وأصحابه.

فقام يزيد بن أسد البجلي فقال : أسألك يا أمير المؤمنين ان تعفو عن ابني عمي .

— من هما ؟ — عاصم بن عوف ، وورقاء بن سمي .

قال : لقد كتب جرير بن عبد الله في الرجلين يشهد لهما بالبراءة..عفونا عنهما.

وقام وائل بن حجر فشفع في الأرقم بن عبد الله الكندي . فقال : لقد تركناه ..

وشفع ابو الأعور السلمي في عتبة بن الأخنس ، فوهبه له .

وقام حمزة بن مالك يستوهبه سعد بن نمران ، فتركه له .

وطلب اليــه حبيب بن مسلمة ان يطلق عبــد الله بن حوية التميمي . فقال : ليكن ذلك .. وسمع الناس عندئذ مالك بن هبيرة السكوني يقول :

دع لي ابن عمي حجراً يا امير المؤمنين ..

قال : هو رأس القوم ، ونخاف إن خلينا سبيله ان يفسد علينا الاقليم فنحتاج الى ان نرسلك اليه بالعراق .. فارتجفت شفتا الرجل وجعل يقول :

والله ما أنصفتني يا معاوية .. قاتلت معك ابن عمك يوم صفين حتى ظفرت وعلا كعبك ولم تخف الدوائر ثم سألتك ابن عمي فمنعتني ...

قالها ، وتراجع الى الرواق ، ثم خرج من الخضراء . فقال معاوية لجلاديه :

انصرفوا الآن ، وحلوا سبيل الرجال الستة الذين عفونا عنهم ، واضربوا أعناق الآخرين . فخرجوا حتى انتهوا الى المرج ، فنقلوا خبر العفو الى اصحابه ، ثم قالوا لحجر ومن معه :

أمرنا أن نعرض عليكم لعن علي والبراءة منه .

فقال حجر : وإن فعلنا ؟ – تركناكم .. – وإن أبينا ؟ – قتلناكم ..

– إذن فالقتل أهون مما تسألون .

فأمر هدبة بن فياض فحفرت القبور .. وحملت الاكفان ..

وقام حجر ورجاله يصلون الليل كله ..

فلما كان الغد قدموهم للقتل ، فقال حجر :

اتركوني اتوضأ واصلي فاني ما توضأت الا صليت ..

فتركوه فصلى . ثم انثنى وهو يقول : والله ما صليت صلاة قط أخف منها ولولا أن تظنوا فيّ جزعاً من الموت لاستكثرت منها ، ثم قال :

اللهم ، إنا نستعديك على امتنا ، فان اهل الكوفة شهدوا علينا ، واهل الشام يقتلوننا أما والله لئن قتلتموني بها فاني اول فارس من المسلمين هلك في واديها وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها ...

ورفع عينيه الى السماء ، وجعلت عيناه ترجفان كأنه يخاطب الله عزّ وجل.

فمشى اليه هدبة بن فياض بالسيف . فارتعد ، فقال هدبة :

زعمت أنك لا تجزع من الموت ، فابرأ من صاحبك ، وانت حر ..

قال : وما لي لا أجزع ، وأنا أرى قبراً محفوراً ، وكفناً منشوراً وسيفاً

مشهوراً .. إني ان جزعت من القتل لا أقول ما يسخط الرب ..

فضرب عنقه ، وأعناق خمسة من رجاله حتى انتهى الى عبد الرحمن بن حسان، وكريم بن عفيف الخثعمي . فقال الاثنان :

إبعثوا بنا الى امير المؤمنين ، فنحن نقول في علي مثلما يقول هو . فأغمد هدبة سيفه وقال لأحدهم . اذهب وخبر امير المؤمنين بما رأيت وسمعت .

فذهب الرجل ، ثم رجع وهو يقول : لقد أذن امير المؤمنين باحضارهما .

فلما دخلا عليه ، قال كريم بن عفيف : الله الله يامعاوية انك منقول من هذه الدار الزائلة الى الدار الآخرة الدائمة وانت مسؤول عن هذه الدماء ..

فابتسم قائلاً : ما تقول في علي ؟ فتردد قليلاً ثم قال :

اقول فيه قولك ..

قال أتبرأ منه ؟ فسكت ..

فقام شمر بن عبد الله ، وهو من خثعم ، يسأله أن يهبه له .

قال : لقد وهبناه لك على ان لا يدخل الكوفة .

ثم قال لعبد الرحمن : يا أخا ربيعة ، ما تقول في علي ؟

قال : لا تسألني فذلك خير لك ... قال : والله لا أدعك حتى تقول .

فقال : أشهد انه كان من الذاكرين الله تعالى ، ومن الآمرين بالحق ، والقائمين بالعدل ، والعافين عن الناس .. — وما قولك في عثمان ؟

قال : هو أول من فتح أبواب الظلم وأغلق ابواب الحق !!

قال : قتلت نفسك ..

— بل إياك قتلت ، ولا ربيعة في الوادي ..

« وهو يعني أن قومه ليسوا بدمشق ليشفعوا فيه » .

فقال معاوية : ولكن ربيعة في الكوفة .. احملوه الى زياد فهو يعلم أي قتلة يختارها له .. وكتب الى زياد يصف له موقف الرجل ويأمره بأن يجعله عبرة لسواه من أنصار علي .

فلما انتهى المحكوم عليه الى الكوفة ، ومثل بين يدي اميرها السفاح اقبل

القوم من جميع العشائر والاحياء ، ليسمعوا الفاظ الرحمة ينطق بها زياد بن ابيه...

وسمعوه يقول : ياابن حسان. يدعوك أمير المؤمنين الى لعن علي فتأبى وتقول ان عثمان كان ظالماً لايعرف الحق ؟

قال : وهل يخطر لك ولمعاوية اني أبيع ديني برضاه، والعن أعظم رجل بعد النبي ، كما فعلت أنت ؟ !

فاضطرب قائلا : أتقول هذا لي ؟...أتقول أن زياداً باع دينه ؟

— نعم أقول ذلك، والمسلمون جميعهم ، في العراق والحجاز ، واليمن ومصر ، يعلمون أن ذلك الامام الصالح الذي تلعنونه اليوم ، هو الذي رفعك من ذل كنت فيه الى هذا العز الذي صرت اليه ...

قال : لك ان تقول مايطيب لك قبل أن تلفظ الروح ..

— وماهي هذه الروح يازياد ؟..انها لله فان لم تذهب اليه اليوم ذهبت غداً ، وخير الناس من يرحل عن هذه الدار ، طاهر النفس مطمئن الضمير لايخشى ان يلقى ربه يوم الدين . وخطى الى الامام خطوتين ثم قال :

لقد كنت يازياد ، وانت في فارس ، من اتباع علي ، بل كنت من عبيده. فلما ابتسم لك معاوية بعد غضبه عليك مشيت الى دمشق كما يمشي العبد الذليل، لتجثو عند قدميه وتعفر الجبين بتراب الهوان ، وما هي الا ليلة حتى أمسيت مبشراً بالمسائل الجالس على العرش تلعن علياً وآل علي وتستعين بالسيف لتخمد الاصوات التي تلعن عثمان ... أجل يازياد ، كنت أحقر رجل في الاسلام ، كما يعلم الناس . ولكن علياً رحمة الله عليه ، اراد أن يشرفك ، فمد اليك يد الفضل فقطعت يده ، ونكثت عهده ، وامسيت جلاداً لانصاره فبئس الرجل أنت .. أنت .. زياد بن ابيه .. نهاش الاعراض ...

فأرسلت عينا زياد ، لسانين من نار ، ونهض وهو يقول لمن حوله : احملوه الى خارج القصر فقد وجدت دواء لجنونه ، وتقدمهم وهو يتعجل في مشيه حتى انتهى الى الفناء ، فوقف لحظة وهو يرتجف، ثم خرج والناس وراءه الى الارض التي تحيط

بالقصر ، واستند الى الجدار . ثم أومأ بسوطه قائلاً :

احفروا عند الجدار قبر هذا المجنون ..

ففعلوا ، وعبد الرحمن بن حسان ينظر الى قبره ، والابتسامة لاتفارق شفتيه ، وكأن الخوف لم يتمش في أعصابه .

ثم قال زياد : سترقد هنا ، ويرقد معك دفاعك عن علي .

— وهذا هو الامر الذي ارغب فيه .. اتعرف لماذا يازياد ؟ اني لا اطيق العيش في ظل خليفة يؤثر دنياه على آخرته ، وظل وال ، تصبغ يديه وثيابه ، دماء الابرار من المسلمين .. ودفع حراسه ، ثم وثب الى الحفرة وهو يقول :

لم يبق الا ان تجعلوا هذا التراب غطاء لي !!

فامتدت الايدي ، بأمر زياد ، الى ذلك الغطاء الناعم ، واختفى تحته ، بعد لحظة ، جسم المخلص الوفي عبد الرحمن بن حسان .

وجعل زياد ينظر الى جانبيه ، كأنه يقول لانصار علي : هذا جزاء من يرفع صوته بالدفاع عن ابي تراب ، وكان الذين قتلوا ، سبعة رجال : حجر بن عدي ، وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي بن فسيل الشيباني ، وقبيصة بن ضبيعة العبسي ، ومحرز بن شهاب التميمي ، وكدام بن حيان العنزي ، وعبد الرحمن بن حسان العنزي .

وكادت الثورة تستعر نارها في دمشق ، بعد مقتل حجر ، فان مالكاً بن هبيرة السكوني ، الذي سأل معاوية ان يعفو عن حجر ، لم يشأ ان يصبر على مارآه من رفض معاوية ، فعمد الى رجاله يقول لهم : سننقذ حجراً بقوة السيف ، وركب معهم يريد مرج عذراء .

فلما كان في بعض الطريق ، لقيه الجلادون ، فقال لهم : ماوراءكم ؟

فلم يجسروا على ان يعترفوا له بما جرى ، فقالوا :

قد تاب القوم وجئنا نخبر امير المؤمنين .

فسار الى عذراء فرأى ان حجراً قد قتل .

فارسل الخيل في اثر قتلته فلم يدركوهم ، لانهم كانوا قد انتهوا الى دمشق

فهبوا امير المؤمنين ، بثورة ابن هبيرة .
فقال : انما هي حرارة يجدها مالك في نفسه ... وستطفأ .
وكان يعلم اي علاج يعالج به مالكاً . . .
حتى جن الليل فقيل له : لقد عاد مالك الى بيته .
فدعا سعيداً رئيس حجابه وقال له :
اذهب الى بيت المال وليعطك سرجون مائة الف درهم .
– وبعد ذلك ؟ – تحملها الى مالك بن هبيرة وتقول له :
مامنع امير المؤمنين ان يعفو عن حجر ، الا خوفه من أن يشعل في الكوفة نار الحرب فيكون في ذلك من البلاء على المسلمين ماهو اعظم من قتله .. قل له ذلك واحفظ جوابه . فحمل سعد ذلك المال الى الرجل الثائر ، ونقل اليه كلام امير المؤمنين فأخذ مالك المال ، وهو يقول : ان امير المؤمنين أبعد نظراً من رعيته...
وطابت نفسه كما طابت نفس معاوية . وكانت عائشة قد بلغها خبر القبض على حجر فارسلت الى معاوية ، عبد الرحمن بن الحرث يسأله باسمها ان يخلي سبيله وسبيل أصحابه . فقدم عبد الرحمن وقد قتل القوم ، فقال لمعاوية :
اين غاب عنك حلم ابي سفيان ؟!
قال : حين غاب عني مثلك من حلماء قومي .. لقد حملني زياد ابن سمية فاحتملت ... ا وعندما بلغ الحسن البصري قتل حجر وانصاره قال :
صلو عليهم وكفنوهم ودفنوهم واستقبلوا بهم القبلة ؟
فقيل له : نعم . قال : حجوا ورب الكعبة .. وقال بعد ذلك :
اربع خصال كنّ في معاوية لولم تكن فيه الا واحدة منها لكانت موبقة : أخذه الخلافة بالسيف من غير مشاورة وفي الناس بقايا الصحابة وذوو الفضيلة واستخلافه ابنه السكير الخمير الذي يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقتله حجراً واصحاب حجر فيا ويلاً له من حجر ، ويا ويلاً له من أصحاب حجر . .
وكان الناس يقولون :
اول ذل دخل الكوفة ، موت الحسن بن علي ، وقتل حجر .

وقالت هند بنت زيد الانصارية ترثي حجراً :

ترفع ايها القمر المنير — تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب — ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر — وطاب لها الخورنق والسدير
الا ياحجر حجر بني عدي — تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك ما اردى عدياً — وشيخاً في دمشق له زئير
فان تهلك فكل زعيم قوم — من الدنيا الى هلك يصير

وقال حجر لاصحاب معاوية قبل ان يضربوا عنقه :

لاتطلقوا عني حديداً ، ولاتغسلوا عني دما ، فاني لاق معاوية غداً ...

•

٢٣

نحن الآن في السنة الثالثة والخمسين وليس في الكوفة شيء جديد .

بلى،كان هنالك شيء جديد ، في دار هانيء بن عروة الذي كان يغص بالناس، من جميع الاحياء . وكان الناس يقولون :

لقد عاد عمر بن الحجاج الزبيدي من دمشق ، ومعه فتاته التي يسمونها ، فتاة الشام ... اجل ، عاد ابن الحجاج الى الكوفة ،بعد ان احتجب عنها ثلاثة عشر عاماً ، ومعه زوجته خولة ، وابنته امامة الحسناء .

وقد أعد لهم هانيء منزله، وملأ الفرح قلب زوجته سلمى ، ابتهاجاً بشقيقتها، وفتاتها الساحرة التي احبتها الحب كله .

وكانت امامة ، فتانة المحاسن كما رأيت ، وقد وهب لها الله جمالاً لاتقع العين على أروع منه : عينان سوداوان ذابلتان ، وثغر جذاب لاتفارقه الابتسامة البريئة ، وحديث عذب يستهوي السامعين .

انها قطعة من ذلك الجمال العربي الخلاب ، الذي تضرب به الامثال .

وكما كانت في الغوطة ، بهجة بني سعد ، وهي طفلة ، هكذا امست ، في ليلة وضحاها ، بهجة الكوفة ، وحديث النساء والرجال ، في تلك المدينة الكبيرة العامة بعشائر العربان . رآها قوم من ربيعة فقالوا هي لنا ، ورآها آخرون من مذحج فقالوا هي لنا ، وكان كل رجل تقع عيناه عليها يقول :

سأضم الى العشيرة ، حسناء بني زبيد !

والجمال في كل مكان وزمان ، يلفت اليه العيون ، وتخفق له القلوب ...

وقد احس ابن الحجاج ، ان جمال ابنته خلب العقول ، والاعجاب بذلك الجمال ملأ الصدور ، وان سادات العرب سيخطبونها لابنائهم ، وسيسأله كل واحدمنهم ان يرضى بولده ، زوجاً لها .

وكان يجهل ، ان سلمى اخت زوجته ، وعدت مسلم بن عوسجة بان تكون امامة لولده عبد الرحمن ، ولم يكن يعلم ، الا انها اختارت لها خطيباً ، وهي طفلة . حتى ان خولة نفسها كانت تجهل ذلك ، ولم يتسع لها مجال السؤال ، عن ذلك الخطيب ، الذي كتبت اليها سلمى عنه ، وهي في الشام . على انها كانت تفكر في ذلك ، بل كانت تفكر في الفتى المجهول الذي ستجعله الاقدار زوجاً لامامة . .

وهي ترى ان ابنتها اجمل حسان العراق ، كما كانت في الشام اجمل حسانها ، ومن حقها ان تتيه عجباً بها ، وتمشي على مهل في اختيار الزوج الصالح اذا رأت ان الفتى الذي اختارته اختها غير أهل .

ولكنها لم تكن تريد ان تزوج امامة في هذا العمر ، بل كانت تريد ان تعلم اي فتى هو ، لتهدأ في صدرها ، تلك الفكرة التي تعرض لها ، في نهارها وليلها ، ولتنظر الى مستقبل الفتاة الذي تريده زاهياً زاهراً ، نظرة الرضى والاطمئنان .

وعندما تمر الاعوام ، وتبلغ امامة العشرين ، تأذن لها في الخروج من منزلها الى منزل الزوج ، على ان ترحل هي وعمرو ، الى البلد الذي تنتقل اليه ..

وليست هنالك قوة ، تستطيع ان تزوج فتاتها ، قبل العشرين ولو كان طالب الزواج امير المؤمنين .. ان امامة وحيدة أبويها وليس من الرأي ان يخسر البيت الوالدي بهجته ، في مثل هذه السرعة .

وبينما هي تهم بان تحدث اختها بالامر ، أقبلت سلمى تقول :
سيذهب الليلة عمرو وهانيء ، الى منزل سليمان بن صرد الخزاعي .
– وماذا يصنعان ؟ .. – ينضمان فيه الى رجال الشيعة شيعة علي .
– واي شيء تفعله الشيعة اليوم ؟ – انها تخاف ان يمعن زياد في جوره ، فيسأل معاوية ان يضرب اعناق اشرافها كما فعل بحجر بن عدي .

قالت : خبروني بأمر حجر وأنا في الشام ، وكان القوم يظنون ان النار ستشتعل في الكوفة .

– ان رجال الشيعة كثار في هذا البلد ولكنهم لا يجسرون على حمل السيف.
– وهم يجتمعون على مرأى من زياد ؟
– ان زياداً يعلم كل شيء ، ولكنه لايعرض لهم ، إلا إذا تصدوا له وأظهروا عثمان .

قالت : لعنه حجر فكلفه اللعن حياته ..

– كان يفعل ذلك أيام المغيرة والمغيرة ساكت حتى جاء زياد فعمد الى السيف، وسالت دماء الأبرياء ، في مرج عذراء . وكانت خولة تكره معاوية وتحب علياً وآل علي ، وقد نشأت أمامة على هذا التشيع ، وهذا الحب .

وليس في ذلك شيء من العجب ،فهما زوجة عمرو بن الحجاج وابنته ، وعمرو يتظاهر بحب علي والتشيع له ، وله مواقف كثيرة تشهد له انه لا يحب الخليفة الأموي ، المغتصب . ولكن هذه المواقف لم تكن في المسجد او الحي ، بل كانت في منازل الشيعة ، داخل الجدران ..

على أن خولة كانت مؤمنة ، بأن عمراً أصلب عوداً من سواه ، وأكثر الناس دفاعاً عن ذلك الإمام الصالح الذي قتله ابن ملجم عدو الله ، فقالت لسلمى :

تقولين أن رجال الشيعة يخافون أن يمعن زياد في جوره ..
– أجل . – وهل يمنع اجتماعهم جور زياد ؟
– لا ،ولكنهم يحتاطون للأمر،وينظرون في قضية الشيعة من جميع الوجوه.
قالت : لي رأي أبديه لعمرو قبل أن يذهب الى منزل سليمان . – ماهو؟

– هو أن يخرجوا من الكوفة ويظهروا أنفسهم ، فقد تنضم اليهم من المسلمين، طوائف كثيرة ، تستطيع ان تخلع معاوية وتجعل الخلافة في بيت علي ، كما كانت من قبل !! قالت : إنه رأي يقذف بالرجال الى أتون النار . – لماذا ؟

– لأن الجيش والمال والسلطان في يد معاوية ، وعماله في كل قطر لا يعرفون الرحمة ولا يعمدون في سياسة الناس ، إلا الى السوط .

– إذن كتب لأنصار علي أن يعيشوا في خيبة دائمة .

– بل يعيشون والامل في الصدور . –وأي أمل هذا ؟

– إن معاوية جاوز السبعين ، وسيموت ... – وبعد موته ؟

– يثور الناس ، ثم يبايعون الحسين بن علي .

– وهل نسيت بني أمية وأنصارهم ؟

– لو لم يكن معاوية سيد بني امية لما قام لهم ذكر ... انه داهية العرب وجوادها كما يقولون ، يبذل المال بدون حساب ، فيشتري به قلوب اعدائه ، فاذا خانه الحظ عالج عداوتهم بدهائه ، وعندما يرى ان الأمر ، مع الدهاء والمال ، لا يستقيم له ، يبرز الى الساحة ويدعو الناس الى حمل السيف ، ثم قالت: وليس في امية رجل مثله ، تنحني له بعد موت معاوية ، رؤوس القوم .

قالت : ستنحني هذه الرؤوس ليزيد .

فابتسمت قائلة : الخمر أحب الى يزيد من الخلافة .

– ولكني سمعت ، وأنا في الغوطة ، أن معاوية سينظر في أمر الخلافة قبل موته وسيدعو الناس الى مبايعة ابنه .

– وهذا ما تحدث به القوم في الكوفة .. على انهم كانوا يقولون انه لا يجسر على ذلك . – وماذا يخاف ؟

– يخاف الفتنة .. بل يخاف أن تخرج الخلافة من يده وهو حي .

– ونسيت الجيش والسلطان والمال ..

– لم أنسَ شيئاً ، ولكن الأمر الذي يهم به معاوية حدث غريب في الاسلام، وبدعة في وراثة الملك لم يعمد الى مثلها الخلفاء .

قالت : إن معاوية يخلق الأمر كما يشاء هواه ، ولا يبالي باولئك الخلفاء فهو لا يذكر غير مصلحته ومصلحة العرش .. قولي يا سلمى ، أي خليفة قبل معاوية أخذ الخلافة بالسيف ؟

فسكتت قليلاً ثم قالت :ذلك زمان ما نحب أن نتحدث بما جرى فيه .

— ولكنه زمان معاوية نفسه .. إن الرجل الذي استطاع أن يأخذ الخلافة بسيفه ، يستطيع أن يحفظ هذه الخلافة لولده عندما يخطر له .

قالت : الخلافة لا تثبت في يد يزيد ، وسترين .

قالت : سيجد يزيد رجالاً يحفظونها له كما وجد أبوه رجالاً يساعدونه في أمره ، ويحاربون من اجله ، أحب الناس الى النبي . وخفضت صوتها قائلة :

هذا زياد بن سمية ، لقد كان من أتباع علي المخلصين له ، فلما طوى الموت علياً بهرت عينيه عظمة الامارة ، فحنى رأسه لمعاوية حتى ولاه ، وهو اليوم يحارب إخوانه بالأمس ، ويسفك دماءهم ، ويدفنهم أحياء ... أجل ، وسيقوم غداً ، إذا مات معاوية رجال مثل زياد يبيعون دينهم بمقعد من مقاعد الحكم ويفعلون كما يفعل مستسلمين الى يزيد استسلاماً لا تردد فيه ...

— وهل تظنين ان الله يرضى بما يصنعه هؤلاء ؟

— لا ،إنه لايرضى،وأنا أسأله عز وجل،أن ينقذ الاسلام من المفسدين الظالمين .

واقبل هانىء عندئذ يقول لسلمى :

اذا جاء مسلم بن عوسجة فليلحق بنا الى منزل ابن صرد .

قالت : وعبد الرحمن ؟ — سيكون عبد الرحمن معه فهو لايترك أباه ..

وخرج مع عمرو بن الحجاج يريدان بيت سليمان .

•

٢٤

مسلم بن عوسجة نبيل من نبلاء العرب ، وهو من سادة بني أسد كما قرأت

ولمسلم صيت في العشائر ، وشهرة يتحدث بهـا رجال المروءة ورجال السيف في العراق ، منشأ هذه الشهرة ، حروب المسلمين في خراسان .

اجل كان مسلم فارس الهيجاء في الحروب التي ذكرت ، وأحد أولئك الرجال الذين رسخت بفضلهم قدم الاسلام في ذلك القطر .

ولم يكن اقليم خراسان وحده ميداناً لبسالته ، بل كان ينتقل ، من اقليم الى آخر حاملاً في صدره عقيدته الثابتة وايمانه الذي لاتزعزعه الحادثات ،

وهو ابعد الرجال عن معاوية ، واصدقهم في وفائه لآ ل علي .

وبنو أسد في الكوفة ، فئتان ، احداهما مع الجالس على العرش ، وهي الفئة الكثيرة العدد ، والاخرى تشايع علياً ، من وراء الستار .

وكذلك كانت عشائر العراق ، في ذلك الزمان ، رجال العشيرة الواحـدة تفرقهم السياسة ، وتفصل بينهم الاغراض ، هذا هواه في بني امية ، وهذا هواه في بني هاشم ولكن الدنيا .. الدنيا مع « الواقف » كما يقولون ، وهنالك مثـل فارسي يقول :

أضعف الخصوم خصوم السلطان . على ان مسلماً لم يكن في خصومته ، من رجال الثورة ، بل كان هادئاً ليناً يحترمه رؤساء العشائر ، وتميل اليه رجال الفئتين . مع أنه لم يكن من قبل ، ذلك الرجل الذي نصفه الآن .

نعم ، لم يكن يلعن عثمان ويسبّه على مسمع من الناس ، ولكنه لم يطق قط ان يسمع لعن علي . فلما مات ولداه ، سعد وعبد الله ، كما مر معك في مستهل هذه الرواية ، محت الاحزان ، الشيء الكثير من حـــدة نفسه ، وانقلب هواه الجامح ، الذي كان ناراً في صدره ، فصار هدوءاً ..

ولكن وفاءه لآ ل عليّ ، كان أرفع من أن تمتد اليه ، يد المصيبة التي نزلت به .

وكان في صـدره عاطفتان هما أقوى وأصدق العواطف التي عرفتها نفسه ، حب علي رضي الله عنه ، وحب ولده عبد الرحمن .

وله من وراء العاطفتين غايتان ، هما أن يعيش ليرى رجلاً من آل علي على العرش ، ويزوج عبد الرحمن ، ثم يمهّد له أسباب السعة ورغد العيش .

وقـد وفر المال لمسلم ، فهو لايشكو غير سوء حظه في ولديه اللذين انتزعها الموت من يده ، وغير القدر القاسي الذي جار على علي .

وعبد الرحمن ، من اولئك الفتيان الذين يشرفون عشائرهم ، ويرثون بحق زعامة الآباء والجدود .. وجه اسمر جذاب ، وقلب جريء لايعرف الخوف ، وشجاعة لاتجد مثلها في جميع فتيان قومه . أضف الى هذا ، ذلك الإباء الذي يملأ صدره ، والشرف الذي يبدو لك في كل مظهر من مظاهره .

ولو لم يكن عبد الرحمن في الثالثة عشرة ، والعمر لايختفي ، لما نظر اليه الناس نظرهم الى الفتيان . أجل، كان ذلك الفتى رجلاً فيخلقه ، رجلاً في رصانته وهدوئه ، حتى أن زهو الصبا فيه ، لم يستطع أن يغلب ذلك الهدوء .

وقد أحبّ اباه ، حبّاً لاتنطبق صدور الأبناء على أصدق منه وكانت دلائل ذلك الحب ، ظاهرة في رواحه ومجيئه مع ابيه في المسجد وفي الأسواق .

وقد شاء مسلم ،أن ينفخ في صدر ولده البار ، روح التضحية والاخلاص لآل علي ، بعد أن قص عليه حكاية صفين ، ويوم الجمل ، وخبره بعظمة ذلك الامـام الصالح ، وايثاره دينه على دنياه .

فنما في قلبه ، حب الخليفة الذي كانوا يلعنونه في المسجد ، وكان يرافق أباه الى منزل سليمان بن صرد ، نادي رجال الشيعة ، ويسمع أقوال اولئك الرجال ، ثم يعود الى منزله ليلهو بجواده الادهم ، وسيفه الذي وهبه له هانيء بن عروة المرادي ...

وكان يركب كل صباح الى ميدان الكوفة ، ووراءه ابوه على فرسه ، فيجري الفرسان في ذلك الميدان .. ويعلم الوالد ولده ، الضرب بالسيف .

ثم ينصرفان بعد ذلك الى المسجد ، ثم الى المنزل ، ولا يزور مسلم زياداً إلا اذا كان هنالك امر لابد منه . وعبد الرحمن يعلم أن اباه خطب له ، على أن مسلماً لم يذكر له اسم خطيبته بل كان يقول له :

انها في الشام وستجيء . فلما قدم عمرو بن الحجاج ، قال لسلمى :

ألا ترين أن نحدث عمراً بالأمر ؟ — بلى، ولكن الرأي أن اقرأ ما في نفس

خولة قبل أن أخاطب زوجها لأن أمر امامة في يدها اكثر مما هو في يد عمرو .

قال : إن الفتاة حسناء فتّانة ،وأنا أخشى أن يكون نظر خولة ، في قضية الزواج ، أبعد مما نظن ..

قالت : لا تذهب خولة الى ابعد من هـــذا ... إن عبد الرحمن من احسن الفتيان وأبوه بطل من ابطال المسلمين الذين بنوا للاسلام هذا المجد الذي نراه ... وهل يرفض عمرو بن الحجاج أن تكون ابنته زوجة لسيد من سادات بني اسد . من يعلم فقد يطمع بأن يجعلها في بيت من بيوت الامراء. ــ الأمراء عمال معاوية؟

ــ نعم . ــ لا يخطر لابن الحجاج أن يفعل ذلك وهو من اعداء الامويين .

ــ ولكنه ليس عدواً للولاة . ــ ومع ذلك فهو لا يصاهرهم .

قال : متى تسألين خولة ؟ ــ سأفعل في هذين اليومين .

وأطرقت قليلاً ثم قالت : أراك تتعجل في الأمر كأنك تريد أن تزوج عبد الرحمن اليوم .. قال : ليس هنالك ما يمنعني من ذلك اذا رضي عمرو .

ــ إن خولة لا ترضى وأنا ارى أن يكون موعد الزواج غير قريب .

ــ لماذا ؟ ــ لأن الفتيين في الثالثة عشرة من العمر .

قال : ليكن قريباً او بعيداً فأنا لا أبالي . وانتهى حديث الاثنين عند هذا الحد . فلما كانت تلك الليلة التي خرجت فيهـــا شيعة علي الى الاجتماع في منزل سليمان ، أقبل مسلم الى فناء الدار يسأل عن هانيء ، فقالت سلمى : تراه في منزل ابن صرد . فخفض صوته قائلاً :والوعد ؟ قالت : ستعلم غداً كل شيء فسأخاطب خولة الليلة .

وكان عبد الرحمن وراءه فلم يفهم شيئاً ولم يسأل اباه عن ذلك الوعد وقد اكتفى مسلم بما سمع ، فانثنى الى الخارج وهو يقول في نفسه :

ابذل نصف ملكي على أن تكون امامة لعبد الرحمن ..

●

٢٥

ـ خولة .. ألم اكتب اليك وأنت في الغوطة ، أني وجدت في الكوفة خطيباً لامامة ؟ ـ بلى . ـ ولكن مضى بضعة ايام ولم تسأليني عن ذلك .

ـ خيل إليّ أن هذا الخطيب لا وجود له ...

ـ اذن خطر لك اني خدعتك فيما كتبت .

ـ بل خطر لي أنك لا ترضين بأن ازف امامة الى فتى من فتيان الشام فكتبت إليّ أن خطيبها في الكوفة . ـ لم أفكر قط في أن اهزأ باختي ، إن الطفل الذي اخترته لامامة ، اصبح اليوم من اصدق الفتيان وأحسنهم وجهاً .

ـ وهو هنا ؟ ـ اجل . ـ من هو ؟

ـ لا أذكر اسمه إلا بعد أن اسمع كلمة الرضا .

فضحكت قائلة : إني راضية بما ترضين به .. قالت : هو عبد الرحمن بن مسلم ..

قالت : هذا الفتى الهادىء الذي تبدو النبالة على وجهه وفي عينيه ؟

ـ نعم . ـ ويعرف ذلك مسلم ؟

ـ يعرف كل شيء وهو ينتظر هذه الساعة منذ كان عبد الرحمن في حضن مرضعه . فترددت قليلاً ثم قالت : وأنت ماذا ترين ؟

ـ أتسألينني رأيي وأنا التي مهدت اسباب الخطبة ورغبت في مصاهرة بني أسد !

ـ قالت : أخشى أن يكون عمرو راغباً في غير ما نرغب نحن .

ـ لا أظن أنه يبخل على مسلم بن عوسجة بما يجود به على سواه .

ـ من يعلم ، فقد يكون له رأيٌ آخر لم يخطر لنا نحن الاثنتين .

ـ أما انا فأرى أنه سيؤثر بني اسد على جميع العشائر النازلة في الكوفة . إلا إذا كان هنالك طمع بالامارة .

قالت : اليس زياد بن ابيه ، وهو عامل البصرة والكوفة ، اعظم الامراء الآن ؟

ـ بلى . قالت : لو اقبل زياد بنفسه ، يخطب امامة لواحد من ابنائه ، لما لقي غير الفشل .

قالت : يفعل زياد كما يفعل معاوية .

– يستعين بالمال ؟ – بل يستعين بالدهاء ، ويبذل الوعود ليبلغ غايته .

– وماذا يصنع ؟

- يولي عمراً أمر خراسان فيعطيه ابنته . . ثم يعزله بعد شهر ويحول وجهه عنه .

– لا يولي زياد رجال علي .

– بل يفعل اكثر من هذا عندما يرى أن الحاجة تدعوه الى ذلك .

– ولكن عمراً لايرضى ولا يخرج على اصحابه .

– اذا كان هذا فعبد الرحمن يكون زوجاً لامامة .

قالت : لقد رضيت وسأحدث عمراً بالأمر عندما يجيء .

– وتستطيعين ان تقولي له أن مسلماً سيجيء غداً خاطباً لعبد الرحمن .

قالت : بقيت امامة فأنا اريد أن يكون لها رأي .

قالت : اسأليها الساعة . فانثنت الاختان الى حجرة صغيرة ودعت خولة ابنتها قائلة :

لقد رجعنا يا امامة الى البلد الذي خرجنا منه كما ترين وقد خبرتك من قبل أن في الكوفة رجالاً يحفظون عهد الوفاء لآل علي .

فغمرت ثغرها ابتسامة طاهرة ثم قالت :

وأنا قد رأيت معظم هؤلاء الرجال الذين تذكرين .

– وعرفت أبا عبد الرحمن ؟

– أعرفه كما أعرف شبث بن ربعي وسليمان بن صرد وحجار بن ابجر ، ويزيد بن الحرث وعروة بن قيس ومن معهم من الأنصار .

– ورأيت عبد الرحمن بن مسلم ؟ فأرخت نظرها الى الارض ولم تجب .

فقالت خولة : معنى هذا الحياء أنك تعرفينه ، وقد يكون في الأمر معنى آخر . . قولي يابنية كل شيء .

– رأيت فتى حسن الوجه مع مسلم وقيل لي أنه ابنه . .

فأرادت الأم أن تقرأ الأسرار فقالت :

وأنت تحبين هذا الفتى الحسن الوجه .. أليس كذلك ؟

فأخفت وجهها بيديها وتمتمت قائلة :

لم يخطر لي أن أحب أحداً . . وأنا لا أعرف الحب ..

– ولكنك تنظرين باعجاب الى عبد الرحمن . . – . . . نعم . .

– وبماذا تحسين عندما تنظرين اليه ؟

– أحسُّ بعاطفة تتردد في هذا الصدر لا أعلم ماهي . .

فقالت لسلمى : لقد تمَّ لكِ الأمر فامامة عاشقة . ثم قالت للفتاة :

سترين مسلماً في هذا المنزل عند الصباح . قالت : أراه كل يوم ؟

– ولكنه سيطلب الينا غداً قضاء حاجة له ، وسيتردد أبوك في جوابه ريثما يسألك عن ذلك . – أنا ؟

– نعم أنت فان مسلماً سيخطبك غداً لعبد الرحمن .

فوضعت يدها على صدرها ، وقد خيــــل اليها أن أمها تسمع نبضات قلبها الخفاق . . ثم قالت : وبماذا أجيب أبي ؟ – بما ترين فليس لي في هذا رأي .

– بل أجيبه بما تقولين لي .

قالت : لا أحب أن أخدع ابنتي وأكرهها على أمر لاتريده هي .

– وليس لك رأي في عبد الرحمن ؟ – بلى ، إن عبد الرحمن من خيرة فتيان العرب ، كما أن مسلماً من خيرة الرجال الذين رفعوا شأن الأمة .

قالت : هذا يكفي فسأقول لأبي عندما يسألني ، اني راضية .

– وإذا أراد أبوك أن تتظاهري بعدم الرضى ؟

– أفعل مايأمرني به ، وأنزع من صدري هذه العاطفة التي ذكرت قبل أن تمسي غراماً ... فضمتها سلمى الى صدرها وجعلت تقول :

أما نحن فلا نريد الا أن تنمو هذه العاطفة وتكبر ، لأنا لم نجد بين فتيان الكوفة خيراً من عبد الرحمن . وقد شعرت امامة في تلك الساعة ، أن عاطفتها هي مطلع الفجر ... فجر الحب الصحيح الذي لايتراجع الى الوراء ...

●

٢٦

عاد رجال الشيعة من منزل سليمان في الهزيع الثالث من الليل .

وكان القوم في دار هانيء بن عروة ، قد استسلموا الى الكرى .

فلما دخل عمرو بن الحجاج غرفته المطلة على الرواق ، استيقظت خواة قائلة : ما هذا الاجتماع يا عمرو فقد مضى من الليل ثلثاه ..

قال : ليس للقوم حديث غير زياد فهم يريدون أن ينقذوا الكوفة من شره ويهمون بأن يشهروا السيف ..

– ولكن السيف يسقط في النهاية على أعناقهم فيخسرون كل شيء .

قال : ذلك ما أراه ويراه هانيء ، وشبث بن ربعي .

قالت : لشبث همة قد لا تجد مثلها في صدور الفتيان .

– أجل ، وله خبرة بالحرب ورأي عند الشدة ، ولكني أحسست الليلة ، أن اليأس يقوم مقام الأمل الذي كان يملأ نفسه . – وكيف ذلك ؟

– هو يرى أن أنصار علي في الكوفة لا يرتفع لهم صوت ، وزياد حي ، ووراءه في الشام ، خليفة يدعى معاوية ..

– إذن لم يبق إلا أن يخضع لزياد خضوعاً لا رياء فيه .

قال : أما هذا فلم يفكر فيه ، ولكنه قال :

تناسوا أمركم حتى يخلق الله ما لا تعلمون .. – وسليمان بن صرد ؟

– لا يتردد في حمل السيف إذا أجمع القوم على حمله ، ولكنه يرى من ناحية أخرى ، ان الظفر لا يتم لرجال الشيعة إلا إذا مات أمير المؤمنين .

قالت : هذا أول مظهر من مظاهر الضعف .

– بل هو مظهر من مظاهر الحكمة وأنا قد آمنت بما قاله شبث بن ربعي ، ثم قال : نحن طائفة قليلة ، بين طوائف تدين لابن أبي سفيان ، فاذا خرجنا الى الساحة فكأننا نخرج الى الموت وسأحدث ابن ربعي بهذا الامر غداً وأنت تسمعين .

– هنا ؟ – أجل فقد قال لي عندما انتهى الى داره ، انه سيأتي عند

الصباح لغاية له لم يشأ ان يذكرها لي .

ـ وماذا تظن ؟ ـ خبرني هانيء انه يريد ان يزوج ولده الأصغر .

ـ ربيع بن شبث ؟ ـ نعم ولعله أراد أن يختار أمامة زوجة له .

فاستوت جالسة وهي تقول : ويطيب لك أن تتزوج أمامة اليوم ؟

ـ يطيب لي أن انظر في أمر هذا الزواج من جميع نواحيه .

واضجع على الفراش قائلاً : أتعلمين من هو شبث بن ربعي ؟

ـ انه سيد من سادات بني تميم . ـ وابنه الربيع ؟

ـ أعلم أنه في الصف الاول بين فتيان الكوفة ..

ـ وإذا جاء شبث غداً يقول لي : أريد أمامة ، فماذا أقول له ؟

ـ تسأل أمامة ان تبدي لك رأيها قبل أن تقول شيئاً ..

ـ وهل تريدين أن تجعل العرب ، ابن الحجاج الزبيدي ، مضغة في الأفوا.
ويلحق بي العار الى الأبد ؟ ـ وأين هو العار في هذا ؟

ـ إن العار ، هو أن يسألني ابن ربعي سؤالا لا أستطيع أن أجيبه عنه إلا إذا استأذنت أمامة وهي في الثالثة عشرة من العمر ..

ـ ولكنك لا تستأذنها إن فعلت . ـ وماذا إذن ؟

ـ تلمس رغبتها بيدك ، لتشعر ابنتك ، وليس لك سواها ، أن أباها لايزفها إلا الى الفتى الذي تريده هي .. قال : لا أفعل ذلك ولو خسرت أمامة ..

وخولة تعلم ان عمراً صعب المراس ، لايرجع عن أمر أصرّ عليه إلا إذا دار حوله دورة حيلة ودهاء ، فقالت :

واذا عرض لك أمر لا تستطيع معه أن تعد شبث بن ربعي ؟

ـ انظر عندئذ في هذا الأمر وأشاور فيه .

قالت : أقسمت بالله اني لا أزوج ابنتي إلا بعد أن تجاوز العشرين .

ـ ومتى فعلت ذلك ؟

ـ يوم بلغت عامها الخامس ولم يمن الله علينا بولد ذكر .

فضحك قائلاً : أما أنا فلم أحلف ولم يخطر لي أن أبقى أمامة في منزل أبيها

عشرين عاماً ومع ذلك فأنت تحترم قسم زوجتك وتدعوها الى أن تبرّ فيه ، ولو كان طالب الزواج الحسين بن علي . .

قال : تبلغ امامة العشرين بعد سبعة أعوام . .   – نعم .

– واني أفكر الآن في أمر .   – ماهو ؟

– هو أن يقول شبث عند الصباح ، اخطب للربيع والربيع يصبر عشرة أعوام لا سبعة . .

– ولكن يعرض لك عندئذ أمر آخر كنت أظن أن هانئاً خبرك به في هذا الليل . .   قال لم يزد هانىء على قوله : ان ابن ربعي يريد أن يزوج ولده .

قالت : سترى غداً مسلم بن عوسجة ، جالساً بالقرب من شبث وهو يخطب ابنتك لولده عبد الرحمن .   فبرقت عيناه قائلاً له ومن خبرك بهذا ؟

– سلمى وقد اختارت عبد الرحمن وهو طفل ، وأظن أنك لم تنس ذلك الكتاب الذي بعثت به الينا ونحن في الغوطة . .

– اذن ستكون امامة غداً بين خطيبين .

– أجل بين خطيبين ولها وحدها أن تختار أحدهما .

– بل نختار نحن الليلة ، ثم نأمرها عند الصباح ، بأن تؤثر الذي اخترناه على الآخر . . انظري الآن في أمر الفتيين .   – لقد نظرت منذ ساعة . .

– وأيهما يصلح لامامة ؟ . . فلم تشأ أن تتعجل في الجواب ، فقالت : كلاهما من أحسن الناس والرأي رأيك . .

قال : الربيع بن شبث في الثانية والعشرين من عمره .

– نعم .   – وعبد الرحمن في الثالثة عشرة . .   – نعم .

– والاثنان ينتميان الى عشيرتين من أشرف عشائر العرب وأبعدها صوتاً ولكني أؤثر عبد الرحمن على الربيع . .

فتظاهرت بالتفكير ثم قالت : وأنا من هذا الرأي . . .

قال : بقي أن تقولي لامامة عند الفجر أن تختار ابن مسلم لأني سأعهد اليها في

الاختيار على مسمع ومرأى من الرجلين ، اذا أتيا .

قالت : ستفعل امامة ما تأمرها به .

واستلقت على فراشها وهي تريد أن تقف عند هذا الحد ، وقد كرهت أن تعترف له بان ابنتها أحست بقشعريرة الغرام ...

ونام عمرو وهو واثق بأنه أحسن الاختيار ، وان امامة ستكون راضية...

•

٢٧

طلع الصباح ، فقصت خولة ، على امامة وسلمى ، ماجرى بينها وبين عمرو ، بعد رجوعه من منزل سليمان .

ونقلت سلمى الخبر الى هانيء ، فطابت نفسه وأقبـل يقول لابن الحجاج : هممت بأن احدثك امس بأمر ستسمعه اليوم .. قالها وهو يتجاهل كل شيء ..

فابتسم عمرو قائلاً : لقد عرفت ما تريد أن تقوله لي . ـ ماذا ؟

ـ تريد أن تقول أن مسلماً سيخطب الي ابنتي .. ـ هو ذاك ..

ـ وتريد أن تسألني رأيي في هذا ..

قال : عجباً وهل تعرف ما في الصدور يا عمرو ؟

قال : خبرتني خولة كل شيء وأنا أنتظر الآن أن يجيء الرجلان شبث ومسلم فاسأل أمامة أن تختار أحد الفتيين . ـ تفعل ذلك دون ان يكون لك رأي فيه؟

ـ لقد أشارت عليها امها بأن تختار عبد الرحمن ..

وبينا هما يتمشيان في الرواق ، والنساء الثلاث في الجانب الشرقي منه ، أقبل مسلم ووراءه عبـد الرحمن ، ثم أقبل على الأثر شبث بن ربعي وحده ، كأن الثلاثة على موعد .

ولم يحضر الربيـع مع أبيه . فهش هانيء لضيوفه ، ودعاهم الى قاعة واسعة تطل على مسجد الكوفة العظيم ، وفي القاعة باب داخلي جلست النساء وراءه ..

ثم قال : هل خطر لكما خاطر في الليل الماضي ؟
فقال شبث : خطر لنا ان نأتي هذا المنزل ، في هذا الصباح ، كما ترى .
وكان مسلم يقول في نفسه : إن ابن ربعي جاء يخطب للربيع .
وقد أراد ان يسبقه في الطلب ، فقال : أما انا فقد قدمت لأمر اسأل عمراً ان يقضيه لي .
فقال عمرو : مثلك يا مسلم يقضي الحاجات اذكر ما تشاء .
قال : أتيت خاطباً ابنتك لابني هذا ..
فأطرق عبد الرحمن .. وقبل ان يتكلم عمرو ، قال شبث وهو يبتسم :
وانا قد أتيت خاطباً لابني الربيع .
فظهر التردد على وجه ابن الحجاج ثم قال : ليس لعمر الزبيدي ان يرد طلب بني أسد وبني تميم ...
– ولكن الأمر يحتاج الى القليل من التفكير . . . ماذا ترى يا هانيء .
فقال ضاحكاً : أرى ان نار الحرب ستشتعل بين العشائر الثلاث من اجل فتاة .. ماذا أرى ؟ أتقول لمسلم بن عوسجة لا أزف امامة الى ولدك ؟ – لا .
وتقول ذلك لشبث بن ربعي ؟ لا .
– إذن لم يبق إلا ان تخبر امامة بأمر الاثنين ثم تأمرها بأن تختار .
فقال مسلم : لقد رضيت . اما شبث فقال : ولكن الفتاة لاتعرف الربيع..
– وهي في الوقت نفسه لا تعرف عبد الرحمن . – إذا كان هذا فأنا راض.
فقال هانيء : ادعُ امامة يا عمرو وليخرج عبد الرحمن الى الفناء .
فأومأ مسلم الى ولده بأن ينصرف ، ثم اقبلت الزبيدية الحسناء ، وكأنها لم اسمع شيئاً ، مع انها سمعت كل شيء . فقال ابوها اجلسي يا بنية .
فجلست وعيناها تنظران الى الارض حتى انها لم تتبين وجوه القوم .
ثم قال : أتعرفين الربيع بن شبث ؟ – ما رأيت له وجهاً يا مولاي .
– وعبد الرحمن بن مسلم ؟ – ولا أعرف عبد الرحمن ..
فرقص قلب هانيء من الفرح ثم قال : دعني أقصُّ عليها حكاية الخطبة .

قال : افعل .

قال : ستكونين بعد ساعة مخطوبة لواحد من الاثنين اللذين ذكرهما أبو
الآن ،فحنت رأسها الى الصدر حتى كاد الوجه يختفي في ثوبها من الخجل .

أما هو فلم يبال بل كان يقول :

ولك أن تختاري من تشائين فهذا مايريده أبوك ونريده نحن .

فرفعت رأسها عندئذ قائلة : يختار أبي من يشاء فأنا لاأخالفه فيما يفعل .

– ولكنه لايختار ، فالعشيرتان من أقرب العشائر الى بني زبيد والفتيان
أحب الناس اليه . . وهذا يكفي .

قالت : صعب على الفتاة الزبيدية أن تختار خطيبها وأبوها حاضر . .

فقال عمرو : أمرتك بان تفعلي وانتهى الامر .

قالت أتأذن لي أن أشاور أمي في هذا ؟

– انك لاتخرجين من هذه القاعة إلا بعد أن تقولي كلمتك .

فجعلت تنظر الى الرجلين ، شبث ومسلم ، ثم قالت : أختار ابن مسلم .

فنهض شبث قائلاً : لقد أحسنت الاختيار . . وللربيع أن يطلب في حي
او في حي آخر زوجة له . . ثم قال : أتذهبون الليلة الى منزل سليمان ؟

فقال عمرو : نذهب اذا أردتم ذلك .

قال : سأرى سليمان في المسجد وأحدثه بالأمر .

وهمّ بالانصراف . فأراد عمرو أن يقرأ مافي نفسه قبل أن ينصرف فقال
الى أين ؟

– الى المسجد كما قلت .

– ولكنك تذهب الآن ونحن لانعلم أي أثر بقي في صدرك ، من هذا الم
الذي رأيت . – وهل يحفظ شبث بن ربعي ، لعمرو بن الحجاج غير ال
الطيب والوفاء الابدي ؟ .. ان القضية قضية شباب وهوى ، وليس لي أن أ
كلمة بعد أن انتهى الأمر على هذا الوجه ..

قال : اطلب اليك ان تمكث قليلاً ريثما تجيء خولة ونضرب موعداً للزا

قال : أما الموعد فلا أريد أن يكون لي فيه يد لان الأمر لايتعلق بي
– ولكن يطيب لي أن تعلم كل شيء .
ونادى خولة ، فأقبلت وهي تقول لزوجها :
دعوت امامة فعرفت أنكم لاتتحدثون بأمر الشيعة .
قال : الحديث حديث زواج وقد انتهى الآن .
ثم خبرها بماجرى ، فقالت : والموعد ؟ – نسألك رأيك فيه .
قالت : هنالك يمين يجب أن نبر بها . – يمين العشرين ؟
– نعم .
فالتفت الى مسلم قائلا : لايتم الزواج الا بعد أن تبلغ امامة العشرين من العمر ... فقال شبث : هذا كثير – ولكنها يمين لخولة لايسقط منها حرف .
فجعل مسلم يقول : انها يمين نعم .. ولكن الصبر سبعة اعوام صعب .. وقد تتغير الامم والدول بعد أن ينقضي هذا الزمان .
– ومع ذلك فنحن مكرهون على هذا الصبر .
قال : اذا كان هذا فانا أول من يرضى . – وعبد الرحمن ؟
– يلهو عبد الرحمن بفرسه ورمحه حتى تمر الأعوام السبعة ويفعل الله عندئذ مايشاء .. أتأذن له الآن في الدخول ؟ فمشى الى الرواق وهو يقول : انا ادعوه.
ولم تكن إلا لحظة ، حتى دخلا ، وقد صبغ الاحمرار وجنات الخطيبين ، وكان القلبان يخفقان بشدة ، ولكنه خفقان عذب .
ولم يبق لشبث ما يقوله ، فصافح القوم مهنئاً ثم خرج وهو يقول في نفسه : لا تقع العين على أجمل من أمامة وقد خسرها الربيع .
واستطاع الخطيبان بعد ساعة أن يتكلما بلغة العيون .

●

٢٨

رأى زياد ان الكوفة والبصرة لا تتسعان لمطامعه .

وكان يعرف مقامه عند معاوية بل كانْ واثقاً بأن معاوية لا يخالفه في ام يطلب اليه ان يقضيه . ومن حق زياد ان يتدلل ما طاب له الدلال .

فهو الذي أعاد بسيفه هيبة الخلافة ، في البصرة والكوفة وهو الذي خفض الرؤوس العالية وأخمد الأصوات المرتفعة ، ولولا ذلك السيف ، لاشتعلت نا الفتنة في العراق ، ثم امتدت الى الحجاز ترسل لهيبها الى الجيوش والعشا فيلتهم كل شيء .

أجل ، كان زياد في ذلك الزمن ، دعامة من دعائم العرش الأموي ، وركنا قوياً ثابتاً من اركانه ، بل كان سيفاً قاطعاً يتخطف الأرواح بالحلال او الحرام لا ينظر إلا الى غاية نفسه ...

حتى كان الرجل في اقصى خراسان ، يخشى غضب زياد ويخاف ان تمتد اله يد القسوة الجائرة ! وقد رأيت فيما مر من الفصول ، كيف كان رجال علي أعداء بني امية ، يستخفون في ظلام الليل ؛ لينظروا في امر الشيعة ، ويمهدوا لها اسباب القوة والظهور .

على ان زياداً لم يكن يجهل ذلك .

كان يعلم ان القوم يجتمعون في منزل سليمان بن صرد .

وكان يستعرض بذهنه ، جميع عشائر الكوفة ، ويعدّ الرجال الذين هم دعوة علي .. وهو مؤمن بأنه قادر على اخماد نارهم اذا سعّروها في العراق .

ولكن كان يقول لأصحابه :

الويل لهم اذا خرجت من أفواهم ، على مسمع من الناس ، كلمة لعن ... لهم عبرة بحجر بن عدي . من اجل ذلك كان معاوية يحبه ، ويؤثره على معظم عماله ، في الحزم ، والجرأة وشدة المراس . ومن اجل ذلك ، كان زياد يمعن دلاله ، ويسأل معاوية قضاء حاجاته وحاجات من ينتمي اليه .

وامير المؤمنين يجود عليه ، بما يبخل به على معظم الرجال ..

فلما كانت السنة الثالثة والخمسون ، اشتدت شهوة زياد الى التوسع في الحكم واحسّ كما قرأت ، بأن الكوفة والبصرة مجال ضيق لطموحه ؛ فكتب ال

معاوية يقول : إني قد ضبطت العراق بشمالي ويميني فارغة .
فأشغلها بالحجاز !! فلما انتهى الكتاب الى دمشق كان يزيد بن معـــاوية في مجلس أبيه ، فدفعه اليه قائلاً : رأيك يا يزيد ؟
فقرأه ثم قال : يريد ان توليه الحجاز !
– نعم .   – وماذا يبقى لسواه ؟
قال : لاتنظر الى هذا بل انظر الى عمله في العراق ، ايستحق أن يكون أمير الحجاز كما هو أمير البصرة والكوفة أم ماذا ؟
قال : انه يستحق ذلك ولكن ليس من الرأي أن يخطو هذه الخطوة الواسعة وحولك رجال كثار أهل للولاية .
قال : نخشى أن يعظم شأن الحسين بن علي في المدينة .
– ليس هنالك ماتخشاه وعامل المدينة سعيد بن العاص .
قال : سنعزل سعيداً في هذا العام .   – لماذا ياأمير المؤمنين ؟
– لاننا أمرناه بان يهدم دار مروان بن الحكم ، ويقبض أمواله كلهـــا ، ويسترجع « فدك » التي وهبناها له ، فلم يفعل .
– وهل كان مروان عدواً لامير المؤمنين ؟
– لا ،وانما يريد امير المؤمنين أن يوغر صدر الواحد منهما على الآخر ويجعلهما عدوين الى الابد ..!   – وما هي الغاية من هذا ؟
– تلك هي السياسة التي تجهلها أنت ..
فجعل يزيد ينظر الى أبيه نظرات الاستغراب . فابتسم معاوية قائلاً :
بلغني أن سعيداً يقول لمروان : انك تصلح للخلافة بعد معاوية .
– ومن نقل اليك هذه الرواية ؟   – رجل يشهد مجلس ابن العاص .
– قد يكون كاذباً يامولاي .
وقد تكون الرواية صحيحة فيحدث في الحجاز بعد حين مالا نحب أفهمت الآن ??
– لا .   – يظهر أنك نسيت أمر المبايعة بولاية العهد .

– وما شأن المبايعة الآن ؟ – نخاف أن ندعو اليها الناس فيتنحى سعيد ومروان وترتفع الاصوات في الحجاز تدعو القوم الى الخلاف .

فحنى يزيد رأسه ، مؤمناً بذلك الدهاء الذي ليس له حد ، ثم قال :

ومن تختار للولاية بعد سعيد ؟ – نختار مروان نفسه اذا لم يكن زياد ! !

– والآن ؟ أما الآن فسنكتب لزياد عهـــده على الحجاز . . . اكتب أنت يابني هذا العهد فزياد يعرف اليد التي كتبته . .

فكتب الأمير ما أملاه عليه ثم دعا معاوية رسول زياد قائلاً :

قل لامير الكوفة ان يمينه قد امتلأت الآن وقد وليناه الحجاز . . .

ودفع اليه الكتاب وأمره بالانصراف . فلما خرج قال يزيد :

أراك تخاف الرجال الأقوياء ، على الخلافة : ولاتخاف زياداً .

قال : ليس لزياد رجال يمشون وراءه ويرفعونه الى العرش . انه رجل شدة ورجل سيف ، والناس يخافونه في الاقليم الذي يقوم به ، ولايخافونه في سواه .

– وماذا يقول الناس غداً ؟

– يقولون إن امـير المؤمنين لا يولي الرجال إلا اذا كانوا مثـل زياد . وإنا لنرضى بأن يصير جميع الرجال مثله .

– بل يقولون انه إيثار غريب لم يتعودوه في الاسلام وستأتيك الوفود من الحجاز حاملة اليك اخبار الثورة .

قال : رجال قريش في الحجاز اليوم ، أضعف من ان يثوروا ، وزياد بينهم ، وأمير المؤمنين يعرف رجـال السياسة واحداً واحداً حتى ليعلم ما يجـول في الصدور . وخطر له خاطر فقال : علي بواحد من الحراس ، فتسابق الغلمان ينقلون أمره الى رئيس حرسه .

فلما اقبل الحارس قال له : تخلع لباس الحرس وتسير الى الكوفة لابساً لباس أهلها ثم اذا رأيت ان تنصرف منها الى الحجاز فافعل .

– وماذا اصنع يا أمير المؤمنين ؟

– لقد جعلنا زياداً عاملاً لنا على الحجاز وهو في الوقت نفسه عامـل البصرة

والكوفة ، وقد بلغنا ان في القوم من لا يرضى بهذا ، فإذا أتيت الكوفة فاسمع أقوال اهلها ثم تنتقل الى الحجاز مع زياد فتسمع اقوال اهله . — وبعد ذلك؟

– تعود الينا وأنت حافظ ما سمعت .

قال : سأكتب اسماء الرجال وأحفظ كل شيء .

– ولا تنسَ أن تسأل انصار بني امية عن انصار علي وتحصي على هؤلاء أنفاسهم وتسير وراءهم الى المساجد والاسواق .

– وهل بقي شيء آخر تأمرني به .

– بقي أن ترافق رسول زياد الى الكوفة فقد انصرف منذ لحظة واحذر أن يعرف من انت . فانصرف الرجل وهو يقول :

سيعلم الناس غداً أني من بني مذحج المقيمين وراء الحيرة .

وأقبل سرجون في تلك الساعة،فقال له : أين هو رسول جنادة بن ابي امية؟

ـ في الرواق يا امير المؤمنين . ـ وكتبتَ الى جنادة جواباً ؟

ـ اكتبه عندما تأمرني بذلك . قال : ماعرفنا غايته من الكتاب..هو يقول ان بالقرب من القسطنطينية جزيرة يريد ان يفتحها ثم يقول انها لا تبعد عن الشاطىء . ـ ولكنك قلت يا مولانا أنك عرفت الجزيرة .

ـ اجل عرفناها فهي بعيدة عن القسطنطينية . ومع ذلك فنحن لانسأل عن هذا بل نعجب لكتابه ونحن قد أمرناه بأن يفتح للاسلام كل جزيرة وكل بلد لم يفتحه المسلمون من قبل دون أن يشاور ..

ـ هو يخشى يا أمير المؤمنين ان يخسر بعض جيشه في حصار الجزيرة فتغضب عليه وهذا ما لا يطيقه . قال : لا بد للفاتحين من ان يخسروا الجيوش ، والدول القوية لا تبنى إلا على جثث الرجال .

« والجزيرة التي شاور جنادة معاوية في امرها هي جزيرة ارواد وقد فتحت في السنة الرابعة والخمسين ، ويقول بعض المؤرخين انها فتحت قبل ذلك » .

فقال سرجون : وماذا اكتب اليه ؟

ـ مره بأن يفتح البر والبحر اذا استطاع ، وليقم المسلمون بالجزيرة بعد الفتح

حتى يصل اليهم أمر آخر .

وبينما هو يهم بالذهاب الى المسجد ، دخل حاجبه يقول : رسول من الحجاز

قال : ليحضر فقد حدث في الحجاز حادث .

ومثل الرجل بين يديه فسأله قائلاً : ماهي أخبارك ؟

قال : مات عبد الرحمن بن ابي بكر وهذا كتاب الامير سعيد بن العاص ينعاه اليك ، وعبد الرحمن من أولئك الرجال الذين يخافهم معاوية على الخلافة بعد أن يتولاها يزيد ، فقال : مات في المدينة ؟

- بل مات ياأمير المؤمنين على الطريق بينها وبين مكة .

- وكان مريضاً ؟ - لا ولكنه نام نومة مشى اليه فيها الموت ..

قال : انظر ياسرجون أترى في كتاب سعيد غير هذا ؟

- ان فيه أشياء يا أمير المؤمنين . - ماذا ؟

- يقول انه ليس من الرأي أن يهدم دار مروان بن الحكم كما أمرته ويسألك أن تغض الطرف عن ذلك .

فابتسم قائلاً : عرفنا ذلك قبل ان يكتبه ، وهل تجد شيئاً آخر . - لا.

فقال للرسول : عد أنت وقل لسعيد أن جوابنا سيأتيه .

ثم جعل يقول : لم يكن عبد الرحمن بن ابي بكر على شيء من الهمة . . . بل كانت له همة في النساء واللهو ... واذا رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله .

ونهض قائلاً : الى المسجد .. الى الصلاة .. الى الصلاة .

•

٢٩

بلغ أهل الحجاز أن معاوية ولّى زياداً أمرهم فاضطربوا وتنادوا الى الاجتماع.

وكانوا يرون ، أن الوباء والبلاء ، أخف وطأة منه .

ثم أتوا عبد الله بن عمر بن الخطاب فذكروا ذلك له .

فقال : اسألوا الله أن يكفيكم شره .

فاستقبلوا القبلة وجعل يقول وهم يرددون قوله : اللهم اكفنا شر زياد .

وكان زياد ، عندما انتهى اليه عهد أمير المؤمنين ، يهم بالسفر الى الحجاز لينظر في أمره ، ثم يعود الى الكوفة . ولكن الله استجاب دعاء الناس ...

نعم ، ان لكل مخلوق يوماً لايستطيع الفرار منه ، والويل للظالمين من ذلك اليوم الذي يمثلون فيه بين يدي الخالق عز وجل . أعدّ زياد عدة السفر ، وأعدّ الطاعون عدته من الناحية الأخرى ، فأصابه في اصبع من أصابع يده اليمنى !

فقال لمن حوله : عليّ بالطبيب فأنا أرى شبح الموت . .

وكيف يخاف زياد الموت ، وقد كان يقتحمه وهو على فرسه ، والسيف في يده ، بل كيف يخافه وقد كان رسوله الى الابرياء ! !

وأقبل الطبيب فقال : أرى أن تقطع هذه اليد .

ــ وهل أنجو ؟ . ــ لا أعلم فالحياة بيد الله .

قال : عليّ بشريح القاضي .

فأقبل شريح فقال له: لقد حدث ما ترى وقد أُمرت بقطع يدي. فما رأيك؟

قال : أبعد الناس عن الطب القضاة .

ــ ولكن اريد ان تشير عليّ .

قال : أخشى ان يكون الأجل قد دنا فتلقى الله وأنت اجذم .

ــ واذا كان في الأجل تأخير ؟ ــ تعيش اجذم وتعير بنيك .

قال : لا أبيت والطاعون في فراش واحد . فخرج شريح من عنده .

فتصدى له الناس يسألونه ، فخبرهم ، فقالوا : كان عليك ان تشير بالقطع .

قال : أشرت بما أعلم . وأراد زياد أن يبعد الطاعون عنه فقال : اقطعوها .

والقطع عندهم بالمكاوي والنار . فلما رأى الامير النار جزع وجعل يقول : لا أريد ان افعل ... إن الموت خير من هذا !..

ومر يوم لم يغمض له فيه جفن .

الحمّى تنهش أحشاءه ، والموت امام عينيه ، والطاعون الرهيب يلجّ في طلبه

وهو لا يتراجع ولا يلين كأن قلبه يشبهه في قسوته قلب زياد ..

حتى دنت الساعة فقال لولده عبيد الله وكان عند فراشه : لقد خاب الرجاء يا بني رجاء الموت .. فأجابه قائلا : هيأت لك ستين ثوباً أكفنك بها !!

قال : ولكن دنا من ابيك لباس هو خير من لباسه ..

ولم يلبث حتى أسلم الروح . فدفنوه عند الكوفة ، وقام في أذهان أنصار علي ، أن وجه السماء سيتغير بعد موته وسيبسم لهم الزمان .

وبلغ الخبر عبد الله بن عمر فقال يخاطب زياداً :

اذهب ابن سمية اذهب .. لا الآخرة أدركت ، ولا الدنيا بقيت لك ...

وكان عمره اثنتين وخمسين سنة . قال مسكين الدارمي[1] يرثيه :

رأيت زيادة الاسلام ولت ، جهاراً حين ودعنا زياد

فأجابه الفرزدق ، ولم يكن قد هجا زياداً :

أمسكين أبكى الله عينيك انما ، جرى في ضلال دمعها فتحدرا
بكيت امرءاً من أهل ميسان كافراً ككسرى على عدوانه أو كقيصرا
أقول له لما أتاني نعيه ، به لا بظبي بالصريمة اعفرا

وأقبل الناس يسألون عن الرجل الذي استخلفه على الكوفة .

فقال لهم شريح : استخلف عبد الله بن خالد بن أسيد .

وكان على البصرة ، سمرة بن جندب .

•

٣٠

مات زياد في رمضان . فلما نعاه الناعي لمعاوية قال :

انا لله وإنا اليه راجعون لقد أراد الله غير ماأردنا .

ثم قال للرسول : من يقوم اليوم مقام زياد في الامارة ؟

- عبد الله بن خالد ياأمير المؤمنين . — والناس راضون ؟

– نعم . وكان الحارس الذي أرسله إلى الكوفة قد عاد ، فدعاه اليه قائلاً : أتعرف عبد الله بن خالد الذي استخلفه زياد قبل موته ؟

– رأيته يوم دفنوا زياداً ثم رأيته في المسجد . – وماذا يقول الناس ؟

– هذا يقول أحسن زياد والآخر يقول أساء . – ورأيت أبناء زياد ؟

– رأيت اكبرهم عبيد الله وراء جثة أبيه وهو مطرق ، وخيل الي ، عندما رفع رأسه ، ان نار الغضب تتقد في عينيه . .

– اذن لم يكن عبيد الله راضياً بما فعله أبوه ؟ – هذا ماظهر لي .

– وأنصار علي ؟ – عرفتهم واحداً واحداً يامولانا .

– وشيعوا زياداً ؟

– نعم شيعوه دون ان تظهر على الوجوه آثار الحزن . . .

فطوى معاوية وسادة كانت بين يديه وجعل يقول :

يريد الناس أن تندب الشيعة قاتلها وترثيه ... وماذا فعلوا بعد دفنه ؟

– انصرفوا الى منازلهم ثم اجتمعوا عندما جن الليل في منزل سليمان بن صرد.

قال : نعم في منزل سيدهم سليمان بن صرد ، ليفعل سليمان مايطيب له فنحن لانخافه وعندنا له دواء ، ثم قال : وكان القوم كثاراً ؟

– اكثر من أربعين رجلاً ياأمير المؤمنين بينهم عمرو بن الحجاج الزبيدي الذي كان مقيماً بالغوطة في بني سعد . فوضع يده على جبينه قائلاً :

عرفناه . . ونحن نرى أنه سيترك شيعة علي يوم تغير الخيل على الخيل .

– ومسلم بن عوسجة ؟ .

– أما مسلم فليس في رجال الشيعة أصلب عوداً منه .

– وشبث بن ربعي . – هذا فارس من فرسان الميادين .. ولكنه يلبس لكل يوم حلة وقد يراه الناس يوماً في صفوف بني أمية . . .

– وسويد بن المطاع وحبيب بن مطهر . فجعل يهز رأسه ويقول :

لو كان أهل الشيعة جميعهم مثل هذين الرجلين لحطموا الخلافة . . .

– والضحاك بن عبد الله المشرفي ؟

– لقد خبرنا هذا الرجل من قبل فهو لايثبت في مجال . . .

– وهانىء بن عروة المرادي ؟ – يحب علياً ولكنه بعيد عن الشر . . واطرق ساعة وهو يفكر . .

كان يريد أن يخلق رجلاً شديداً قاسياً مثل زياد . .

ان الخلافة لاتثبت بعده ليزيد إلا اذا وضع السيف في رجال بني هاشم وساق المترددين بالسوط .

وكان يستعرض الرجال فلا يجد من يوليه حتى انتهى في استعراضه الى عبيد الله بن زياد فقال لأصحابه : صفوا لنا عبيد الله .

فقال مسلم بن عقبة المري : إذا قيل لك يا أمير المؤمنين ان تصف زياداً أفلا تفعل ؟ – بلى . – إذن تستطيع ان تصف عبيد الله بمثل ما تصف أباه .

فأشرق جبينه قائلاً : في حزمه وجرأته ؟

– وفي قساوته وشدته .. – ونظن أنه لا يجاوز الثلاثين من العمر .

– انه في الخامسة والعشرين يا امير المؤمنين .

فخفض صوته وجعل يقول : لم يبق إلا أن نختبره كما خبرنا سواه .. ولكنه لم يفكر في امير المؤمنين وكان عليه ان يجيء ..

– اذا لم يأت اليوم أتى غداً . – نظن انه سيجيء في اول العام .. لننظر الآن في امر الحجاز .. فنحن لا نطيق ان نبقي سعيداً في ولايته .

فقال يزيد : بقي من السنة شهر يا امير المؤمنين فاصبر حتى ينقضي .

قال : نكتب كتاب العزل ولا نبعث به إلا بعد شهر .. لقد راجعنا سعيد فيما أمرناه به مرتين ، وكتبنا اليه كتابين وهو لا يبالي . اكتب يا سرجون :

من امير المؤمنين الى مروان بن الحكم :

لقد وليناك امر المدينة وعزلنا سعيد بن العاص ، فاذا أتاك كتابنا فاقبض امواله واهدم داره والسلام .. فكتب سرجون ما أمره به ودفع اليه الكتاب .

فنادى المختار صاحب حرسه وقال له : عندما ينقضي آخر يوم من هذا الشهر ، تبعث بهذا الكتاب مع رجل من رجالك الى مروان بن الحكم في المدينة ..

اسمع .. تبعث به دون أن تسألنا او تسأل احداً والويل لك ان لم تفعل .

فحنى المختار رأسه ولم يقل كلمة . ثم قال معاوية لوزرائه :

لا بدّ لأمير المؤمنين من ان يختبر طائفة من الرجال ، بعد موت زياد وسنبدأ بالبصرة .. ما رأيكم في سمرة بن جندب ؟

قالوا : هذا ولاّه زياد وكنت يا امير المؤمنين راضياً عنه .

– ولكنه كان رجلاً وزياد حي ، أما اليوم ، فنحن نرى ، انه سيضيع في البصرة كل شيء وعزله خير لنا وله . قال يزيد : ومن يخلفه ؟

قال : يقيم ببابنا منذ ثلاثة اشهر رجل تعرفونه هو عبد الله بن عمرو بن غيلان وقد سألنا ان نوليه .

قال : أرى أن تجعله يا امير المؤمنين ، على خيلك في احدى الساحات ...

– بل نوليه البصرة بضعة اشهر ، فاذا رأيناه أهلاً للولاية رفعناه وإلا فالعزل لا بد منه .. ماذا تقولون ؟ فسكت القوم .

فقال : يا غلام ، عليّ بعبد الله بن عمرو .

فدخل وسلم ، فقال له : ماذا تعلم عن احوال البصرة ؟

فعرف الرجل غايته فقال :

أعلم أنها فسدت في عهد عبد الله بن عامر . – ومن أصلحها ؟ – زياد.

– وتعلم أن زياداً لم يكن أشد وطأة على أهل البصرة من سمرة بن جندب ؟

– نعم . قال : خطر لأمير المؤمنين الآن أن يعزل سمرة ويوليك ، فهل تعرف انت أن تضع الشدة في موضعها والعفو في موضعه ؟

– أعرف ذلك يا أمير المؤمنين .

– وعندك الحلم الواسع والسيف القاطع ؟ – نعم يا أمير المؤمنين .

– واذا كذبت الظنون وضاع الأمل ؟

– انصرف الى منزلي وأنا أتعثر بالفشل .

– اذن فانت والي البصرة فأعدّ عدة الرحيل .

فسار الرجل والزهو يملأ بردتيه .

فلما انتى الى سمرة خبر عزله ، في مطلع السنة الرابعة والخمسين ، قال لقومه : لعن الله معاوية والله لو أطعت الله كما أطعته ماعذبني ابداً .

•

٣١

أحبها وأحبته حباً ، لاتجد في أقاصيص الهوى ، وحكايات الغرام أبعد أثراً في القلوب منه . أجل ، كانت امامة مؤمنة ، بان الله مسح عبد الرحمن ملكاً على فتيان الاسلام . في شبابه وشرفه ، ومروءته وعزة نفسه .

وكان عبد الرحمن مؤمناً ، بان امامة حورية من الجنة ، وان حياته الضاحكة ، هبة من ثغرها الفتان وعينيها الذابلتين .

انه حب طاهر قوي ، يخفق عليه قلبان لم يعرفا الغرام من قبل .

ولكنك ترى ، وانت تلمس بيدك روعة هذا الحب ، مظهراً من مظاهر اللعب ، يقوم به غلام وفتاة ، في الرابعة عشرة من العمر . تغني امامة اذا غنى عبد الرحمن .. وتضحك اذا ضحك ، وتذرف الدموع اذا اكفهر وجه الحبيب .

وابتسامة واحدة تبدو على شفتي احدهما ، تمحو لوعة الآخر وتعيد الى النفس مرحها ، والى القلب بهجته . عاشقان يتشاكيان الهوى ويلعبان .. . وانه لغرام عجيب ، يزول كل شيء حوله ولا يزول .

وكان شبث بن ربعي ، قد نقل الى ولده الربيع ، فشله في مهمته ، وخبره ان امامة هي التي اختارت الفتى الآخر وآثرته عليه . والربيع في زهرة عمره ، إذا أحب عرف كيف يحب ، واذا أبغض عرف كيف يبغض .

فاشتعلت نار الكبرياء في صدره ، وأحس بعاطفة حقد هائل تضطرم في أعماق نفسه وبدأ ينظر الى عبد الرحمن ، نظره الى عدو له .

وعبد الرحمن بريء كما رأيت ، وليس له يد في ذلك الاختيار . . وانما كان ذنبه أنه أحب الفتاة وأحبته هي .

والربيع لم يكن عاشقاً برّح به هواه ، بل كان طالب زواج ، بفتاة من بنات العشائر النبيلة ، النازلة في الكوفة ، والتي لها مقامها بين العربان .
على أن الفشل صيره من العشاق ، ولو نظرت في أمر غرامه ، لرأيت أن ذلك الغرام عاطفة كبرياء ، لاعاطفة حب ووفاء . ولكن اباه ، اباه الشيخ الذي خبر الزمان ، لم يبالِ بما رأى وسمع في منزل ابن الحجاج ، بل كان يقول لولده :
سأختار لك فتاة من بنات كندة لاتذكر معها نساء بني زبيد ، أو من ربيعة التي كانت نساؤها فتنة العرب . فيقول : اما امامة أو العيش في الميادين !
– ولكنها مخطوبة يابني . – اجل ، غير أنها لاتتزوج إلا إذا جاوزت العشرين وهذا معناه أن المجال رحب ، والايام بيني وبين عبد الرحمن .
- وبماذا أساء عبد الرحمن ؟ – لا أعلم بماذا أساء ، ولكني أعلم أمراً واحداً هو أني أبغضه كما كنت أبغض زياداً . .
- ذلك كان عدواً لك ولأبيك .
- أما اليوم فعدوي مسلم بن عوسجة وقد نسيت عداوة زياد .
قال : انك لاتدري يابني ما تقول . – بل أدري ما أقول وما أفعل . .
أتستطيع أن تذكر لي ذلك السبب الذي دعاك الى الدفاع عن آل عليّ ؟
- أحببت علياً في حياته ، ثم أحببت بنيه بعد موته .
- وماذا صنع هذا الحب ؟ بايعتم الحسن فنزل عن حقه لمعاوية وتخلـّى عن كل شيء ثم مات مسموماً في المدينة فخاب الرجاء . قال : رأى الحسن رحمه الله ان ترك الخلافة خير من فتنة تهلك فيها الطوائف من المسلمين .
- ورأى الحسين أن يرحل الى المدينة ويقيم بها وأنصاره في الكوفة يمشون في الاسواق واحداً واحداً لايجسرون على الاجتماع الا في ظلام الليل ، واذا رأوا رجال الشرط لجأوا الى المنازل يحتجبون وراء الجدران . . !
قال : ويلك ماهذا ياربيع ؟ – وما هذا ياأبي ؟ انه أمر يجب أن ننظر فيه قبل أن نضيع العز ونخسر النفوذ الذي يسود العشائر .

فانتهره قائلا : بل هو كلام يمليه جنون الهوى و كبرياء الشباب ، أتخرج عن دعوة أهل الصلاح ، من أجل فتاة أحبت جارك ابن مسلم ؟

– لا ، لا أخرج عنها من أجــل امامة ، بل من أجل هذا الجزاء الذي لقيته أنت بعد جهاد السنين في سبيل بني هاشم . – وأي جزاء هذا ؟

– هو الذي كنت تراه كل يوم ، من زياد قبل موته ، والذي تراه اليوم من عبد الله بن خالد . قل لي ياأبي كم ليلة بت مطمئناً في فراشك منذ حملت السيف مع علي الى اليوم ؟ قال : لو كان الأمر في يد آل علي لكانت الإمارة جزاء لي ومع ذلك فأنا لا أطمع بالدنيا بل أنظر الى الآخرة ، وكلما فكرت في ذلك الخليفة الصالح الذي يلعنه بنو أمية ، في المساجد ، تتجه نفسي الى الله وهي مؤمنة بانها صنعت مايجب أن يصنعه كل مسلم .

– ولكن علياً قتل ومات الحسن ، والحسين واخوته لايطمعون بالخلافة على ما أرى فأي رجل اذن تريدون ان تولوا .

نتظر في هذا الأمر يوم تدعونا الحاجة الى النظر فيه .

– ولكني أريد أن أعلم ذلك . . – لماذا ؟

– لأن الرأي يقضي بأن أعرف الرجل الذي أبغض معاوية واحاربه من أجله.

– انه الحسين . – وأين هو الحسين ؟ إنه في الحجاز ، فاذا اراد أن يكثر انصاره فليخرج من المدينة وليأت العراق .

قال : لم تأت الساعة بعد .

– اذن فاترك الدفاع عنــه ، وادخل في صفوف بني أمية ليعرف معاوية مقامك ويرفعك الى العلاء . . قال : ان معاوية لايفكر إلا في أصحابه .

– وستصير أنت من هؤلاء الاصحاب . . ثم قال :

لقد حملت السيف يوم الجمل ، ودافعت عن علي يوم صفين ثم تركت علياً ومشيت مع الخوارج الى حروراء ، ثم رجعت الى الشيعة ووضعت يدك في أيدي أعداء بني أمية وأنت اليوم عدو معاوية . . أليس كذلك ؟

– بلى . – ولكن قل لي أي شيء ربحته من كل هذا ؟

فأطرق شبث ثم جعل يقول : لم أربح شيئاً . .

– واذا قضيت زمانك كله مدافعاً عن آل علي فماذا يكون لك من وراء هذا الدفاع ؟ – قلت أني لا أطمع بالدنيا ، وهذا يكفي .

– لا . لايكفي هذا . . بل يجب أن تعد لبنيك مستقبلاً زاهياً ، حافلاً بالمنى ، فياضاً بالنعم .. قال : لبني أن يفعلوا مايطيب لهم بعد موتي .

– بل يفعلون مايقربهم الى أمير المؤمنين وأنت حي ..

فخفض صوته قائلاً : لقد كنت من قبل جندياً باسلاً من جنود الشيعة .

– وكنت انت من قبل جندياً باسلاً من جنود الخوارج ثم رأيت أن الشيعة أولى فمشيت في صفها لاتبالي بالموت الذي فاجأ حجر بن عدي .

– وما معنى ذلك ياربيع ؟

– معناه أنك رجعت الى نفسك فوجدت أن الخوارج لم يكونوا على صواب، فتركتهم ولجأت الى أنصار علي ، واني أنا الآن ارجع الى نفسي والجأ الى بني امية . – ألم تقل الآن اما امامة أو العيش في الميادين ؟

– قلت ذلك وأنا أقوله مرة ثانية ..

– ولكن اذا دافعت عن معاوية خسرت امامة .

فابتسم الشاب قائلاً : لي في هذا رأي لم أذكره لك .

– ماهو ؟ – هو أن عمراً بن الحجاج سيترك الشيعة .

– ومن قال لك ذلك ؟ – اني واثق بالامر كما أثق بنفسي وسترى .

قال : اذكر ماتعلم . قال : أشهد مجالس الشيعة في منزل سليمان ، وأرى رجالها يتنادون الى حمل السيف فتتصدى لهم أنت ويقوم عمرو وراءك فيعرض لهم.

– يفعل ذلك فراراً من الخيبة فالسيف لاينفع وابن ابي سفيان سيد الموقف وخليفة المسلمين .. قال : لو كان في صدره ، مافي صدور اصحابه ، من عقيدة وايمان ، لما تردد في الخروج على معاوية .

قال : رميت ابن الحجاج فأصبت أباك قبله . . اني أول المترددين فيما ذكرت فأنا اذن لاعقيدة لي ! ! – أتأذن لي أن أقول كل شيء ؟

– قل . – أصحاب العقيدة في شيعة العراق اربعة رجال هم : مسلم بن عوسجة، وحبيب بن مطهر ، وسويد بن المطاع، ويجيء بعدهم هانيء بن عروة ..!

– والباقون ؟

– أما الباقون ، فالريب يملأ نفوسهم ، واذا اجتمعوا ، فانما ، يجتمعون بالجسم ، وروح الدعوة .. روح الثبات في المبدأ ، بعيدة عن دار سليمان . .

فقال شبث في نفسه : صدق الربيع . . . اني انا شبث بن ربعي ، رجل الحرب وفارس الخيل ، لاهم بأمر حتى احس بداء التردد يشل قواي . . ! ثم قال: هب ان الأمر كما وصفت فماذا ترجو ؟

– ان عبد الرحمن سيتزوج بعد ستة اعوام ، فأنا ارجو ، ان يمسي عمرو بن الحجاج في خلال الأعوام الستة ، من انصار معاوية .. – واذا حدث ماتقول ؟

– يقوم الجفاء ، مقام الولاء ، بين مسلم وابن الحجاج ، ثم يمنع مسلم عبد الرحمن ، من أن يتزوج ابنة عدوه !.

– وتظن ان امامة ترضى عندئذ بأن تزف اليك ؟

– ليس لي ان اظن شيئاً الآن فكل آت قريب .

– وعلى اي امر عولت الآن ؟ – على ما قلت ..

– وتجاهر بالعداوة ؟

– بل اظهر بمظهر الصديق الذي نسي ما مضى حتى تأتي الساعة ...

وكان شبث ، ضعيف الارادة كما رأيت ، كثير التقلب في عمله ورأيه ، يمشي في هذا الصف ثم يتحول بعد حين الى الصف الآخر ، وهو في تقلبه قوي الساعد ولكنه لا مبدأ له ...

والناس يعرفون الشيء الكثير عنه ، وماضيه ، مع علي ، ومع الخوارج تردده الأفواه ، ولكنهم كانوا يرغبون في الدنو منه ، طمعاً بسيفه ...

ولو استطعت ان تقرأ ما في نفسه، لرأيت ان اخلاصه لآل علي اخلاص متداع واهي الدعائم مزعزع الاركان .

من اجل ذلك لم ينه الربيع عما يهم به، إلا ذلك النهي الضعيف الذي لاقوة فيه

ولا سلطان .. وقد اكتفى بأن يقول ، قبل ان يترك ولده :

دع عبد الرحمن وامامة . ودع بني هاشم وبني امية ، الى يوم تنقلب فيه الحال ، ويتسع المجال . واكتفى الربيع بأن يقول :

والله لو حارب معاوية آل علي ، لمشيت في طليعة جيشه ! ! .

•

٣٢

انتهى كتاب أمير المؤمنين الى مروان بن الحكم ، ذلك الكتاب الذي يوليه فيه أمر المدينة ، ويعزل سعيداً ، ويأمره بأن يقبض ماله ويهدم داره .

وكان سعيد قد وضع كتابي معاوية عنده ، وفي الكتابين أمر صريح ، بان يهدم دار مروان ويقبض أمواله ! فلما قرأ مروان الكتاب قال لقومه :

هذا أمير المؤمنين يأمرني بان أهدم دار سعيد ، وسأفعل الليلة . .

فقالوا له : بل تصبر الى الصباح فذلك خير لك .

فبات ليلته ، ثم مشى في صباح اليوم الثاني والناس وراءه حتى بلغوا دار ابن العاص فأطلّ سعيد فرأى القوم ، فقال لمروان : أي شيء هذا يا أبا عبد الملك ؟

قال : لقد عزلك أمير المؤمنين وولاني .. قال : سمعت وأطعت ثم ماذا ؟

- وكتب اليّ أن أقبض مالك وأهدم دارك .

قال : أو تفعل ؟ — نعم ولو كتب اليك في هدم داري لفعلت .

قال : ما كنت لأفعل هذا ولو قتلت .

قال : بلى والله . قال : ائذن لي أحدثك ساعة .

فدخل مروان الدار ، وجلس ، وجلس بعض أولاده بالقرب منه .

فقال سعيد لغلامه : ائتني بكتابي معاوية .

فجاء بهما فقال : خذ واقرأ ياابن العم . .

فلما قرأهما اكفهرّ وجهه وارتجفت شفتاه ، ثم قال :

كتب اليك فلم تفعل ولم تعلمني ؟ !

– أجل ، وانما أراد معاوية ان يوغر الصدور .

فقال انك والله خير مني ، ووالله لا أهدم لك داراً ولا اقبض مالا بل اعود من ساعتي . وقام فزجع .

فكتب سعيد الى معاوية :

العجب مماصنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا يضنُّ بعضنا على البعض الآخر .. العجب من حلم أمير المؤمنين ، وصبره على مايكره ، وادخاله القطيعة والجفاء بين أبناء العم ! ! أما والله لو لم نكن أبناء أب واحد لما اجتمعنا على نصرة عثمان الخليفة المظلوم ، وكان حقاً عليك يا أمير المؤمنين أن ترعى ذلك . .

فأجابه معاوية يعتذر ، وقد جاء في كتابه : سنعود الى أحسن ماتعهد .

فقدم سعيد دمشق واستأذن على معاوية . وكان قد استأذن قبله ، شاب طويل القامة صغير العينين أسمر الوجه فسأل عنه فقيل له :

هذا عبيد الله بن زياد .

ثم أقبل حاجب الخليفة يقول : ادخل يا ابن العاص .

فدخل ، ورجال معاوية يغص بهم المجلس .

فمدَّ معاوية يده مبتسما وجعل يقول : أهلاً بابن العاص . . . كتبنا اليك ولم يخطر لنا أنك ستجيء ... نعم سنعود الى أحسن ما تعهد . . . اجلس .

ثم اختفت تلك الابتسامة ، وحوَّل نظره الى عبيد الله قائلاً :

انت ابن زياد ؟

وقد بدأ عندئذ دور الاختبار . . فقال عبيد الله : نعم ياأمير المؤمنين

قال : لقد ذكرناك منذ أيام وقام في الذهن انه لابدَّ لك من أن تأتي دمشق

وأمره بالجلوس ثم قال : من استعمل أبوك على الكوفة ؟

– ان أمير المؤمنين يعلم ما أعلم . قال : يعلم أمير المؤمنين كل شيء ويطيب له ان يسأل . . قل من استعمل أبوك على الكوفة ؟

– عبد الله بن خالد . – وعلى البصرة ؟

– سمرة بن جندب وقد عزلته .   قال : لو استعملك أبوك لاستعملناك ..
فرفع صوته قائلا : أخشى أن يقول لي أحدٌ بعدك . .
ثم سكت . . فقال : يقول ماذا ؟
– يقول لو استعملك أبوك وعمك لاستعملتك .
فأعجبه جوابه فقال : لقد كان ابوك سيد العمال والولاة .
قال : واني ابنه يا امير المؤمنين ... فأشرق جبينه وهامس سرجون قائلا : والله سأكتب له الليلة عهداً على خراسان .
قال : حسناً تصنع فأنا ارى همة زياد وفصاحة لسانه ..
قال : واذا رضي امير المؤمنين عن عمله ولاّه البصرة في العام المقبل .
– وسعيد بن العاص ؟
– أما سعيد فيستطيع أن يروح ويجيء في دمشق ريثما انظر في أمره .
– وهممت يا امير المؤمنين بعزل عبد الله بن عمرو عن البصرة .
– اجل فنحن نريد عمالاً اقوياء يمهدون اسباب البيعة ليزيد ولم يكن عبد الله من هؤلاء فقد خبرناه .   – ومتى تدعو الناس الى المبايعة ؟
– في هذين العامين فقد اتت الساعة ونحن نخشى أن نرحل عن الدنيا قبل أن نفعل .

وكان عبيد الله ينظر الى الاثنين وقلبه يضطرب في صدره فالتفت اليه معاوية وقال : اذن تخاف أن يقول لك احد بعدنا ما قلناه لك الآن .
– نعم يا مولانا .   – اتعرف بلاد فارس ؟
– لقد نشأت وتعلمت فيها ركوب الخيل وحمل السيف .
– وخراسان ؟   – وكنت في خراسان واحداً من اهلها وأنا غلام ..
قال : اكتبوا له عليها عهداً .. ولكن نوصيك بأن تتقي الله ولا تؤثرن على تقواه شيئاً واذا أعطيت عهداً ففِ به . – سأفعل ما تأمرني به يا اميرالمؤمنين .
– ووفّر عرضك من أن تدنسه ولا تبعن كثيراً بقليل ولا تطمعن احداً في غير حقه ولا تؤيسن احداً من حق هو له .. وخاطب الناس قائلا :

هكذا فليفعل كل مسلم . فدنا منه عبيد الله يريد أن يقبل رداءه .

فمد اليه يده فقبلها وهو يقول : ستعلم يا امير المؤمنين أن زياداً لم يمت ..

قال : هذا ما نريده فانصرف الى عملك واعلم أن لك وللمسلمين في خراسان طائفة من الاعداء . فقال الناس في نفوسهم :

اذا كان الولد سر ابيه فالويل لك يا خراسان ..

وخرج عبيد الله فبات ليلته في منزل مسلم بن عقبة ، وبدأ الناس عند الصباح يسلمون عليه بالامارة ، ثم انصرف والامل يملأ صدره بأنه سيصير والياً على الكوفة بعد حين . ومكث سعيد بن العاص اياماً بدمشق ومعاوية يعده بالامارة حتى مل ، فقال له : اتأذن لي في الرجوع الى الحجاز ؟

– اختر اي بلد شئت فسيأتيك امرنا. فعرف الرجل أنه سيعود صفر اليدين ولكنه لم يشأ أن يغضبه لأنه كان يعلم أنه سيأتي يوم يوليه فيه ...

•

٣٣

نحن اليوم في السنة السادسة والخمسين .

وقد عزل معاوية عبد الله بن عمرو عن البصرة، وولى عبيد الله بن زياد، وهو في الوقت نفسه عامل له على خراسان .وكان الجو في مطلع ذلك العام، صافياً في نظر معاوية ، والسلام يبسط جناحيه على الاقاليم .

والناس في كل بلد ، مستسلمون الى الهدوء ، خاضعون دون ان يترددوا أو يثوروا لكل ما يأمرهم به امير المؤمنين .

وكانت ولاية العهد ، تعكر على الخليفة الأموي صفو عيشه ، وهو يعلم ان هذا العيش لا يطيب له ، إلا اذا رأى الناس بعينيه وسمعهم بأذنيه يبايعون ابنه ، واية حكمه تقضي عليه ، بأن يصبر اكثر مما صبر ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره ، ونفوذه يملأ الخافقين وسادات العرب وامراؤها يحنون رؤوسهم له ؟ لله

أتت ساعة المبايعة فليتعجل فيها معاوية قبل ان يغمض الموت عينيه ، وقبل ان تمتد الى الخلافة ايدي الهاشميين ..

أفاق يوماً وهو يفكر في الأمر ، وقد قضى ليلته يستعرض ميول الأمراء في جميع الأقاليم حتى عول على المضي فيه ، في ذلك اليوم .

فقال لغلمانه : ادعوا الوزراء وامنعوا الناس .

فأقبل وزراؤه وهم يعلمون انه يدعوهم من اجل ولاية العهد .

وكان وجهه ضاحكاً في ذلك الصباح ، والعزيمة الصادقة بادية في عينيه .

فقال لهم : ليكتب كل واحد منكم كتاباً الى عامل من عمالنا يدعوه الى الثناء على يزيد ويسأله ان يوفد الوفود الى دمشق ، واكتب انت يا سرجون الى مروان بن الحكم دون ان تجيء في الكتاب على ذكر يزيد .

فتردد سرجون في الكتابة ، فقال معاوية : اكتب وانا أملي عليك :

لقد كبرت سني يا مروان ، ودقّ عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة ، وقد رأيت ان أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدي وكرهت ان اقطع امراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم واعلمني بالذي يردون عليك ، والسلام .

ثم قال : تبعث بهذا الكتاب الى مروان ، وبمئة الف درهم الى عبد الله بن عمر بن الخطاب ولا تنس ان تكتب الى الأحنف بن قيس ليجيء في وفد اهل البصرة فهو من اصحاب الرأي وله كلمته المحترمة في العشائر .

وقال لرجل آخر : واكتب انت الى محمد بن عمرو بن حزم في المدينة فانه مثل الأحنف في البصرة .

فلما انتهوا من كتابة ما امرهم به قال : لم يبق إلا ان نصبر هذا الشهر وبعض الشهر الآخر ريثما ترد رسائل القوم وتجيء الوفود.

ومرّ شهران ، فأتى جواب مروان يقول فيه : ان القوم يحبون ان تتخير لهم.

فكتب اليه ليدعوهم الى بيعة يزيد .

فقام مروان فيهم خطيباً قال : ان امير المؤمنين قد اختار لكم وقد استخلف ابنه يزيد بن معاوية بعده فما تقولون ؟

فقال احد اصحاب الشأن : « وبعضهم يقول انه عبد الرحمن بن ابي بكر ، وكان عبد الرحمن قد مات » . كذبت والله يا مروان وكذب معاوية ما الخيار اردتما لأمة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل !

وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك .

وفعل مثله عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

وكان ابن عمر يقول : أراد معاوية ان يشتري ديني بمئة الف درهم ، ان ديني عندي اذن لرخيص .

فخبر مروان معاوية بكل ذلك ، فقال لخاصته : هذا ماكنا ننتظره من اهل الحجاز فليفعلوا مايطيب لهم الآن فهم لايلبثون حتى يروا امير المؤمنين في المدينة ، وكان محمد بن عمرو بن حزم والأحنف بن قيس قد حضرا .

وأقبلت بعدهما وفود الأقاليم بينها الرؤساء والزعماء الذين كان معاوية يجود عليهم بالمال كل عام ، فأراد الخليفة أن يسبر الغور ، فقال لمحمد بن عمرو : مارأيك في يزيد ؟

قال : كل راع مسؤل عن رعيته فانظر من تولي أمر امة محمد .

فسكت قليلاً ثم أمره بأن يلحق به الى قاعة الجباية .

فلما فعل قال له : لك رأي ولنا رأي .

— وما هو رأيك يا أمير المؤمنين ؟

— هو أن تأخذ هذا المال الذي نهبه لك الآن ، وتنصرف راجعاً الى بلاد قومك دون أن تقول كلمة اخرى .

فلم يزد على قوله : سأنصرف اليوم يا أمير المؤمنين .

— بل الساعة . قال : الساعة .

فأمر سرجون بأن يعطيه عشرين الفاً وعاد الى مجلسه الذي يغص بالناس .

وكان يعلم ان الأحنف لايحب عبيد الله بن زياد ، والي البصرة الجديد ، وان عبيد الله لايحب الاحنف ، ولا يطيق ان يذكره أحد وهو حاضر ، ومعاوية لايعبأ بمثل هذا فللأحنف ان يحب من يشاء ، ولعبيد الله ان يبغض من يشاء . . !

كانت غايته واحدة .. هي ان يؤمن الناس بعدالته ، ويستسلمون الى مشيئته ، ويخضعوا له دون قيد ولاشرط ! بل كانت غايته ان يسلم الى يزيد صولجان الخلافة ، ثم ينزل بعد ذلك الى قبره ، وابتسامة الظفر على شفتيه ، وأي شيء يريده الخليفة الداهية ، من الاحنف بن قيس ، اذا هو ابغض ابن زياد ؟ أيريد أن يجعل الناس مخلصين لعبيد الله اخلاصهم للخليفة ويسيّر عاطفتهم الى الهدف الذي يتجه اليه هواه ، أم يريد أن يفعلوا مايطيب لهم على شرط أن لاتمتد لهم يد الى فتنة ، ولا يرتفع لهم صوت عند العرش ..؟ انه لايبالي الا بهـذا ، وقد يفتر ثغره عندما يعلم ، ان وجوه الناس ، يبغض بعضهم البعض الآخر ويمشي كل واحد منهم في صف ، اجل وان البهجة لتملأ قلبه عندما يدب الحسد في صـدور القوم وتكثر الوشاية في الاقاليم ، وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فالوشاية معناها الاختلاف ، ومعنى هذا الاختلاف أن الناس يتسابقون الى المناصب ، وانهم راضون عنه في خلافته ! وهو يعلم ان منزلة الاحنف في البصرة ، وفي معظم العشائر في العراق ، لاتذكر معها منزلة عبيد الله بن زياد ومـنزلة الامراء الذين يجعلهم عمالاً له ، نعم من حق عبيد الله ان يطيعه الاحنف لانه عامل الخليفة ، وليس للمرء مهما يكن شأنه ، ان يخرج عن الطاعة ، ولكن ليس من حق احد ان يكلف الناس ما لا يطيقون ..

كان الاحنف ، بعيداً عن زياد ابن أبيه ، وهو عامل البصرة ، ترجع أسباب ذلك البعد ، الى قسوة زياد وظلمه ، وجفائه وكبريائه ، وسيد بني تميم لايمد يده الى الوالي الظالم المستبد ، وجاء عبيد الله ، فظل الاحنف بعيداً عن قصـر الامارة كما كان بعيداً وزياد حي ، ونقل المقربون الى الوالي ، أولئك الذين يحرقون بخورهم على الاقدام ، ان السيد التميمي غير راغب في ولايته ، وانه أرفع من أن يخضع له . . فنشأ البغض ، ورددت الافواه اخباره ، فابتسم الاحنف ابتسامة السخرية والاستخفاف ، وكان يقول كلما ذكر عبيد الله : هذا هو الوالي المغرور .

ولكنه لم يفكر قط في الخروج عما دخل فيه قومه .

ومعاوية لاتفوته ظاهرة من ظواهر الرؤساء والامراء ، على انه كان يؤثر الاحنف على مئة رجل مثل عبيد الله .

ولماذا لا يفعل ذلك والاحنف عظيم عشيرته ، وهو رجل الحرب والرأي ، في حين أن عبيد الله فتى غرّ لا يطيب له إلا أن يقتفي آثار ابيه ، واذا غضب ابن زياد ، لا يتجاوز غضبه صدره ، وأمـا الاحنف ، فاذا غضب ثار بنو تميم وعمدوا الى السيف، وان هنالك شيئاً آخر لا يستطيع معاوية إلا أن يقف عنده، هو أن الاحنف بن قيس ، يرفع الرؤوس ويخفضها عندما يشاء ، ويسند المبايعة ويزعزعها عندما يشاء ، وابن زياد لا يستطيع ان يفعل شيئاً من هذا .. يقوم معاوية غداً فيدعو الناس الى البيعـة ، فيقوم الأحنف خطيباً في قومه قائلاً : لا نبايع بني امية ، وتمشي وراءه طوائف الناس ، ثم تمشي معهم الفتنة ، ثم تمتد.. حتى تنتهي الى الحجاز واليمن ، وقد تبلغ الشام ، ولا يبقى عندئذ إلا أن يزحف جيش الخلافة الى إخماد النار في جميع الاقطار . وهذا ما لا يريده امير المؤمنين، فخير له اذن ، ان يضع يده على النبض . ثم يهب المال بدون حساب حتى يستقيم له الأمر ، وهذا ما فكر فيه ، عندما دعا وفود الناس ، الى دمشق .

وكان انصار البيعة كثاراً في مجلس الخليفـة ، في ذلك اليوم ، ولكنه كان يخشى ان تخرج كلمة من فم الأحنف تفسد عليه ما يهم به ، فلما رجع من قاعة الجباية ، واستوى في سريره ، هامس الأحنف قائلاً له : إن شئت فادخل على يزيد.

فعرف سيد بني تميم ، وهـو العاقل الحكيم ، ان الخليفة يريد ان يجعـله من المقربين الى يزيد ، قبل ان يبايعه الناس ، فقام فدخل دون ان يقول كلمة .

وساد السكوت القوم ، ومعاوية مطرق يعبث بلحيتـه حتى اقبل يزيـد والاحنف خلفه والابتسامة على الشفاه .

فرفع معاوية رأسه وقال للضحاك بن قيس الفهري : ادنُ .

فدنا منه ، فقال وصوته لا يُسمع : إني متكلم الآن ، فاذا سكت ، فكن انت الذي تدعو الى البيعة وتسألني ان اتعجل فيها ، أفهمت ؟

قال : فهمت يا امير المؤمنين .

فقال للأحنف ، على مسمع من الناس : كيف رأيت ابن اخيك »

قال : رأيت شباباً ونشاطاً وجلداً ومزاحاً ..

قال : لقد علمتم جميعكم فضل الاسلام وحفظتم حرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة الخليفة والولاة ، وانكم تعلمون فضل يزيد وعلمه بالسياسة ...

فعارضه الضحاك قائلاً : يا امير المؤمنين ، انه لا بد للناس من والٍ بعدك .. وقد بلونا الجماعة والالفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وخيراً في العاقبة. ويزيد ابن امـــير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت ، وهــو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأياً ، فولّه عهدك واجعله لنا علماً بعدك نلجأ اليـه ونسكن في ظله ..

وقام عمرو بن سعيد الأشدق فقال مثل قوله ..

ثم قام يزيد بن المقنع العذري فقال : هذا امير المؤمنين ، وأشار الى معاوية ، فان هلك فهذا ، وأشار الى يزيد ، ومن أبى فهذا ، وأشار الى سيفه ..

فقال معاوية : اجلس فأنت سيد الخطباء .

وتكلم بعدهم وجوه الناس يسألون الخليفة أن يدعوهم الى بيعة يزيد ويلحون في الطلب كأن معاوية لا يريد ذلك ..

فقال للأحنف : ماتقول يا أبا بحر ؟

فقال : نخافـكم ان صدقنا ونخاف الله إن كذبنا .. !

قال : وماذا تريد أن تقول ؟

– إنك يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد ، في ليله ونهاره وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فان كنت تعلمه لله تعالى وللأمة فلا تشاور فيه وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة ...

وسكت قليلاً ثم قال : وانما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا ...

– وانتم يا أهل الشام ماتقولون ؟

فقال رؤساؤهم : ليس عندنا الا السمع والطاعة .

– وأنتم يا أهل الكوفة ؟ – مانريد غير يزيد يا أمير المؤمنين .

– ولكن هنالك من يريده غيره ... – في الكوفة ؟

– أجل في الكوفة . . – ان الذين لايرغبون في هذا يعرفهم الخليفة .

– نعم نعرفهم جميعهم ونعلم ماذا يصنعون .. افلا تعرفهم أنت يا أبا بحر كما نعرفهم نحن ؟

قال : لم احدث أحداً بهذا ولم يحدثني به أحد .

قال يكفي أن جميع الوفود بايعت الآن وسننظر بعد حين ، في أمر المترددين الذين لم يرسلوا وفودهم الى الشام .

فقال الضحاك بن قيس : اذن ينظر أمير المؤمنين في أمر الحجاز . .

فجعل يقول : الحجاز ... الويل للحجاز وأهله من يوم يضيق فيه الصدر .. قالها ومشى الى منزله كأنه يأمر الناس بالانصراف ، فتفرقوا ، وجعل الامراء والرؤساء يرددون قول الاحنف ويتحدثون بأمر جرأته وثبات جنانه . .

•

٣٤

غادرت الوفود دمشق ، راجعة الى المدن والقرى التي خرجت منها ، وهي ترى ان أمر المبايعة قد انتهى ، وبنو امية وانصارهم ، في كل اقليم ، يتحدثون بذلك الامر ، ويقولون للناس : ستبقى الخلافة الى الابد ، في بيت معاوية الاموي. والفرح يملأ القلوب ، والفتيان والغلمان ، في الشام والعراق ينشدون اناشيد النصر ، ويرفعون أصواتهم بالدعاء لولي العهد ، الا رجال الشيعة ، فقد استولى عليهم الذهول ، وكاد اليأس يدب في الصدور . .

كانوا يحاربون معاوية من وراء الستار ، وينشرون دعوتهم في ظلام الليل ليزعزعوا أركان العرش ، وهم مؤمنون بانهم سيبلغون الغاية ، ولكن معاوية فاجأهم بالبيعة ، وجعل ولده خليفة بعده ، لايبالي ببقية الصحابة والانصار اصحاب الحق في الولاية ، ولا يعبأ بأولئك الامراء ، أبناء الخلفاء ومن وراءهم

من اتباع ، وهذه البيعة ، صاعقة تنقض على رأس الشيعة ، وقذيفة ارسلها صاحب العرش ، لتمحو آثار خصومه من الوجود ، ورجال الشيعة في الكوفة ، فئتان كما رأيت ، فئة ضعيفة المبدأ ، ضعيفة الايمان ، والاخرى قوية ثابتة في العقيدة والحب ، تنقض الصواعق ولا تراجع الى الوراء .

على رأس الفئة الاخيرة مسلم بن عوسجة ، يقابله من الناحية الاخرى ، شبث ابن ربعي وولده الربيع ، على ان مسلماً ، لم يكن يعلم ، ولا يعلم رجاله ، ان الخوف يتردد في صدور اولئك الرفاق ، فلما انتهى الى الكوفة أمر البيعة ، اجتمعت الشيعة في منزل سليمان ، وقام هانيء بن عروة ، يقص على الرجال ما جرى ، يوم المبايعة ، في مجلس امير المؤمنين ، وكان قد عرف كل شيء ، من رجل يتشيع للأمويين ، وكان في دمشق .

فقال سليمان : وما الرأي الآن ؟

فأجابه شبث قائلاً : لم يبق للشيعة رأي في هذا لأن كل شيء قد انتهى الآن.

قال : لقد استقام الأمر لبني امية بعد البيعة ليزيد .

فابتسم وقال : وهل خرجهذا الأمر من يدهم قبل البيعة ؟ — لا .

– اذن ليس في القضية شيء جديد ، ونحن نعلم منذ بضعة أعوام ، انمعاوية يفكر في جعل يزيد ولياً للعهد . وكنا نحن نفكر في أمر آخر .

– ما هو ؟ — هو أن نولي الحسين بن علي أمور المسلمين .

– لقد رجعت الآن يا سليمان الى ذكر السيف .. — وأي سيف هذا ؟

– سيف الحرب فأنت لا تقدر على ما تقول إلا اذا برزت الشيعة الى الميدان ، ورفعت الحسين ، الى عرش الخلافة ، بقوة الرجال .

فقال مسلم : أصاب شبث ، فالقوة وحدها في هذا الزمان تهدم عرشاً وتبني آخر .. ثم قال لعروة : من هو ذلك الاموي الذي حدثك بأمر البيعة ؟

– رجل من كندة . — وكان حاضراً ؟

– أجل ، وسمع أقوال الخطباء وأقوال معاوية .

– وذكر لك اسماء الأمراء الذين بايعوا ؟

– ذكر لي وفود العراق كله وأهل الشام .   – والحجاز ؟

– لم يكن من وجوه الحجاز غير محمد بن عمرو بن حزم وهـــذا لم يبايـع بل انصرف بأمر معاوية ، قبل البيعة .   – والأحنف بن قيس ؟

– أما الأحنف فلم يشأ ان يكون من اصحاب الرأي بل سلـّم الامر الى معاوية.

قال : اذا كان هذا فيزيد سيكون خليفة الشام والعراق ليس غير .

– ومضر ؟   – لم تبايـع ، كما ان اليمن وفارس لم تبايعا .

– ولكن الولايات الثلاث الذين ذكرت ستبايـع غداً أو بعد غد .

– ومن قال لك ذلك ؟

– الكندي ، وقد زاد على ماقال ان معاوية سيسير بنفسه الى الحجاز ويدعو أهله الى ما دعا اليه أهل هذا القطر .

فالتفت مسلم الى سليمان قائلا : أتظن ان ابن الزبـير وابن عمر بن الخطاب ، والحسين يبايعون ؟

فتردد قليلاً ثم قال : من يعلم فقد تشتعل النار من أجل هذا .

فقال شبث : بل يبايعون مكرهين ، فليس في الحجاز كله رجـل يجسر على ان يخالف معاوية اذا حضر ..   – هب انهم خالفوه ..

– اذا فعلوا حصدهم السيف فابن ابي سفيان لايصبر على هذا ولايخضع لقوم هم أضعف منه .

قال لقد فكرت الآن في أمر آخر هو أنهم سينقضون البيعة عندما يلفظ معاوية الروح . قال : هو ذاك وليس لنا أمل الا بهذا ... ماذا تقول ياعمرو ؟

فقال ابن الحجاج : أرى ماتراه أنت فاذا طلبت الشيعة اليوم أمراً فاجأها معاوية بالجيش .

وكان عبد الرحمن بن مسلم في القوم ، فقال : أتأذنون لي أن اقول كلمة ؟

فقال سليمان : ماذا ياعبد الرحمن ؟

– أرى ان تكتبوا الى الحسين تسألونه الرأي . .

– وماذا يقول الحسين ان سألناه ؟ أيدعونا الى حمل السيف وهو يعلم اننا فئة

لليلة لاتثبت في الساحة ؟ بل ينظر في المبايعة فيأمركم بان تبايعوا او تمتنعوا .
فابتسم الربيع بن شبث ابتسامة أخفى وراءها آثار حقده ثم قال : لو اراد الحسين أن يحارب البيعة لأمر أنصاره بان يفعلوا .
– وهل كان يعلم من قبل أن معاوية سيدعو الناس ؟
– اجل كما أن اهل الحجاز جميعهم يعلمون ذلك .
فقال شبث : اتركوا الحسين فاذا عرف معاوية اننا كتبنا اليه تسوء العاقبة .
فقال عمرو : هذا هو الرأي . . .
فخفض هانيء بن عروة صوته قائلاً :
أريد أن أسألكم سؤالاً أرجو ان تجاوبوا عنه .
فقال سليمان : وما هو سؤالك ؟
قال : يقوم في الذهن أن معاوية سيأمر عامل الكوفة غداً بان يأخذ البيعة من رجال الشيعة .
فقال شبث : أنا أتولى أمر الجواب . . نعم إن معاوية سيفعل ذلك وسيأمرنا عامله بأن نبايع . – وبماذا نجيب ؟
– نعطيه البيعة وينتهي الامر . – ثم تنقضونها غداً ؟
– من يعلم فقد ننقضها أو نبقى على العهد . .
– اذن فنحن الآن من أنصار بني امية .
– نحن كذلك في الظاهر أما في الباطن فلا .
قال : والله لا أبايع ولو مثلت بين يدي الجلاد الذي ضرب عنق حجر بن عدي . – وما يكون عذرك ؟
– أرحل عن الكوفة الى بلد لايعرفني فيه أحد . .
– وبعد ذلك ؟ . – ولا ارجع الا عندما يحمل بريد الشام نعي معاوية .
وهكذا قال سويد بن المطاع وحبيب بن مطهر .
فقال : ولكنكم ترجعون بعد موته . . .

-- واذا رجعنا ؟ — تجدون خليفة آخر هو يزيد . .

وانقسمت الآراء . . هـذا يرى رأي شبث وهذا يرى رأي مسلم حتى رجحت كفة الاول وكثر انصاره : سليمان ، وعمرو بن الحجاج ، والضحاك بن عبد الله ، وشبث بن ربعي ، مع اكثر من ثلاثين رجلاً ، في صف ، ومسلم وسويد ابن المطاع وحبيب بن مطهر وهانيء ، في صف آخر ، الاول يؤثر الظهور بمظهر الرعيـة الخاضعة للسلطان ، والثاني يؤثر الفرار والاستخفاء على المبايعة حتى يقضي الله بما شاء . . .

ثم ارتفعت الاصوات ، فقام هانيء فقال : خير لنا أن نتكلم بهدوء فرجال الشرط يدورون حول الدار وهم يحصون علينا الانفاس ..

فقال مسلم : ذلك ما كان يفعـــله زياد .. ومع ذلك فالسكوت الآن أولى وسنجتمع يوم ندعى الى بيعة يزيد .

ثم قال : قوموا ننصرف فنحن على رأي واحد وسيأتي يوم نفعل فيه ما يمليه علينا الاخلاص للحسين وآل بيته .

فقال الربيع بن شبث في نفسه :وسيأتي يوم يعرف فيه الخليفة أنك من أعدائه .

وتفرقوا تلك الليـلة ، على أن لا يعودوا الى الاجتماع في منزل سليمان إلا اذا دعاهم عامل الكوفة الى البيعة .

●

٣٥

تحدّث الناس ، بأمر البيعة . في المنازل والاسواق ، كما رأيت ، وكان انصار بني امية ، يصفون في المساجد ، ولي العهد ويذكرون فضله وعلمـه ، وخبرته بسياسة الملك .

حتى ان النساء والغلمان جعلوا يزيد بن معاوية حديثاً لهم ، في نهارهم وليلهم ، والرواح والمجيء ، وكان مسلم ، وابن الحجاج وهانيء ، يذكرون في اليوم الثاني ،

ما كان من أمر البيعة ، وهم في منزل ابن عروة ، وعبد الرحمن معهم ، فلما انصرفوا الى المسجد ، عند المساء ، قالت خولة لعبد الرحمن وقد بقي في المنزل : ماذا جرى أمس ؟

– في منزل سليمان ؟ – نعم .

– ألم يخبرك عمرو بما جرى ؟ – خبرنا بذلك ويطيب لنا ان نسمعه منك .

قال : كثرت آراء القوم في الليل الماضي . – وما هي هذه الآراء ؟

– يقول بعضهم ان المبايعة أمر لا بد منه ، ويقول آخرون لانبايع بني امية ولو وضعنا على النطع .

فقالت سلمى : هذا خبر لم نعرفه .. ومن هو صاحب الرأي في المبايعة ؟

– شبث بن ربعي . – وعمرو ؟ – وكان عمرو من رأيه ..

فالتفتت الى خولة قائلة : يبايعون ابن معاوية وهم أنصار عليّ ؟

قال : ذلك دهاء يريدون معه اخفاء أمر الشيعة .

– ووافقهم هانيء فيه ؟

– لا ، بل كان مع أبي في صف آخر ، ثم انصرف القوم على ان يجتمعوا يوم لطلب البيعة منهم ، ثم قال : ولكن خيل اليّ أن في الشيعة عدواً لي ..

فقالت امامة : من هو ؟ – الربيع بن شبث . – وكيف عرفت ذلك ؟

– دلني عليه لسان من نار أرسلته عيناه ...

فأطرقت وجعلت تفكر في الأمر .

فقالت خولة :

انها عداوة نعرف معناها وستضمحل كما تضمحل سحابة الصيف . .

– أما انا فقلبي يحدثني بانها باقية . . – لماذا ؟

– لان النظرات التي وجهها اليّ نظرات حقد . . – وانت تخافه ؟

– لم يخف مسلم بن عوسجة أحداً قط وولده عبد الرحمن مثله .

– اذن فليبغض ماطاب له البغض فنحن لانبالي به .

– ولكني أخشى ان يفضح أمر الشيعة ويبوح بالأسرار . .

قالت من الرأي أن تخبر أباك ومن معه من الرجال . .

قال : اذا فعلت دبّ الخلاف في الصفوف . — وماذا تصنع ؟

— أحذر الربيع وأحصي عليه الانفاس . — وهذا يكفي ؟

— أجل ، وسأتصدى له عندما تبدر منه بادرة لؤم .

فقالت امامة : واذا مدّ اليك يد سوء . .

— اقطع هذه اليد وليفعل شبث بن ربعي بعد ذلك مايشاء .

ومرت ساعة ، والفتى يحدث النساء الثلاث ، والدمع يجول في عيني امامة فقد خافت الربيع على عبد الرحمن .

وكان مسلم قد عاد من المسجد وانتهى الى الرواق .

فسمع ولده يقول : يقولون ان ابن ربعي من أبطال المسلمين الذين عركتهم الحرب . . ولكنهم لايقولون انه جبان ضعيف القلب في منزل سليمان . . .

فدخل مسلم فقال : بماذا تصف ابن ربعي ياعبد الرحمن ؟

فاضطرب ثم قال : اذكر ضعفه يا أبي .

— وفي أي موقف ظهر لك هذا الضعف ؟

— في جميع مجالس المشورة والرأي التي تضم رجال الشيعة .

فقال وهو يضحك : أما أنا فلم أرَ ضعفه ويطيب لي أن تدلني على موضعه .

قال : أسألك عن هانيء وعمرو قبل أن أفعل .

— هما وراء المسجد يتمشيان مع حبيب بن مطهر ، وابن المطاع ولماذا تسألني عنهما ؟

— لاني لا أريد ان اذكر ما أعلم الا لك . — وماذا تعلم ؟

— اعلم أن ابن ربعي يتصدى لرجال الشيعة كلما همّوا بان يحملوا السيف .

— وتظن أن الضعف يوحي اليه بما يفعل ؟ — نعم .

— اخطأت فشبث من أشجع الناس ، واذا عدّت الرجال وابطال الحرب في العراق كله كان هو في الطليعة .

— ومع ذلك فاذا ذكر السيف تردد في حمله وحمل الآخرين على الانسحاب . .

وهذا ما يفعله كل يوم .

قال : ذلك هو الرأي فنحن أضعف من أن نبلغ الغاية بقوة السيف بل نحن اعجز عن الثبات في وجه معاوية .

– ولكني أراك تذكر سيفك كلما ذكر الدفاع عن آل علي .

– افعل ذلك من أجل غاية واحدة . – ماهي ؟

– هي ان أظهر لرجال الشيعة ، ان أنصار علي ابطال مجربون ، يبرزون الى الساحة عندما تقضي الحاجة بهذا البراز ، دون ان يترددوا في الامر .

– اي أن الدهاء وحده هو الذي يدعوك الى ذكر سيفك .

– أجل ، وهذا الدهاء يملي عليَّ ان انفخ ، في كل موقف ، روح الشجاعة والتضحية ، في صدور القوم . – إذن فشبث صاحب حق في تردده !.

– بل هو صاحب حق في حكمته ..

– وماذا يفعل رجال الشيعة اذا اكرههم معاوية على الاعتراف بيزيد ولياً للعهد ، وأخرجهم عن الحد . – يفعلون عندئذ ما يفعله كل ضعيف .

ـ ماذا ؟ ـ يستخفون في الجبال والأودية ليحفظوا رؤوسهم ..

ـ وتستخف انت يا ابي ؟

ـ أما انا فاذا اكفهرّ الجو ، وعمد الخليفة الاموي الى الشدة ، خرجت الى المدينة لاجئاً الى الحسين ، ثم أدافع عن نفسي ، وعيناه تنظران اليّ ، حتى اموت !! وحسبي ان ألفظ روحي عند قدميه ...

ـ ولكن ابن ربعي لا يصنع مثلما تصنع . ـ من قال لك ذلك

فتمتم قائلاً : لم يقله احد ولكني واثق بانه .. خائن !.

قال : اسكت يا عبد الرحمن ولا تقل هذا .

ـ أقوله لك ثم أسكت الى الأبد ..

ـ ولكنك عندما تتهم شبث بالخيانة ، تتهم بالوقت نفسه ، أبا أمامة ، والضحاك ، وسليمان ، وغيرهم من الرجال . .

قال : لايخطر لي ان اتهم من ذكرت . .

– ولكن التهمة تلحق بهم عندما تلحق بشبث فرأيهم مثل رأيه ، ولهم نظر واحد لايتغير ، في جميع المواقف ، كما رأيت .

قال : اذكر ياأبي ان لشبث ولداً يدعى الربيع . – وأي شأن له ؟

– شـــأنه أن امامة آثرتني عليه فهو ينظر الي واليك نظرات البغض ولو استطاع ان يروي بغضه من دمائنا لفعل .

قال : هذه بادرة من بوادر الشباب يابني . .

– بل هو أمر ستلمسه بيديك بعد حين ، وانا أخشى أن يكون الربيـع ، عيناً من عيون معاوية ، ينقل اليه مايسمع ويرى . .

فقهقه ثم قال : لقد جاوزت الحد في ظنونك ياعبد الرحمن ، ان الربيـع لايعرف معاوية ، واذا خطرت له الخيانة ، كما تقول ، فهو لايخون أباه .

قال : اعترف لك ياأبي بأني خائف . .

– وانا أعترف لك بأنك لاتفهم من السياسة شيئاً فخير لك ان تحسن ظنك برجال الشيعة دون أن تستثني احداً ، ولاتنس ان الشيعة في هذ الزمن ، احوج الى الاتحاد ، منها في زمن آخر .

ونهض قائلاً لخولة : انظري في أمر الزواج قبل أن تبلغ امامة العشرين فمن الرأي أن نتعجل فيه .

قالت : ليست القضية في يدي فقد أقسمت لعمرو وانتهى الامر .

فدنا منها وجعل يقول وسلمى تسمع : نحن اليوم في السنة السادسة والخمسين ، وقد بقي أربعة أعوام ، وهذا صعب ، فاسألي عمراً رأيه . .

– ولكن العاشقين راضيان ، وهذا يكفي ، ومع ذلك سأسأل عمراً عندما يجيء ، وسيسمع عبد الرحمن كل شيء .

فانثنى وهو يبتسم ، ثم قال لولده : عدني بأنك ستحسن ظنك بالقوم . .

– سأحاول ان أفعل ، ولكني اعدك بأني لا أذكر لأحد ماذكرته الآن .

فانصرف ، على ان يعود الى منزل هانيء ، عندما يجن الليل وبعد ساعة ، اقبل هانيء وعمرو بن الحجاج .

فقالت خولة لزوجها : لقـــد سألنا مسلم الآن ان نجعل لزواج امامة ، موعداً أقرب من موعده الاول ويظهر أن له في ذلك رأياً .

قال : كنا في المسجد مع مسلم ولم يقل لنا شيئاً . .

قالت : خطر له ان يسألنا ذلك بعد مجيئه .

قال : أطلبت أنت اليه ياعبد الرحمن أن يفعل ؟

ـ لا ، ولكنه احس بالخطر ، فأراد ان يتعجل في الامر .

ـ وأي خطر هذا ؟

ـ ذلك الذي يكتنف الشيعة في هذا العهد . ـ والذي تحدثنا به أمس ؟

ـ نعم . ـ أي أنه يخاف أن يكرهنا عامل الكوفة على اعطاء البيعة . .

ـ ذلك ماظهر لي .

ـ ولكنه خوف في غير موضعه لان معاوية لايعمد الى القوة في اموره ولا ينفر الناس ولو كانوا خصوماً له . ـ واذا فعل ؟

ـ اعطيناه البيعة وسكتنا على غل ، حتى تأتي الساعة التي نخرج فيها عن الطاعة ونولي الحسين بن علي .

قال : ان أبي لايبايع وسيلحق بالحسين اذا طلبت البيعة منه .

ـ اذن هو يخشى ان ينتقل الى الحجاز ونبقى نحن في الكوفة فلا يتم أمر الزواج بعد ذلك . فقالت خولة : هذا الذي يخافه . .

قال وهذا هو الضعف . . ايظن مسلم ، وهو من اصحاب الرأي ان وجود عبد الرحمن في الحجاز ، يمنع ابن الحجاج من ان يزف ابنته اليه ؟

ـ بل يظن انه اذا ترك الكوفة خسر امامة الى الابد . . .

وكانت خولة تريد عندئذ ان تسبر غور عمرو .

فقال : عاهدت مسلماً على أن تكون امامة لعبد الرحمن ولست ممن ينكثون العهد . . ثم قال : وهل تريدين أن تتزوج امامة اليوم ؟

فعرفت انه يذكرها بما قالته له ، قبل الخطبة ، فقالت : اريد ماتريده انت.

ـ اما انا فلا أحب ان يظن شبث بن ربعي اني كنت كاذباً فيما ذكرته له . .

قلت اني لا أزوج امامة قبل العشرين من العمر وهو حافظ ماقلت .

ـ واذا انتقل مسلم الى المدينة ؟

ـ ينتقل عمرو بن الحجاج اليها عندما تأتي ساعة الزواج . . . فهمّت امامة بالكلام فمنعها الحياء ، ولكن اباها قرأ حياءها على الخدين ، فقال : لايستطيع معاوية بن ابي سفيان نفسه ، ان يفصل بينك وبين عبـــد الرحمن ، ولا اقول غير هذا .

قالت : لا اعرف معاوية يا ابي ولكنهم يخوفونني به . . .

قال : هو اضعف من ان يخرج ابن الحجاج الزبيدي عن هدوئه .

فقال هانيء عندئذ : سنمنع معاوية من ان يلجأ الى الشدة مع الشيعة .

فقال عبد الرحمن : بماذا ؟

ـ سأدعو رجال الشيعة غداً الى الاجتماع في منزل سليمان ، واطلب اليهم ان يظهروا جميعهم بمظهر المخلصين لبني امية ، ويجعلوا عامل الكوفة من الاصدقاء .

ـ ويثق بنو امية بهذا الاخلاص الكاذب ؟

ـ ليس لهم إلا أن يؤمنوا بما يرون ، وسيعرف رجال الشيعة ، كيف يخلون بغضهم ، وراء مظاهر الحب .

وكان الليل قد أقبل ، فخرج مع عمرو يقضيان بعضه في دار سويد بن المطاع، على ان يلحق بهما مسلم ، وبقي عبد الرحمن عند النساء ، وقد طاب له ان يحدث امامة ، في ذلك الليل ، بأمر غرامه ويصف لها لوعة القلب . وطاب لها هي ان تقسم له ، انها لا تخون هواه ، ولو فرّق الدهر رجال الشيعة وجار الزمان ..

•

٣٦

ـ أريد يا ابي ان اخرج في تجارة الى الشام .

وشبث غني ، والمال كثير بين يديه ، فقال للربيـع : لست بحاجـة الى ذلك

يا بني .   ـ ولكني اريد ان ارى دمشق فالناس يقولون انها جنة بلاد العرب، وان معاوية جعلها لؤلؤة الشرق ..

قال : اخشى ان يعلم معاوية انك ابن شبث فيقذف بك الى الهاوية .

قال سأظهر للناس اني من بني تميم المقيمين بالبصرة .. وسأدخل دمشق تاجراً واخرج منها وانا تاجر ..

فهز رأسه قائلا : لو كان لك دهاء العرب جميعها لضاع دهاؤك في دمشق .. إن في دمشق داهية الناس ..

ثم قال : وما هي الغاية من هذه الرحلة ؟   ـ ان أرى دمشق كما قلت .

ـ ستراها بعد ان يموت الجالس على العرش ..

ـ اما أنا فأريد ان أراها وهو في عرشه .

ـ وقد يخطر لك ان تدخل مجلسه لترى وجهه ..

قال : اذا رأيت الناس ببابه فعلت ...

قال : اذا أذنت لك في السفر اذنت على شرط ..   ـ ماهو يا أبي ؟

ـ هو ان لا تدنو من الخضراء قصر معاوية ولو قيل لك أن السعادة فيه .

ـ لماذا ؟   ـ لأن الموت يكمن لك في دهاليزه ..

ـ وهل يقتل معاوية ، جميع الذين يدخلون قصره ؟

ـ ان لمعاوية عينين ، تنظر الواحـــدة منها نظرة الحياة ، الى الاصدقاء ، وتنظر الاخرى ، نظرة الموت ، الى الاعداء !.

فهمّ بالجواب فأسكته قائلا : وحول معاوية رجال يعرفون معنى نظراته التي ذكرت ..   ـ وما معنى كل هذا ؟

معناه ان اولئك الرجال سيقولون لسيدهم : ان ببابك فتى من رجال الشيعة ارسله اصحابه ليكون عيناً عليك وهو يدعى الربيع بن شبث !

ـ وكيف يعلمون اني الربيع ؟

ـ لا تسألني عن هذا فأنا لا اعلم كيف يعلمون ..

ـ اذن فحجاب الخضراء فريق من الأبالسة ..

ـ بل هم ابعد نظراً وأشد دهاء من ابليس .

فأطرق ملياً ثم قال : سأطوف اذن حول الخضراء وهذا يكفي ..

ـ بل انصح لك بأن تظل بعيداً عنه فليس من الحكمة ان يدنو المرء من أتون النار ..

فقال في نفسه : سترى يا ابي ان معاوية خير من هؤلاء الرجال الذين يضمهم مجلس سليمان ، وظل ساكتاً كأنه يفكر في الامر ، فقـــال ابوه : على اي شيء عولت ؟ ـ على ان احفظ ما تقوله لي حرفاً حرفاً ... ـ ولا تعدل عن السفر؟

ـ اسألك بالله ان تأذن لي فيه .. قال : سر على بركة الله ولكن لا تنس .

ـ مايطيب لك من اشياء الكوفة فقد اعددت لك مئة دينار تشتري بها ماتشاء .

ـ وماذا احمل الى الشام ؟

قال : بقي لي رجاء آخر هو ان لا تذكر لأحد اني سائر الى دمشق ...

ـ وهل انت خائف ؟

ـ اجل ، فقد قلت لي أن رجال معاوية يعرفون كل شيء وأنا اظن ان اهل الكوفة هم الذين ينقلون اليهم اخبار الناس .

قال : تظـــاهر غداً بأنك ذاهب الى خراسان ، وانا سأقول لمن يسألني ان قومنا في ذلك القطر طلبوا ان يروك . ـ وهل يقيم بخراسان ناس من بني تميم ؟

ـ اجل وهم من ابناء العم .. والآن قل لي : ايطول غيابك في الشام ؟

ـ لا اعلم الآن فقد امكث شهراً او شهرين .

قال : ليس لي في دمشق اصدقاء اثق باخلاصهم . ـ وماذا تصنع اذا وجد هؤلاء ؟ ـ آمرك بأن تنزل ضيفاً عليهم وادعوهم الى العناية بك والعطف عليك .

ـ بل انزل في المكان الذي ينزل فيه الغرباء فذلك خير لي واذا فعلت غـير ذلك عرف معاوية . قال : اصبت فانزل حيث تشاء .

وانصرف يعد لولده عدة الرحيل ، ولم يقم في ذهنه أن ذلك الولد البار ، يعد بدوره عدة القضاء على مسلم بن عوسجة وابنه عبد الرحمن ، وقد يجرف تيار بغضه وحقده ، رجال الشيعة المقيمين بالكوفة ، ومضى من ذلك الليل ثلثه ،

فخرج الربيع الى ساحة الكوفة التي تغص ، في النهار والليل ، بطوائف الناس، وهو لايعلم مايصنع ، ثم مشى الى المسجد يدور حوله . . ومن الجانب الشرقي منه ، ارسل نظره الناري ، الى منزل هانيء ، يلفظ بشفتيه الملتهبتين حكمه الرهيب على عبد الرحمن البريء ، ولم يلبث حتى عاد ونام ملء جفنيه ، كأن الفكرة الهائلة التي خطرت له . لاتستحق التفكير . وخرج في مساء اليوم الثاني من الكوفة ، راكباً فرسه وراء نوقه دون أن يسأل أحد عنه ، كما كان يظن .

وبعد بضعة عشر يوماً انتهى الى دمشق ، فطاف في أسواقها يسأل الناس عن اشيائها كأنه تاجر ، ثم جعل يعرض عليهم مايحمل حتى تم له امر البيع كما أراد، وانصرف بعد ذلك الى قضاء الأمر الذي قدم من أجله .

●

٣٧

كان معاوية يستقبل الناس ، في الصباح والمساء ويجلس للمظالم في المسجد ، على عادته كل يوم . وهو على رغم شيخوخته ، وقد جاوز الخامسة والسبعين ، يقضي ولا يمل ، وينظر في جميع الحاجات ، دون ان يضيق صدره ، كأن نفس معاوية ، نفس فتى في ربيع عمره ، وكأن همته التي لاتضعف ، همة الشباب . .

فلما خرج من المسجد ذات مساء ، ورجع الى مجلسه ، وقد انصرف الناس ، اقبل سعد رئيس الحجاب يقول : بالباب رجل من الكوفة يستأذن على امير المؤمنين .

وكان في تلك الساعة يفكر في تمرد الحجاز ، واستخفاف اهله بأمر البيعة ، وقد بان الغضب في عينيه ، فقال : ولماذا لم يدخل هذا الكوفي مع الناس ؟

– يقول يا مولانا انه وصل الساعة .

فأطرق ثم قال : الرجل الذي يجيء من الكوفة ، وينتهي الى الخضراء عند المساء وهو يريد أن يرى امير المؤمنين ، يستطيع ان يصبر الى الصباح .

ـ ولكنه يخشى أن يراه احد ببابك وهو لا يريد هذا !

فرفع صوته قائلاً : كوفي يستأذن على امير المؤمنين ويخشى أن يراه احد ببابه ؟ انها كلمة لم نسمعها قط من عربي ...

ـ ومع ذلك فهو يقولها ولا يخاف ..

قال : اخرج وانظر في امره فقد يكون خنجره في ثوبه ..

ـ فعلت ذلك يا امير المؤمنين قبل ان استأذن له .   ـ ولم تجد شيئاً ؟

ـ وجدت في حزامه هذا الخنجر الصغير الذي لا يصلح للقتل.. وأراه اياه،

فقال : وما هي غايته اذن ؟

ـ له سر لا يبوح به إلا وهو ماثل بين يديك !

ـ ليدخل ، وكن انت وراءه ...

فدعاه سعد فدخل ، وعيناه تلمعان ..

فقال معاوية في نفسه : إنه فتى جريء لا يبالي بما يصنع ...

ثم قال له : نسألك عن شيء سمعناه الآن قبل أن نسألك عن اسمك .. أتقول لحاجبنا أنك لا تريد أن يراك احد بباب المجلس ؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين ؟   ـ وماذا تخاف .

ـ أخاف أن تراني العيون ، وينقل خبري الى الكوفة .

ـ واذا حدث ذلك ؟

ـ اقتل في ليلة مظلمة لاتمتد اليّ فيها يد صديق .   ـ من يقتلك ؟

ـ رجل من الكوفة ...   ـ بل قل من رجال الشيعة . . .

فاضطرب قائلاً : نعم من رجال الشيعة . .

ـ ولكن هؤلاء الرجال لايقتلون أحداً بل يكتفون بلعن عثمان وهم وراء الجدران ، ويلعنون في سرهم ، أمير المؤمنين . .

ـ أما أنا فجبان يخاف أن يموت . .

قال : أما أنت فمن أبناء الشيعة أنفسهم ولو لم تكن منهم لما خفت . . . قل ألست منهم ؟   ـ بلى يامولانا .

– ومن أنت ؟ – أأقول وأنا آمن ؟

– لانعلم الآن فحياتك في يدك . . ما اسمك ؟

– الربيع بن شبث ! – ابن ربعي ؟ – نعم .

فجعل يقول : شبث بن ربعي .. هذا كان من الخوارج .

وكأنه لايعرف الرجل .

قال : كان خارجياً يا امير المؤمنين ..

– وكان قبل ذلك مع علي وقد فارقه في صفين ، بعد التحكيم . – نعم .

– وهو الآن من رجال الشيعة .. وقد نسي اصحـــابه الذين قتلهم عليّ يوم النهر . ونسي دماء الخوارج التي سالت في الوادي ، وجعل يردد هـذه الالفاظ ثم يضغها مضغاً حتى رأى الفتى آثار الكآبة والألم على جبينه !..

ثم سمعه يقول : وانك الربيع بن شبث الخارجي ... الشيعي .. ان الربيع اسم حسن فيه معنى الحياة .. ولكن ما هي غايتك من المجيء الى دمشق ..؟

– أما غايتي يا امير المؤمنين فكلام اقوله لك ولا ثالث بيننا ..

– بل نأمرك بأن تقوله وسعد حاضر ..

– وتضمن لي انه يكتم الناس ما يسمع ؟

فابتسم قائلاً : ومن يضمن لك ان امير المؤمنين يكتم الناس ما تقصه عليـه الآن ؟؟ اسمع يا ابن شبث .. ان امـير المؤمنين وحجابه ووزراءه يحفظون الأسرار عندما يطيب لهم ان يحفظوها .. ويبوحون بها عندما يريدون ذلك .. اذكر غايتك ولا تتردد .

قال : لا افعل فأنا واثق بأن سري يجب ان لا يسمعه احد سواك !..

– واذا اكرهناك على الكلام ؟

– بماذا يا امير المؤمنين ؟ – بأن ندفعك اليه بالسوط .

– تستطيع ان تفعل ذلك الآن فترى ان السوط لا ينفع .!

– اذن فبالسيف .. – والسيف لا ينتزع مني كلمة .

قال : نضرب عنقك . – اضرب فأنا لا أبالي .

قال : أتهزأ بأمير المؤمنين يا ابن شبث وتحيا . — وكيف هزأت به ؟
— قلت له منذ لحظة انك تخاف ان تموت من يد كوفي .. وأنت تقول الآن انك لا تبالي بالموت .

فأجابه وهو هادىء : يقول الناس ، اذا قتلني رجل من الكوفـة ، انه خان الشيعة فقتلوه ... ويقولون ، اذا قتلتني انت ، ان امير المؤمنين لا يقتل غـير عظماء العرب ..

— أي انك تؤثر الموت في دمشق ، على الموت في الكوفة .
— بل أؤثر الموت في الخضراء ، لتتحدث العرب بأمري جيلاً كاملاً .
قال : سيفك يا سعد .

وسعد يعلم ان معاوية لا يقتل الناس في مجلسه ، ولكنه جرد سيفـه ودنا من الربيع .. فقال معاوية : اضرب ..

فالتفت الفتى الى الاثنين ثم مد عنقـه قائلاً : اضرب ، وليمت سري معي ، ولكن اعلم ان الخلافة ستنتقل بعدك الى بني هاشم ولن تكون ليزيد ..

فأومأ الى سعد بأن ينصرف ثم قال : انك فتى جريء وهكذا نريـد ان يكون جمع الفتيان .. اجلس وخبرنا ما تعلم فقد عرفنا الآن أي فتى انت ...
فجلس وقال : أبوح لك بأسرار الشيعة في الكوفة ..
فقال الداهية : لا تنس ان أباك من رجالها ..
— اعلم ذلك وستعلم انت ياامير المؤمنين من هو شبث بن ربعي . قال : هات.
قال : ألم يبايع اهل العراق والشام ولي عهدك ؟ — بلى .
— ولكن رجال الشيعة لم يبايعوا ولم تسألهم انت أن يفعلوا .
قال : الخليفة لا يحتاج الى هؤلاء الرجال ، في البيعة ليزيد .
— ولكنهم رعية هذا الخليفة وهو ولي امرهم . — ولماذا لم يبايع ابوك ؟
— منعوه من ذلك يا امير المؤمنين ..
— لكن الرجل مثل شبث لا يعبأ بهذا المنع .
— نصحت له يا مولانا بأن يسمع لهم . — لماذا ؟

ـ لنستطيع نحن الاثنين أن نقرأ الاسرار ...   ـ وتركتما التشيع ؟
ـ نتشيع في الظاهر، وأما في الباطن فكما ترى .. ـ وما رأيهم في المبايعة؟
ـ رأي المتمرد العاصي الخارج على ملكه !.
ـ واذا خطر لأمير المؤمنين أن يدعوهم اليها ؟
ـ اذا خطر له ذلك خرج بعضهم من الكوفة وبايع الآخرون ..
ـ وتتفرق الشيعة ؟   ـ يتفرق شملها زماناً لا يعرف آخره ...
ـ وكيف ذلك ؟
ـ يحتجبون عن العيون ريثما ينعى النعاة امير المؤمنين ..!
ـ وبعد أن يموت أمير المؤمنين ؟   ـ يحملون السيف في وجه يزيد .
ـ ويحطمون عرشه ؟   ـ نعم ، ثم يرفعون الى هذا العرش الحسين بن علي !
قال : وأبوك ؟..   ـ ليس لأبي رأي في هذا .
ـ ومن هو صاحب الرأي اذن ؟.   ـ مسلم بن عوسجة وولده عبد الرحمن !
فخفض صوته قائلاً : لا نعرف مسلماً هذا فمن هو ؟..
ـ هو من سادة بني اسد وأحب الناس الى الحسين .   ـ ويتبعه القوم ؟
ـ يتبعه حبيب بن مطهر ، وسويد بن المطاع ، وقد يتردد في ذلك هانىء بن عروة المرادي .   ـ وغير هؤلاء ؟
ـ بضعة رجال ليس لهم شأن .
ـ اذن فمعظم رجال الشيعة يتبع شبث بن ربعي .
ـ وراء شبث رجال اقوياء يا امير المؤمنين هم عمرو بن الحجاج والضحاك بن عبد الله وسليمان بن صرد وطائفة من قومهم .
قال : لو اراد ابوك ان يظهر اخلاصه لأمير المؤمنين ، لجعل ابن الحجاج ومن معه في صف ، وترك مسلماً ومن معه في صف آخر .
– لايقدر على ذلك ياامير المؤمنين؟
ـ بل يقدر على كل شيء اذا طاب له ان يخدم الخلافة ..
قال : بين ابن الحجاج وابن عوسجة عهدٌ يامولانا . ـ وما هو هذا العهد ؟

ـ ان عبد الرحمن بن مسلم ، سيتزوج امامة بنت عمرو ، واطل الحقد من عينيه، واكفهر وجهه ، فأيقن الخليفة السياسي بان القضية قضية غرام .

فقال : نذكر ان ابن الحجاج الذي ذكرت ، كان في الغوطة .

ـ أجل وقد انتقل الى الكوفة من زمن قصير . ـ وامامة حسناء ؟

ـ هي أجمل نساء العراق. ـ ويدفعها أبوها الى بني أسد وانت في الكوفة؟؟

قال خطبها أبي لي ، وخطبها مسلم لعبد الرحمن فآثرته عليّ .

فضحك وقال : انك جبان في الكوفة وشجاع في دمشق . .

ـ لست جباناً يامولاي ولكني أخاف العار .

قال : يلحق بك العار اذا سكت ولو كان هنالك فتى من بني أسد لما رضي بما رضيت . ـ وماذا أصنع ؟

ـ تأخذ امامة بالقوة كما يفعل سواك ! !

قال : أخشى ان اسلب عبد الرحمن خطيبته لأتزوجها ، فتأبى ، ثم تفر وهذا هو العار الذي ذكرت . ـ ولاتخشى ان يقتلك هواك ؟

ـ ان في الصدر عاطفة هي اقوى من عاطفة الهوى . . .

ـ عرفتها فهي عاطفة الحقد على الفتى الاسدي . .

ـ نعم وانا أعترف بأن العيش لايطيب لي الا اذا محوت هذا الفتى ، ومحوت أباه من الوجود .

ـ وتستطيع أن تفعل ذلك ؟ ـ أستطيع بقوة أمير المؤمنين . . .

فارتجفت شفتا معاوية من الغضب ، وكاد يخرج عن هدوئه . .

ولكنه تجلد قائلاً : وهل قال لك احد من اهل الكوفة ان امير المؤمنين يهتم لامور الغرام ؟

ـ لا يا مولانا ولا شأن للغرام في هذا . . ـ وماذا اذن ؟

ـ يهم امير المؤمنين لامور الخلافة ، ويؤدب بسوطه اعـــداء الدولة ومسلم وولده من هؤلاء الاعداء كما تعلم .

فقال ، وقد ارتفع صوته ، ورقصت لحيته : أصبت فسنؤدب القوم ونبدأ

بشبث بن ربعي !

-- وما ذنب شبث يا مولانا ؟

– ذنبه انه يتشيع كما يتشيع مسلم بن عوسجة . – ولكنه يبايع اذا أردت.

– ألم يعلم ابوك اننا كتبنا الى عاملنا في الكوفة نأمره بأن يدعو الناس الى البيعة . فلماذا لم يفعل ؟. – لأنهم منعوه كما قلت ..

– اذن فأمر ابيك في يد الشيعة وهذا يكفي .

ثم لان فقال : اسمع ايها الفتى ، لو أراد امير المؤمنين أن يؤدب رجال الشيعة لضربهم ضربة لم يرتفع لهم بعدها رأس .. ولكننا نأسف على رجال الاسلام يحصدهم سيف الغضب ، ونحن نؤثر ان ننظر اليهم نظرة الخليفة القوي الى المتمرد الضعيف الذي ضيع رشده ، ويقوم في الذهن ان هذا المتمرد سيعود الى هداه .

– لا أظن ان مسلماً يعود الى الهدى . – بل يعود عندما يعود ابوك !!

– وماذا يريد امير المؤمنين ان يفعل ابي ؟

– نريد أن يخرج على الشيعة اليوم ، كما خرج على علي بالامس .

– سيفعل ذلك بعد حين ..

– اجل ، بعد ان ينعي الناعي امير المؤمنين .. قل سيخرج على الخلافة يوم يتولاها يزيد .. – انا أضمن اخلاصه لخلافة ولدك ..

– ولكنك لا تضمن اخلاصه لخلافتنا فكأن معاوية شيء ، وولي عهده شيء آخر .. وانه لإخلاص صادق يشفع في ابن ربعي ..

قال : أليس لأبي فضل في ميادين القتال ، التي شهر فيها السيف في سبيل الفتح ؟ – بلى ، ولكن هذا الفضل لم يكن لأبيك وحده ، بل لجميع المسلمين الذين فعلوا كما فعل ، وخسروا أبناءهم وقومهم في الساحات .

قال : يعترف الناس كلهم بأن أبي من القواد .

– ونحن نعترف بهذا ، وفي الاسلام قواد كثار مثله .

– نعم ، وقد رأى ابي انك رفعت معظم هؤلاء القواد الى العلاء ولم تنظر

اليه نظرة حب ..

فجعل يهز رأسه ويقول : الحمد لله على نعمه انه تعـالى يرفع قوماً ويخفض آخرين . أتريد يا ابن شبث ان يرفع امير المؤمنين عدوه ، ويتناسى امر أصحابه المخلصين الذين مشوا معه في طريق الحياة وطريق الموت ؟؟ تلعن الشيعة عثمان ، وتتآمر على الخلافة ، وتعد العدة لتجلس الحسين بن علي على العرش وتسألنا بعد كل ذلك ان نحسن الى رجالها ونحيطهم بالنعم ؟ انه امر لم يخطر قبلنا لأحـد من الخلفاء ، ولم يجسر احد من الناس على ان يسألنا مثله ..

فتمادى الفتى في لجاجته ، فقال : كان زياد من اتباع علي فغفرت له ووليته .

– نعم وليناه ، ولكن بعد أن ندم على ما فعل ، وبعد أن خبرنا وفاءه .، فاذا أراد ابوك ان نوليه ، فليندم على ذنبه ، وليفعل مثل زياد .

قال : وإذا أراد امير المؤمنين ان يفرّق شمل الشيعة دون ان يعمد الى السيف فليأمر بابعاد مسلم بن عوسجة ،وسويد بن المطاع ،وحبيب بن مطهر عن الكوفة .

قال : لو رأى عبد الله بن خالد عامل الكوفة ، ان الشيعة تموت اذا أبعدنا من ذكرت ، لسألنا ان نأمر بابعادهم .

ـ ان عبد الله ضعيف يا امير المؤمنين . – وكيف ظهر لك ضعفه ؟

– اذا رأى رجال الشيعة ابتسم لهم كما يبتسم للمقربين اليك واذا اجتمعوا في منزل سليمان جلس هو في قصره لا يبالي بما يفعلون .

– ليبتسم ما طاب له الابتسام فليس ذلك من الذنوب ولتجتمع الشيعة كل ليلة فهي أضعف من ان تبلغ الغاية ، وسكت قليلاً ثم قال: أما انت فقد بدا لنا شيء من اخلاصك فابقَ في دمشق ريثما نأذن لك في الرحيل ، ثم نادى : يا سعد !

فأقبل سيد الحجاب فقال له : يبقى هذا الفتى ضيفاً على أمير المؤمنين بضعة ايام .. فاعرف انت مقامه ولينزل في الخضراء .

فعرف سعد انه أسيره لا ضيفه ، فقال : وتأذن له في الخروج الى المدينة ؟

– ليذهب الى حيث يشاء على أن يعـود كل مساء .. وقل لسرجون ، والضحاك بن قيس وولدنا يزيد ان يحضروا وأومأ الى الاثنين بأن ينصرفا .

فنهض الفتى قائلاً : أيطول مقامي يا امير المؤمنين ؟

– بضعة أيام ليس غير فقد نحتاج اليك .

فأيقن عندئذ بأن معاوية سينظر مع خاصته ، في كل ما قاله له ، ومشى وراء سعد وهو يقول في نفسه : لقد دنت ساعة مسلم وعبد الرحمن ..

•

٣٨

ألم ترَ ياسرجون هذا الفتى الكوفي الذي خرج مع سعد الآن ؟

– بلى يا أمير المؤمنين فمن هو ؟

– مجنون من مجانين الكوفة . . ولكن أتعرف من هو أبوه ؟

– لا . – هو شبث بن ربعي !

قال : لو لم يكن مجنوناً لما دخل على أمير المؤمنين . . وما هي غايته ؟

أحبَّ فتاة وأحبت سواه ، فأتى دمشق ليهزأ بمعاوية ويستغل نفوذ الخليفة ، من أجل غرامه ! !

فقال الضحاك : ألا يذكر لنا أمير المؤمنين ماقاله له ؟

– سنذكر كل شيء ، بعد أن تعلم أن الفتاة التي أحبها تدعى امامة بنت عمرو ابن الحجاج الزبيدي .

فوضع سرجون يده على جبينه يعصر ذاكرته .. ثم قال : كان اهل الغوطة يدعون هذه الفتاة ، حسناء الشام . – وتعرفها انت ؟

– لا يامولانا ولكني أعرف أباها وأمها تدعى خولة من بني سعد .

قال : لانجد في دمشق رجلاً مثل سرجون يعرف انساب النساء .

– ولا خير في سرجون يا أمير المؤمنين ان لم يعلم كل شيء . . . اني وأنا في الخضراء ، أعرف المخلصين لعرشك ، وأعرف أعداءه .

– وما رأيك في عمرو بن الحجاج ؟

– عدو لك ولكن عداوته تضمحل ، بكلمة واحـــدة يقولها له عامل الكوفة ، باسم أمير المؤمنين ، وبأمره .

قال : نخشى ان تزعم بعد ساعة انك تعلم مافي قلوب الرجال .

– وهل رأى أمير المؤمنين من قبل أني لا أعلم ؟ !

– بل رأى أن علمك كلام بكلام . أتستطيـع أن تعلم الآن ماقاله هذا الكوفي ؟

– لو اذنت لي ان أحدثه لعرفت مافي نفسه . . ان عينيه عينا رجل لارأي له ولا ينظر الى أبعد من أنفه . . ولكنه شجاع جاهل . . وجريء أبله .

قال : نعترف لك ياسرجون بان عندك شيئاً من الدهاء .

قال : ليس ذلك دهاء يامولاي بل هو حكمة . – وماذا قال الكوفي ؟

– يظهر ان الفتاة أحبت فتى من فتيان الشيعة وآثرته عليه . – هو ذاك ،

– وان هذا المجنون لايطيق أن تحب الفتاة سواه ، فأتى دمشق ليسعى بالعاشق ويكيد له !

فضحك قائلاً : نشهد لك الآن أنك من الحكماء .

– وهل كان الفتى الآخر من الشيعة كما قلت ؟

– أجل وهو عبد الرحمن بن مسلم بن عوسجة .

– مسلم بن عوسجة ؟ . . هذا من أبطال بني أسد .

– بل من أبطال المسلمين الذين أبلوا في الحروب الاولى البلاء الحسن .

– وهو عدوك يامولانا .

– لاتمنعنا العداوة من أن نعترف بالحق ، ولو عرفنا أن مسلماً يبيع تشيعه بالمال لاعطيناه الف الف . . قال : أتأذن لي ان أبدي رأيي فيه ؟

– قل . – انه لايترك آل علي ولو أعطيته بيت المال كله !

قال : أسمعت يا يزيد ؟ – نعم ياأمير المؤمنين ، اني سامع وعالم . .

قال : احذر أن تنسى اسماء اعدائك . .

قال : كان يجب أن انسى هذه الاسماء يا مولاي . – ومعنى ذلك ؟

– معناه أنه لو اراد امير المؤمنين لقتل هؤلاء الاعداء فننسى امرهم الى الابد.

قال : لو خطر للخليفة أن يقتل جميع اعدائـه لملأ الارض جثثاً . احذرهم واجعل عليهم العيون .. ولا تقتل إلا اذا خرجوا عن الحد .

ثم قال لسرجون : ووراء مسلم سويد بن المطاع وحبيب بن مطهر .

– إن الاثنين اشد تشيّعاً من مسلم .

– نعرف هذا كما تعرفه انت، وقد جاء الربيع بن شبث يسألنا أن نبعدهم عن الكوفة ونغض الطرف عن الآخرين . – وعولت على ذلك يا امير المؤمنين ؟

– أمرنا بأن تحضروا لنسألكم الرأي ، ماذا ترى يا يزيد ؟

– ليس لي رأي غير السيف !

فتجهم وجهه قائلاً : اذن نفتتح عهد البيعة لك بالقتل . لا يابني ، ما نريد أن نفعل هذا وليس من السياسة أن تسيل الدماء .. وأنت يا ابن قيس .

– ارسلهم الى القيروان التي بناها عقبة بن نافع .

– اذا ارسلناهم اليها افسدوا فيها علينا الامر .. هات يا سرجون .

قال : الرأي أن يبقوا الآن في الكوفة وتبث عليهم العيون . – وبعد ذلك؟

– ينظر امير المؤمنين بعد ذلك في امرهم اذا خاف أن يفسدوا العراق .. انك قادر على قتلهم عندما تشاء .

قال : هذا مارأيناه نحن ، ولكن سنعمد من ناحية اخرى الى امر لم تفكروا فيه هو أمر الولاية . – ولاية الكوفة ؟

– نعم فعبد الله بن خالد لم يكن في ولايته ذلك الرجل الذي تخافه الشيعة .

– ولكن الكوفة هادئة لا يرتفع فيها صوت .

قال : ذلك لا يكفي فان لم يرتفع هذا الصوت اليوم ، ارتفع غداً ثم يمتـد ويكون الضعف وحده هو السبب في امتداده .

ثم قال للضحاك : ولنيناك الكوفة فسر اليها بعد ثلاثة ايام .

فحنى الرجل رأسه وقال : وبماذا يأمرني امير المؤمنين ؟

– لقد سمعت الآن ما نتحدث به ، فكن في الكوفة شديداً ليناً وضعيفـاً

قوياً ، وحليما ضيق الصدر .. افهمت كل هذا ؟ — نعم .
— وقرّب اليك رجال الشيعة ما استطعت على أن تحصي انفاسهم . — نعم .
— وحدّث الناس بأمر البيعة نهارك وليلك ، حتى يبايع جميع المترددين .
— سأفعل يا امير المؤمنين .
— وصف ولي العهد بما هو اهل له .. — سأذكره يا مولانا في كل خطبة .
— واعلم أن وراءك العزل فكن رجلاً . واذا بـدرت بادرة من مسلم او من سواه ، فالسجن ... ثم تكتب الينا على الاثر .

فقال سرجون : وماذا تصنع بهذا الكوفي ؟
— نخلي سبيله بعد عشرة ايام ، لينتهي الى الكوفة بعد أن يأتيها الضحاك ويسلم اليه أمر الولاية . — وتعده بشيء ؟
— نعده بأننا سننظر في امر ابعاد مسلم وأما فيما يعني اباه فلا نعده بشيء ولا نقول له كلمة . — وماذا طلب لأبيه .
— سألنا ان نوليه ونرفعه كما رفعنا سواه .

وأطرق ساعة ساد فيها الصمت ، ثم قال : بقي الحجاز الآن فليس في الكوفة ما نخافه .
— سمعتك تقول يا امير المؤمنين أنك تريد السفر الى الحجاز بعد ان يبايع أكثر الناس ..
— ونحن نقول ذلك الآن وسنسافر بعد شهر .

قال : ألا تجد من الرأي ان ترسل رجلاً من الخاصة ، يصف للقوم ولي العهد ويدعو الناس الى البيعة ؟ ـ لايستطيع الرسول ان يقوم بما يقوم به امير المؤمنين.
ـ وترضى بأن يسير معك الوزراء . ـ بل يسير معنا ابطال الحرب ورجال السيف . — اذن فالناس سيظنون انك سائر الى القتال .
ـ ليس لنا أن ننظر الآن في الظنون .. نحن نريد ان نرى رجال الحجاز وأمراءه ونسألهم رأيهم في يزيد ، وليقل الناس ما يشاؤون .
— ولكن الحجاز بعيد يا أمير المؤمنين والسفر اليه صعب .

– بل هو هين على كل عربي ، وصعب على سرجون الرومي الذي يطيب له العيش في القصور ..

فابتسم قائلاً : لو لم يكن هنالك بيت المال ، وأمور الدولة ، لمشيت أمام ناقتك يا أمير المؤمنين من دمشق الى المدينة ..

– لا تقل هذا فقد يخطر لنا أن نأمرك بالسفر ماشياً كما قلت .

قال : اسأل الله ان يوحي اليك بهذا فأنا لا أعرف الحجاز .

– ولكننا نخشى أن تموت اذا خرجت من دمشق .

ونظر الى الضحاك فقال: اذهب وقل لأهلك أن يتهيأوا للرحيل ، وسيكتب سرجون كتاب العزل الى عبد الله بن خالد يوم سفرك .

ثم قال لسرجون : اما انت فاحذر أن تقول كلمة للربيع بن شبث فنحن نحب ان يبقى الفتى واثقاً بنفسه ، وخرج من قاعة الجلوس ويزيد وراءه ، وكان يقول له : إذا أردت ان تختار رجالاً مخلصين لعرشك فاختر مثل هذا الرومي ، ونام معاوية ليلته وهو يفكر في أمراء الحجاز .. أما يزيد فكان يقول لجلسائه في تلك الليلة : لو كنت أنا امير المؤمنين لجعلت أمراء الحجاز كلهم طعاماً للنار .

●

٣٩

عندما همّ الضحاك بن قيس بالذهاب الى الكوفة ، قال له معاوية : إذا أردت ان تعرف أسرار الشيعة فاستعن بهذا المجنون الذي يقيم اليوم بالخضراء ، وسيلحق بك بعد بضعة ايام ، ثم أوصاه بأن يحفظ هيبة الخلافة ، وأمره بالسفر ، ومرت بعد ذلك خمسة ايام والربيع أسير وضيف ، ولكنه لايرى معاوية بل لايرى غير سرجون ، وعبيد الخضراء والغلمان ، فلما كان اليوم السادس ، دعاه معاويةفقال: لقد عزلنا عبد الله عن الكوفة وولينا الضحاك بن قيس فاذا كانت لك فيالكوفة حاجة فهو يقضيها لك ..

قال : أوصيته بذلك يا أمير المؤمنين ؟

ـ أجل كما اننا وصيناه بأن يقربك اليه ويسمع لك .. ولكن اذا أردت أن يكون لك شأن .. فاحفظ ماخأمرك به .. ـ مر بما تشاء .

قال : هل خبرت أهل الكوفة قبل مجيئك انك راحل الى دمشق .

ـ لا يامولانا بل خبرت ابي وحده .

ـ وقلت له انك ستقابل أمير المؤمنين ؟ ـ لا .

ـ اذن فاعلم أن أمير المؤمنين لايريد أن يعرف احد أنك رأيته واذا عرف أبوك أو أخوك او احد من اهل الكوفة فلا تلم الا نفسك . .

ـ وما هي الغاية من الكتمان ؟

ـ اسمع وأطع دون أن تسأل فغاية أمير المؤمنين لايعرفها الناس ، ويكفي ان تترك دمشق وانت واثق بأننا أجبناك . . .

قال : ليأذن لي أمير المؤمنين ان أقول كلمة .

ـ عرفنا ماتريد ان تقول ، تريد ان تسألنا عن مسلم بن عوسجة وولده عبد الرحمن ، أليس كذلك ؟! ـ نعدك بأننا سننظر في أمر الاثنين والويل لهما ..

فاشرق جبينه قائلاً : وتفعل ذلك في هذا العام ؟

ـ قلنا لك ان تسمع وتطيع دون ان تسأل فانصرف الآن وكن مع الشيعة كما كنت من قبل ، ولكي ينجو من لجاجته ، ويثبت له رضاه عنه ، في الوقت نفسه ، نادى سرجون قائلاً له : ان الربيع بن شبث سيعود الى الكوفة فاعطه في هذه الساعة الف درهم وارجع الينا فان لنا حاجة اليك ، وقد رأى الربيع عندئذ ، ان مهمته قد انتهت ، فودع معاوية وهو واثق بان امر مسلم وعبد الرحمن قد انتهى .

ولم يلبث سرجون حتى عاد ، بعد أن أعطاه المال .

فقال معاوية : مَن في دمشق من رجال الحرب ؟

ـ طوائف لاتعدّ ياامير المؤمنين . ـ ومن القواد ؟

فسمى له بعضهم ، فقال :

نحتاج الى قائدين من هؤلاء يسيران معنا الى الحجاز .

ـ ومعهما عدة القتال ؟

ـ أجل ووراءهما ألف رجل على الخيل ، من فرسان المسلمين الاشداء .

ـ ان سفرك يا أمير المؤمنين ، على هذا الوجه ، سيتحدث به الناس .

ـ لانبالي بما يتحدثون به ، ان اهل الحجاز استخفوا بنا ولم يبايعوا ولي العهد ، وهذا معناه انهم لايطيقون ان يكون خليفة بعدنا ولايريدون الا ان يحدثوا حدثاً تضطرب له الامة . . فأهلا بهم اننا ذاهبون اليهم قبل ان تمتد لهم اصبع ، وسنأمرهم بان يبايعوا دون أن يظهروا شيئاً من التردد ، فاذا فعلوا رجعنا ونحن شاكرون والا فالسيف ، وما نحن براجعين عن ذلك . .

قال : ارسل ولي عهدك فيبايعوه وهو حاضر .

قال : نخشى ان يستخفوا به فتسوء العاقبة . . لا . . لايذهب غير امير المؤمنين نفسه ليؤدب هؤلاء المترددين . ثم قال : مُر فلاناً وفلاناً من القواد ، بان يعدّا العدة ويختارا ألف فارس من الابطال المجربين . ـ ثم ماذا ؟

ـ وقل ليزيد أن يلزم مجلسنا في الايام الباقية من هذا الشهر ليرى بعينه رجال الحاجات ، ويسمع باذنه مايقضي به امير المؤمنين .

وبينما هو يقول ذلك اقبل يزيد ، فقال له :

كنا نهم بان ندعوك الساعة فاجلس .

فقال : ماذا يريد امير المؤمنين ؟

ـ يريد أن يجلس ولده ، شهرين اثنين ، على عرش الخلافة .

ـ اذن عولت على السفر .

ـ نعم ونحن واثقون ، بأن الناس سيقولون ، في خلال الشهرين اللذين ذكرنا ، أن ولي العهد اهل للخلافة . قال : اعهد الي فيما تشاء يا مولاي .

ـ نعهد اليك في حفظ مـــال المسلمين فلا تحسن الى احد من الناس ونحن في الحجاز وامنع العطاء ريثما نعود . ـ واذا سألنا الناس أن نعطيهم ، على عادة امير المؤمنين .

– تسألهم عندئذ أن يصبروا فهذا ما نريده .

وكان معاوية يريد أن يختبر ولده ، فقال يزيد : وبعد ذلك ؟

– ولا تعزل مسيئاً ولا تولّ محسناً . – لا أولي ولا اعزل ؟

– وأذا اشتعلت نار الفتنة في ارض فلا تشهر حرباً ولا تخمد هذه النار بالسيف.

قال : خير لك يا امير المؤمنين أن تقول : اني لا شيء ...

– بل انت كل شيء يا بني ويكفي أن تجلس للمظالم كل يوم وتقضي بين الناس بالحكمة والعدل وهذا خير ما تصنع .

– واذا جاءت وفود الاقاليم تطلب الينا قضاء حاجة ؟

– تفعل ما يفعله امير المؤمنين ، وسترى في هذه الايام ، قبل أن نسير الى الحجاز ، كيف يرضي امير المؤمنين وفوده .

– بقي أمر هو أن الجند سيطلب ارزاقه فهل اعطي ؟

– هذا امر يقوم به سرجون كما تعود .. إن الجند شيء وطلاب العطاء شيء آخر فاحذر أن تغضب جندياً واحداً .

وقال لسرجون : اذهب وقل للقائدين ما أمرناك بقوله والحق بنا الى المسجد بعد ساعة .

وكانت طوائف الناس ، عند المسجد ، فدخل معاوية ينظر في امرها ويزيد معه يسمع اقواله ، ويصغي الى ما يقضي ، ومرت ايام ويزيد لا يفارقه ، حتى اتت ساعة الرحيل وكان كل شيء قد تهيأ ، كما اراد .

●

٤٠

مشى الحراس امام أمير المؤمنين ووراءه بالحراب ، وتقدمه الجيش الى الحجاز ، وهو الف فارس . والمختار رئيس الحرس بين يديه ، وكان الناس ، في البوادي والقرى التي يمر بها ، يخرجون لاستقباله ، وهو يبتسم لرؤسائهم ويبذل لهم المال ،

وقد تناقلت الناس خبر مسيره ، وسبقته الاخبار الى المدينة ، وعاملها مروان بن الحكم ، يعرف ذلك ، وهو ساكت ، فلما كان معاوية ، على بعد مرحلتين منها ، دعا مروان الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وهم وجوه الناس ؛ وقال لهم : إن امير المؤمنين ينتهي الى المدينة بعد يومين .

فقال الحسين : بلغنا اليوم خبر مجيئه .

– وما ترون ؟ – دعانا الامير فأتيناه فليذكر رأيه .

– ارى أن تخرجوا انتم الامراء للقائه .

– وما هي غايته من المجيء الى الحجاز ؟ – جاء يقضي نسكه على ما اظن .

فتشاوروا ثم قال الحسين : نخرج عندما يدنو الى المدينة .

وانصرفوا وبعضهم يقول للبعض الآخر : والله لم يأت إلا من أجل يزيد .. ونحن لا نبايع .

وبعد يومين أطلَّ الجيش ، فخرج الحسين ، ووراءه ابن الزبير ، وابن عمر ، وخلفهم الناس ، وكان الحسين اول من رآه ، فلما لقيه فاجـأه معاوية بقوله : (لا مرحباً ولا أهلاً .. بدنة يترقرق دمها ...) « البدنة من الإبل والبقر تهدى الى مكة فتنحر وسميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها قبل الذبح » .

فقال الحسين : مهلاً فاني والله لست بأهل لما تقول !

– بلى ، إنك اهل لشر منه .

ودنا عندئذ ابن الزبير ، فقال له : لا مرحباً ولا اهـلاً ، ضبٌ يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره ، نحُّوه عني ، ثم أمر فضربوا وجه راحلته .

ولقيه عبد الله بن عمر فقال له مثل ذلك ، فساد الصمت موكب معاوية ، ومشى الامراء معه وهم ساكتون وهو لا يلتفت اليهم حتى دخل المدينة ، فأقبلوا يستأذنون عليه ولكنه لم يأذن لهم ، ولم يروا منه ما يحبون .

فدعاهم الحسين فقال : نخرج الى مكة ثم نرى ما يفعل .

فخرجوا اليها وبلغ خروجهم معاوية فقال لخاصتـه : لأقتلنهم جميعهم إن

لم يبايعوا .

وقام فخطب ، فذكر ولي عهده ومدحه ثم جعل يقول : من أحق منه بالخلافة ، في فضله وعقله وموضعه ،وما أظن قوماً بمنتهين حتى يصيبهم بالسيف

ثم دخل على عائشة فقالت له : بلغني أنك تتهدد الحسين وأصحابه بالقتل !

قال : يا أم المؤمنين هم أعز من ذلك ..! — ولكنك قلت هذا لقومك ..

قال : أعطى الناس البيعة ليزيد أفترين ان أنقض بيعة قد تمت ؟

— لا تنقضها ولكن ارفق بالناس فانهم يصيرون الى ماتحب ان شاء الله ، ثم قالت : يامعاوية ألم تفعل بأخي محمد مافعلت ؟ « محمد بن ابي بكر الذي قتل في مصر » . قال : لم يكن لي بذلك علم .

— وما يؤمنك اليوم أن ارسل اليك رجلاً يقتلك ؟!

قال : إني بيت أمن يا أم المؤمنين .. قال هذا وانصرف لانه لم يكن يريد ان يسمع اكثر من ذلك ، ومكث بالمدينة بضعة عشر يوماً حتى بايع الناس ، ثم تركها يريد مكة، فتشاور الامراء مرة ثانية في الأمر ثم أجمعوا على أن يستقبلوه ، وهم واثقون بأنة قد ندم على ما كان منه . وخرجوا الى « بطن مر » ينتظرون فيه .

وكان أول من لقيه الحسين ، فقال له معاوية : اهلاً ومرحباً بابن رسول الله وسيد شباب المسلمين !! وأمر له بفرس فركبها ومشى بالقرب منه .

ثم قال لابن عمر : مرحباً وأهلاً بابن الخليفة الذي رفع شأن الاسلام ... أعطوه مثلما أعطيتم الحسين ... اركب يا عبد الله !

وعندما لقيه ابن الزبير ، قال : انك أهل لان تساير الخليفة فهذه فرسك .

واقبل يخاطبهم ويهش لهم لايسير معه غيرهم حتى دخل مكة ، فكانوا أول داخل وآخر خارج من مجلسه ، ولايمضي يوم الا ولهم فيه صلة ، وهو لايذكر لهم شيئاً ولا يحدثهم بأمر البيعة ، ولكنهم عرفوا انه لم يصنع بهم ماصنع الا من أجل غايته .

وكان الحسين يقول : سيطلب الينا ان نبايع فأعدوا له جواباً :

فقال احد الانصار : واذا لم يشأ الا ان تبايعوا فما تصنعون ؟

– نسكت ولا نبايع . وفوضوا الى عبد الله بن الزبير ان يتكلم باسمهم ، حتى قضى معاوية نسكه وحمل اثقاله وهمّ بالمسير .

فدعاهم اليه فقال : قد علمتم سيرتي فيكم واحتمالي ما كان منكم ، ويزيد اخوكم وابن عمكم وقد اردت ان تبايعوه وستكونون انتم الذين يعزلون ويولون ويجبون المال ويقسمونه لايعارضكم في شيء من ذلك ... !

فسكتوا كأنهم لم يسمعوا شيئاً ! فقال : الا تجيبون ؟

فلم يسمع جواباً ، فأعاد كلمته مرتين وهم لايقولون كلمة .

فاختلجت عيناه .. واصفرت شفتاه .. ثم قال لابن الزبير :

قل ، انك لعمري خطيب القوم .

فرفع عبد الله صوته قائلاً : نخيرك بين ثلاث خصال فاختر احداها .

قال : اذكرها .

قال تصنع كاصنع رسول الله ،او كا صنع ابو بكر..أو كا صنع عمر بن الخطاب.

– ماصنع رسول الله ؟

– لفظ روحه ولم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر .

قال : ليس فيكم مثل ابي بكر واخاف الاختلاف .

– صدقت ، فاصنع كا صنع ابو بكر . – ماذا ؟

– عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه وانت تعلم من هو الرجل .. انه عمر بن الخطاب . قال : ليس فيكم مثل عمر .

– اذن فاصنع مثلما صنع . . جعل الأمر شورى في ستة رجال ليس فيهم أحد من ولده . .

فقبض بيده على لحيته وقال : وهل عندك يا ابن الزبير غير هذا ؟

– لا . – وانتم ؟ – نقول قوله ..

قال : كنت اخطب فيكم فيقوم احدكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحتمل ذلك منه وأصفح عنه ، وإني قائل الآن قولاً فأقسم بالله لئن ردّ عليّ احدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه .

ثم دعا المختار صاحب حرسه فقال له : أقم على رأس كل رجـــل من هؤلاء

رجلين مع كل واحد منهما سيف فان ذهب رجل منهم يرد عليّ كلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما . ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر وكان الناس قد اجتمعوا .

فحمد الله ثم قال : إن هؤلاء الرهط ، وأشار الى الحسين وابن عمر وابن الزبير ، سادة المسلمين وخيارهم ، لا يحدث شيء إلا بأمرهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا بيزيد وبايعوه ، فبايعوا مثلهم على اسم الله . !

فبايع الناس ، وهم يرون السيوف بأيدي الحراس . ثم ركب وانصرف الى المدينة دون ان يكلم احداً ، وقد رأى القوم الجفاء في عينيه .

فقال اهل مكة للحسين ومن معه : زعمتم انكم لا تبايعون فلمَ رضيتم وبايعتم؟

قالوا : والله ما فعلنا . — وما منعكم ان تردوا على معاوية ؟

— خفنا القتل ، والبيعة ليزيد بيعة سيف لا بيعة رضى .

— ومع ذلك فقد انتهى الآن كل شيء .

فسار الحسين الى منزله ولم يرد ان يقول كلمة بعد ان رأى من معاوية مارآه ،

ولم يمكث معاوية طويلاً بالمدينة بل سار الى دمشق وقد جفا بني هاشم ، واشتهر امر جفائه ، فأتاه ابن عباس ، بعد بضعة اشهر ، وهو في مجلسه ، فقال له : ما بالك جفوتنا ؟

قال : إن صاحبكم الحسين لم يبايع فلم تنكروا ذلك عليه .

فقال : يامعاوية ، إني لخليق ان انحاز الى ساحل من السواحل فأقيم به ثم انطلق بما تعلم حتى اجعل الناس كلهم خوارج عليك ..

فأجابه قائلاً : يا أبا العباس ، نكف عن الجفاء ، ونعطيكم كما كنا نعطيكم من قبل . وبينا ابن عباس عنده ، دخل عليه ، سعيد بن عثمان بن عفان ، وكان يزيد حاضراً ، فصافح معاوية سعيداً ، وأدناه ثم سأله عن حاجته ، فقال ، أأذكر حاجتي الآن ؟

— نعم . قال : جئت اسألك ان تستعملني كما استعملت سواي .

فأجابه وهو يتكلف الابتسام : على أي اقليم ؟ — على خراسان .

قال في خراسان عبيد الله بن زياد .

– ولكنك جعلت له ولايتين فليكتف بالبصرة .

قال : لا نعزله بدون ذنب .

– تعزل عندما تشاء ولا تنظر الى الذنوب . .

– أصبت فنحن نعزل من نشاء إلا عبيد الله ...

قال : ألا استحق ان أكون من عمالك ؟

– بلى وانك من احب الناس الينا كما تعلم وسنجعلك عاملاً في هذا العام او العام الذي بعده .

فجعل ينظر الى يزيد وهو ساكت . فقال : أراض انت ؟

– لا والله ، لقد اصطنعك ابي حتى بلغت باصطناعه مابلغت فما شكرت بلاءه ولا جازيته وقدمت هذا « واشار الى يزيد » واعطيته البيعة واني والله لخير منه أباً وأماً ونفساً ... !

فقام في ذهن ابن عباس ، أن معاوية سيعمد الى السوط ، ولكنه رآه هادئاً ثم سمعه يقول : اما بلاء أبيك فقد يحق علينا الجزاء به وقد كان من شكرنا لذلك انا قد طلبنا بدمه . . واما فضل ابيك على ابيه فهو والله خير مني ، وأما فضل أمك على أمه فلعمري امرأة من قريش خير من امرأة من بني كلب . . واما فضلك عليه فوالله ما احب أن الغوطة ملئت رجلاً مثلك . . .

ونزل الحلم على يزيد فقال : يا امير المؤمنين . ابن عمك وانت احق من نظر في أمره وقد عتب عليك فاستعمله على اي بلد شئت .

فقال معاوية : أتطمع ياسعيد بغير خراسان ؟

– لا ياأمير المؤمنين ما أريد سواها .

قال : نوليك حربها ونولي خراجها رجلاً غيرك . – من هو ؟

– اسحق بن طلحة ، « وهو ابن خالة معاوية » .

قال : افعل فقد رضيت .

فولى الرجلين ، ولكن الموت فاجـأ اسحق وهو بالري ، فجمع معاوية لسعيد ، حربها وخراجها ، وعزل ابن زياد .

وقد كتب اليه : ان لسعيد بن عثمان منزلة وفضلاً وانا قد وليناه خراسان

فاكتف بالبصرة فان امير المؤمنين راض عنك .

وكانت السنة السابعة والخمسون قد دخلت ، عنـــدما استقام لسعيد أمر خراسان .

●

٤١

قدم الضحاك بن قيس الكوفة ،والناس يقولون :

قدمها والياً وعزل عبد الله بن خالد .

ولم يكن لعبد الله ذنب ، الا رغبة معاوية في تغيير الوجوه . . . واختبار الرجال الذين يظهرون اخلاصهم له ، وجلس الضحاك في قصر الامارة واقبلت وفود المهنئين ، وكان الربيع بن شبث قد عاد من دمشق وخبر اباه أنه رأى أمير المؤمنين جالساً في المسجد ، ولكنه لم يمثل بين يديه ، ونصح له بان يزور الضحاك ، وان يكون اذا استطاع ، من أقرب الناس اليه .. .وشبث بن ربعي، المتردد في أمره ، اللابس في كل يوم ثوباً ، سمع لولده ، ورأى ان التقرب الى الوالي يرفع منزلته في القوم .

ومرت اربعة أيام على قدوم الضحاك ، فقال سليمان بن صرد لرجال الشيعة وهم عند المسجد : ما رأيكم في الدخول على عامل معاوية ؟

فقال هانيء بن عروة :

لاشيء يمنع الشيعة من الدخول على الضحاك بن قيس كل يوم .

وقال مسلم : نحن من اهل الكوفة ، فمن الرأي ان نصافح الرجل كما يصافحه جميع الناس ، دون أن نتحدث بأمر الا اذا أراد هو .

– وأنت ياشبث ؟ – اني من هذا الرأي وسنزوره غداً .

– ومتى تفعلون ذلك ؟ – فقال ابن الحجاج عند الصباح .

– أما أنا فأرى أن نسير اليه ثلاث فئات ، الاولى عند الصباح ، والثانية

عند الظهر ، والأخرى قبل الغروب . — لماذا ؟

— كي لايظن ان الشيعة تأتيه مجتمعة كأنها على موعد .

— بل نسير اليه مجتمعين لتملأ هيبة الشيعة نفسه .

وانصرفوا على هذا الأمل ، وعند الصباح استأذنوا على الضحاك ودخلوا ، فنهض يصافحهم واحداً واحداً والربيع معهم ولم يحضر عبد الرحمن ، ثم أمر لهم بالجلوس وجعل يقول : أمرني أمير المؤمنين بأن أجعل الكوفة كلها رأياً واحداً وكلمة واحدة دون ان أؤثر رجلاً على آخر ودون ان يكون لي في رجل هوى ، فلم يجيبوه ، ثم قال : ويريد امير المؤمنين ان انظر في المظالم والحاجات ، واحفظ هيبة الخلافة وأرفع اليه كل أمر لا أستطيع قضاءه .

ونظر الى سليمان قائلاً : لا أعرف جميع هؤلاء الرجال فاذكر اسماءهم .

فجعل يسميهم حتى انتهى ، فقال الضحاك : وما هي حاجاتهم ؟

— ليس لأحدنا حاجة ايها الأمير . — ولا تسألوننا شيئاً ؟

— إن الكلمات التي قلتها الآن لم تبقِ لنا سؤالاً .

قال : كيف كان عبد الله بن خالد في الكوفة ؟

— كان ليناً حسن السيرة أحبه الناس ولم يخافوه .

فقال الربيع : بل كان ضعيفاً ايها الأمير، يغض الطرف عما يراه ، ويسكت على ما يكره ؟!

فانتهره أبوه قائلاً : لم يسكت في الكوفة عن أمر لايصح السكوت عنه .

— هذا ابنك يا ابن ربعي ؟ — نعم .

فأراد الضحاك ان يخدع الربيع بمظاهر الحب ليستسلم اليه ، ويفضي باسرار الشيعة كما أمره معاوية ، فقال : إنه جريء صريح .. كيف كان عبد الله ضعيفاً يا بني ؟

قال : لو طلبت الشرط رجلاً بأمر امير المؤمنين وأتوا عبد الله يسألونه رأيه لاكتفى بقوله لهم : لا رأي لي !!

قال : ما أظن ان عاملاً من عمـــال امير المؤمنين يجسر على ذلك .. انا الضحاك بن قيس ، لو أمرني الخليفة بان أهدم منازل الكوفة كلها على رؤوس أصحابها لفعلت !!

قال : أما عبد الله فلو أمره الخليفة بان يقبض على أحد الخوارج المقيمين بهذا البلد لاحتجب خائفاً في بيته .   – وهل حدث شيء من هذا ؟

– لو حدث لبان ضعف عبد الله . قال : أتعلم ياشبث أن في الكوفة خوارج؟

– ولماذا يسألني الامير عن ذلك ؟

– لأنك تعرف هؤلاء وقد خرجت على علي . .

– كان ذلك فيما مضى ولاصلة لي بمن ذكرت .

– يقولون أن بالبصرة طائفة منهم وقد ذكرت أسماؤهم لامير المؤمنين ، وأنا في مجلسه ، فكتب في أمرهم الى ابن زياد .   – ومن هم ؟

– طواف بن غلاق ، وهو يرأس سبعين أو ثمانين خارجياً يجتمعون في منزل رجل اسمه جدار .   – لا أعرف الرجل وأظن انه لم يشهد صفين . .

– وتعرف عروة بن أدية التميمي ؟   – وهذا منهم ؟   – أجل .

– أعرف أخاه أبا بلال فقد انكر التحكيم في ذلك الزمن وشهد النهروان مع رفاقه وأبوه حدير من تميم .

– أصبت وهنالك رجال غيرهما ستغير عليهم الخيل .

وخطر للأمير عندئذ أن يداعب القوم ، فقال :

أنتم وجوه الناس ، ونحن نعلم كما يعلم أمير المؤمنين انـكم تتشيعون ويضمكم في الليالي السود ، منزل سليمان . .

فظن القوم عندئذ أن الصاعقة ستنقض ، وقد ساد السكوت قليلاً ، ثم قال مسلم : وكان الولاة قبلك يعلمون ذلك ولم يروا أن التشيع من الذنوب .

– ولكن علياً والحسن قد ماتا ، والحسين وولد علي لايطمعون ، فمن الرأي أن تكونوا مع الجماعة . .

قال : ماقاتلنا خليفة ، ولم نشهر السيف على أمير ، وانما نحن نعتقد ان علياً

هو الامام بعد رسول الله وأن الامامة لاتخرج عنه وعن بنيه . . .

ـ وهذا يكفي ، وقد لايطيقه أمير المؤمنين .

ـ حسب معاوية أن نكون خاضعين لسلطانه ولو ذكرنا علياً أتمنعنا أيها الامير من الاجتماع في منزل احدنا ؟ ـ لا .

ـ ويمنعنا معاوية ؟ ـ لو أراد ذلك لفعلناه .

ـ اذن فنحن أحرار نجتمع ونتفرق عندما نشاء .

ـ أجل ، ولكن لاتخطبوا في المساجد ، ولاتوغروا صدور الناس على أمير المؤمنين ، ولا تجعلوا اجتماعكم في الأسواق . ـ واذا سعى بنا أهل الشر ؟

ـ لايجد أهل الشر سبيلاً الينا . . ونحن نصنع مايقوله أمير المؤمنين لانزيد عليه حرفاً ولا ينقص حرف ، الا أمراً واحداً نخالفه فيه هو انه طلب الينا ان ندعوكم الى البيعة ونحن نرى أن لانفعل .

وقد كذب الضحاك فمعاوية لم يأمره بذلك .

فقال مسلم : اذا بايعنا بايعنا مكرهين ونحن معتقدون اعتقادنا الذي ذكرناه.

ـ ولكم ان تعتقدوا ماترون ، على ان لانرى عصياناً وخروجاً على الخليفة ، وكل أمر يعرض لكم شاورونا فيه . .

فقال سليمان : انك ايها الأمير خير من رأينا من العمال .

قال : لقد جمعنا الإسلام فنحن اخوة ولا نقول الآن غير هذا . .

ودخل الحاجب عندئذ يقول : بالباب قوم من بني مذجح .

فأذن لهم في الدخول ، وانصرف رجال الشيعة وهم معجبون بما رأوه من لين الضحاك وأدب نفسه ، وقد فاتهم أن معاوية هو الذي علمه أن يلين ...

●

٤٢

مكث بنو مذجح ساعة ثم خرجوا ، وقبل ان يدخل والي الكوفة منزله ،

أقبل الربيع بن شبث يستأذن عليه ، لكلام يريد ان يقوله له .

فقال الضحاك في نفسه : سقط الفتى في الشرك .

ودخل الربيع ، ففاجأه ابن قيس بقوله : لم ترجع الينا الساعة إلا لأمر فما وراءك ؟

– جئت اولاً أشكر الأمير على حسن ظنه بي .

– ومتى أحسن الأمير ظنه ؟

– عندما قال لرجال الشيعة : ان الربيع صريح وجريء ...

– تلك كلمة اقولها لكل من ينطق بالحق سواء أكان صديقاً أو عدواً لي ولأمير المؤمنين . – ولكني من اصدقاء الأمير ، ومن عبيد الخليفة المخلصين .

أما انا فلم ارَ شيئاً من هذا الإخلاص الذي ذكرت ..

قال : ألم يحدثك امير المؤمنين بأمري .

– بلى ، وقد قال لي انك تماشي الشيعة في الظاهر وأنت في الباطن اموي تخدم الخلافة .. – وامير المؤمنين اذا قال صدق ..

قال : ان الذي يراه والي الكوفة وهو في الكوفة ، غير الذي يراه امير المؤمنين وهو في دمشق .. قال : وهذا معناه انك تشك فيما قيل لك ..

– ليس من الغريب ان نشك فيما نرى ونسمع ، إنا في زمن يشك المرء فيه ، في بنيه ، بل يشك في نفسه .

قال : سيزول هذا الشك بعد بضعة ايام ان شاء الله .

– ان شاء الله . ولكن لماذا رجعت الآن ؟ – لأشكر الأمير كما قلت .

– وبعد ذلك ؟ – وأخبره بعد ذلك ما لا يعلم .

– من اخبار الكوفة ؟ – بل من اخبار الشيعة .

– لقد رأينا رجال الشيعة الآن ، وحذرناهم ، وذكرنا لهم ما قاله امير المؤمنين وهذا يكفي .

– وسمعت أقوال مسلم ؟ – سمعنا قوله وقول سواه .

– وكيف صبرت ايها الأمير على ما سمعت ؟ أيشهد رجل من بني اسد مجلس

والي الكوفة ، ويقول فيه : إذا بايعت ، بايعت وأنا مكره ، وتغض الطرف عن ذلك .

– وكنت ترى يا ابن شبث ان نأمر الشرط بالقبض عليه ؟

– أجل ، كان عليك ان تفعل ذلك او تنهاه .

فجعل يخاطب نفسه قائلاً : أصاب امير المؤمنين فالفتى من المجانين .. ثم قال له : اخفض صوتك وحدثني بكل شيء .. قل ، أتبغض مسلماً ؟

– نعم حتى اني لا أطيق ان اراه وارى ولده عبد الرحمن ؟

– وهل كان عبد الرحمن مع القوم ؟

– لا ، فهو أرفع من أن يصافح والي الكوفة ويحني له رأسه .

– ولكن أباه لم يتردد في المجيء .

– إن مسلماً لم يشأ ان يغضب رفاقه .. أرادوا ان يزوروك ففعل وكأنهم يجرونه الى ساحة الإعدام . – وعبد الرحمن ؟

– واما عبد الرحمن فكان يقول : خير لي أن تتخطفني السيوف ، من ان أرى أموياً يحب معاوية . – وقال ذلك على مسمع من الناس ؟

– قاله لأبيه وانا سامع . – وبماذا اجابه مسلم ؟

– أومأ اليه بان يسكت ثم هامسه قائلاً : احفظ لسانك فإذا عرف الضحاك انك قلت هذا ارسل في طلبك وقد يحملك رجاله الى الشام .

قال : صفه لي .

– إنه فتى اسمر الوجه إذا مشى ملأت الخيلاء بردتيه . – وعمره ؟

– قد يكون اليوم في عامه الثامن عشر .

– إذن فكلامه كلام صبي لا وزن له .

– بل كلام رجل سيتزوج امامة الزبيدية ، بعد عامين .

– من هي امامة ؟

– هي حسناء الشام والعراق .. وأبوها عمرو بن الحجاج .

– وهل يبغض ابن الحجاج معاوية كما يبغضه مسلم ؟

ـ أعترف لك بأني لا استطيع ان اقرأ البغض او الحب في صدر عمرو .. إنه يتشيع ولكن تشيعه ضعيف لا شدة فيه . ـ وكيف تعرف ذلك ؟

ـ أعرفه من حديث القوم فهم يذكرون البيعة كل يوم وابن الحجاج ، وابي ، لا يترددان فيها إذا طلبها الأمير .

ـ سنطلب البيعة بعد ان نكتب الى امير المؤمنين لأنه لم يأمرنا بان نعرض لها وهو لايحتاج الى مبايعة المتشيعين ، وخطر للضحاك عندئذ ان يختبر الفتى من وجه آخر يدور به حوله ، فقال : نسألك الآن عن امامة .

ـ سل ما تشاء ايها الأمير !

ـ قلت إنها حسناء الشام والعراق أليس كذلك ؟ ـ بلى .

ـ وهي كما تقول ؟ ـ ليس في نساء العرب أجمل من امامة واحسن وجهاً .

ـ وأمها زبيدية ؟ ـ بل هي من بني سعد .

ـ وقلت أن عمراً يتردد في تشيعه .

ـ لم أقل هذا أيها الامير ولكني قلت أنه لايتردد في أمر البيعة .

ـ اذن فليس هنالك مايمنع والي الكوفة من أن يخطبها لواحد من بنيه وسأفعل ذلك غداً . ـ ولكنها مخطوبة .

قال : سيفوّض اليها أبوها أن تختار واحداً من الفتيين .

قال : فعل ذلك من قبل فاختارت عبد الرحمن . ـ ومن كان الفتى الآخر ؟

ـ أنا . ـ ولم ترضَ بك ، وأنت ذلك الفتى الجريء ، وأبوك شبث ؟

ـ لا ، وهي تقول اليوم أنها لاتترك عبد الرحمن ولو طلبها أمير المؤمنين نفسه ، ليزيد ولي عهده . ـ ومع ذلك فسنطلبها غداً ولتقل ماتشاء .

قال : أرجو من الامير الاّ يفعل . ـ لماذا ؟

ـ لأني أظن أنها سترضى بي بعد حين .

ـ وكيف تظن ذلك وأنت القائل أنها لاتترك الفتى الاسدي ؟

ـ اعتقد أن مسلماً سيمعن في عداوته ، وسيدفعه بغضه وتشيعه ، الى الخروج عن الحد الذي يحتمله الخليفة . ـ وماذا تعني بقولك ؟

قال : إن أمام مسلم أمرين لاثالث لها ، اما أن يقتله الخليفة كما قتل حجراً واما أن يأمر بارساله الى احدى بوادي الشام .

ـ اذا قتله كما تظن ازدادت الفتاة غراماً بولده .

ـ ولكن لاتنس أن هذا الولد يقتل بعد أبيه ..

ـ واذا لم يفعل الخليفة ماتقول ؟ ـ يخرج الوالد والولد من الكوفة الى الابد.

ـ ويبقى ابن الحجاج ؟ ـ نعم يبقى ولا يجسر على أن يلحق بمسلم .

ـ ثم تزف امامة اليك وينتهي الأمر .

ـ هذا مايقوم في الذهن أيها الامير ، فغضّ الطرف عن امامة الآن واخطب لولدك فتاة أخرى من بنات الامراء .

ـ ولكن بقي شيء آخر لم تفكر فيه هو أن الفتاة نفسها تخرج من الكوفة عند خروج عبد الرحمن ، وتلحق به الى حيث يشاء دون أن تبالي بأحد .

ـ اذا فعلت ذلك لحقت بها الخيل فأنا سأحتاط للامر من جميع نواحيه .

ـ ولا ترجع عن هذا ؟ ـ لا يامولاي فعدني بأنك تارك امامة ..

ـ نعدك بذلك على أن نعود الى الحديث في وقت آخر ، وعلى أن تحصي أنفاس مسلم ومن معه لنوغر عليه صدر أمير المؤمنين .

ـ وسأحصي أنفاس هانيء بن عروة ، في الوقت نفسه فهو أصل البلاء . . . !

قال : اذا كان هذا فامامة لك .

وقام فدخل منزله ، وانصرف النمام الواشي وهو يبتسم لأمله الضاحك ويعلل النفس ببلوغ غايته والقضاء على كل من يعرض له في غرامه ، وقد قام في ذهنه لمرضٍ في النفس وخَوَرٍ في الخلق ، ان الدنيا فريسة النمّام .. الذي يدبّ على أربع ، للوصول الى الغرض الذي يفكر فيه !! أفيستقيم له الأمر ، وتزف اليه حسناء بني زبيد ، إذا هو ترفع عن السعاية ، واحتمل ما لا يطيق احتماله من لواعج الحب . . وهل ينتهي به اعتصامه بالهدوء والصبر ، ووقوفه عند حدود الأمل ، الى نيل مايتمناه ؟! لا ، إن الترفع ، والسكوت عما يراه صفقة غير

رابحة ، ومن الرأي أن ينمّ ويسعى ، ويدفع الفتى الذي احب امامة واحبته الى لجةٍ بعيدة الغور ، ليخلو له الجو !...

ونام ليلته ، وهو يحلم بالصبية الفاتنة التي ملكت عليه نهاه ، ويرى الهناء باسطاً فوقه جناحيه .. ولكن اليقظة ضيعت هناءه ، وأكرهته بعد الكثير من مساعيه ، على التراجع الشائن متعثراً بفشله .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الثمن
٨
ل.ل.